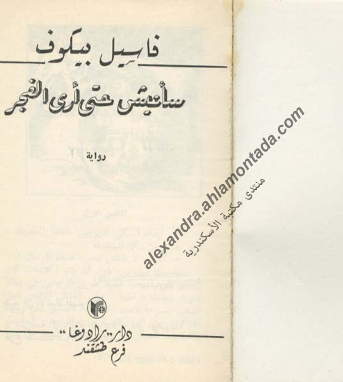


فاسيل بيكوف

سأعيش حتى أرى الفجر

رواية

دار "رادوغا"
فرع طشقند

ترجمة غائب طعمة فرمان
رسوم الكسندر كيفا

ВАСИЛЬ БЫКОВ

ДОЖИТЬ ДО РАССВЕТА

Повесть

На арабском языке

B $\frac{4702120201-384}{031\ (01)-89}$ 085—89

طبع في الاتحاد السوفيتي

ISBN 5-05-002012-5



الفصل الاول

قال ايفانوفسكي لديوبين قاطعاً الحديث ، وهو يخرج من ركن السقيفة :

– كفى ، لا نقاش بعد . صف الرجال !

وصمت ديوبين دون أن يتم كلامه . كان رئيس الرقباء هذا نحيلا طويل الرجلين في بدلة تمويه بيضاء مرتخية . وفي الغبش الثلجي لليل المخيم بسرعة لاحت اختلاجة الضيق على وجهه الداكن من اثر الصقيع والريح ، المخطط بالتجاعيد المبكرة . وبعد توقف قصير دل على

معارضته الصامتة للملازم ، مشى الى الامام بخطوات حادة في درب عبر الثلج لايكاد يرى ، متجها الى باب مغلق باحكام يؤدي الى مستودع تجفيف السنابل . نحاه ديوبين بحركة عريضة ، فترنح الباب ، وتدلى مائلا على مفصلة واحدة ، الآن لم تعد هناك حاجة لاغلاق هذا الباب باحكام .

— نهوض ! اخرجوا للاصطفاف !

توقف ايفانوفسكي ملقياً بسمعه . والكلام الذي جرى بخفوت في المستودع سكت ، وهدأ كل شيء هناك ، وكانما قد انجذب بقوة المغناطيس التي لا تقاوم لهذا الأمر العسكري الاعتيادي ، الذي كان يعنى الآن الشيء الكثير جداً بالنسبة للجميع ... غير أن كل شيء أخذ يتحرك هناك بعد لحظة، وينقلب، وترددت أصوات، وها هو أول رجل يجتاز فتحة الباب المظلمة الى بياض الثلج الناصع. «ييفوفاروف» — قال ايفانوفسكي في سره ساهماً حين حدق في الشبح الأبيض ببدلة تمويه جديدة ، ورآه يجمد مترقباً عند حائط السقيفة القاتم . الا أنه نسيه حالا ، وقد غرق بهمومه ، مصغياً الى صياح رئيس الرقباء الآمر في المستودع . فقد كان صوت ديوبين الصارم المهتم يترامى كامد الرنين من وراء جدران جذوع الاشجار :

— اخرجوا بسرعة ! لا تنسوا شيئاً ، فنحن لن نعود !

كان رئيس الرقباء حانقاً على ما يبدو ، لاختلافه مع الملازم ، رغم انه لم يبد اختلافه هذا ، في أي مظهر ، وعلى العموم كان في امكان ديوبين أن يحنق في دخيلته، ما شاء له أن يحنق، فهذا من شانه ، ولكن ما دام الملازم ايفانوفسكي الآمر هنا ، فان القرار له . وقد اتخذ قراره نهائياً وقطعياً : أن يعبروا من هنا وفي هذه الساعة اذ لا يمكن التأجيل الى الأبد ! فقد انتظر اربعة أيام تقريباً — كانت المسافة قريبة جداً ، حوالى ثلاثين كيلومتراً ، لكن حينما قاسمها على الخارطة قبل حين، اتضح انها ستون وطبيعي أنها أكثر من ذلك على الطبيعة . صحيح أن الليل في آواخر تشرين الثاني طويل . الا أن اشياء كثيرة جداً كانت تعتمد على ليلتهم الوحيدة هذه ، بحيث لا يجوز تضييع الوقت الثمين جداً الآن بالنسبة لهم .

تناول الملازم بحركة حازمة شدة الاسكي الاخيرة المركونة على الحائط — حزمته هو وحاد عن الدرب ، وسار على الثلج متقدماً ثلاث خطوات أمام المجموعة المصطفة في صف واحد . فك المقاتلون اسكياتهم على عجل ، ولبسوا قلنسوات بدلاتهم على رؤوسهم . كانت الريح الهابة من وراء المنعطف تخفق بغضب في القماش الرقيق لبدلات التمويه ، وتضرب صدورهم باطراف العقد الطويلة . كانت الحمولة اكثر من اللازم

بكثير ، رغم كل ما بذله ايفانوفسكي من جهد للتخلص من الزائد ، فكانت مجموعته كلها المؤلفة من عشرة اشخاص تبدو الآن شوهاء عديمة الشكل في سترها السميكة الدافئة والتي قد نفختها أكياس المتاع وحقائب القنابل اليدوية ، والبندقية والصرر وامشاط الخراطيش . وبالاضافة الى كل ذلك هناك شدات الاسكي التي هي الآن حمل كبير ، لا أكثر . ولكن كل هذا كان مهما ، بل وضرورياً ، وحتى الاسكيات التي كانت تبدو الآن أقل لزوماً من اي شيء آخر ستكون ضرورية جداً فيما بعد ، في مؤخرة الألمان . فقد كان كل أمله معقوداً على الاسكيات . فهو الذي اقترح في مقر الاركان أن تزود المجموعة بالاسكيات، فحظت فكرته هذه بموافقة الجميع حالا وبرضى، ابتداء من رئيس قسم الاستطلاع البارد المزاج ، وانتهاء برئيس الاركان المدقق، المرهق بالاشغال والمرؤوسين.

قضية أخرى كيف سيستفاد من هذه الفكرة .

وهذا بالذات ما كان يشغل بال الملازم الآن ، وهو ينتظر اصطفاف المجموعة صامتاً ، وبنفاد صبر مكتوم . في الاغبشاش الثلجي كان المقاتلون يفكون شدات اسكياتهم محدثين أصواتاً ، ويتدافعون في الدرب الضيق باجسادهم المترهلة بما تحمله من اشياء . كيف ستكون جدارتهم وهم على الاسكي ؟ لم يكن هناك الوقت

لأن يختبروا على الاسكي جميعاً ، وكما ينبغي ، فخرجوا الى الخط الامامي قبل انبلاج الفجر ، وانسلوا الى أجمة محنيي الظهور . منذ الصباح لازم نقطة المراقبة التابعة لآمر كتيبة المشاة في هذه المنطقة ، وراح يراقب العدو . ظل ثلج خفيف يتساقط طوال النهار من السماء الواطئة المتلبدة بالسحب ، وفي حوالي المساء تكاثف الثلج ، وفرح الملازم . وكان قد فحص خط العبور كله ، وحفظ كل نتوء فيه ، وها هو الثلج قد تساقط ، فلا اروع من ذلك ! ولكن حالما أخذ الظلام يهبط ، حتى تحولت الريح الى ناحية ، واخذ تساقط الثلج يخف ، حتى توقف كليا ، ولم تبق الا ندف قليلة تحوم في الهواء الصقيعي ، ضاربة جدران السقيفة الجذعية بعمه . اقترح رئيس الرقباء الانتظار ساعتين أخريين ، لعل تساقط الثلج يشتد من جديد . فان العبور عند تساقط الثلج أفضل بما لا يقاس ...

فرد ايفانوفسكي عليه بحدة سائلا :

— واذا لا يشتد ؟ نضيع نصف الليل عبثا ؟ أليس بهذا الشكل ؟

ولم يكن من الممكن تضييع نصف الليل ، فقد كان طريقهم كله معدا لتستغرق ليلة كاملة بالذات . وعلى العموم لم يكن من الممكن أن تنكر على رئيس الرقباء فطانته ، فان العبور اذا فشل، لن تكون هناك حاجة حتى الى اطول وأكمل ليلة .

صار الرقيب لوكاشوف في طليعة الطابور على الدرب ، وهو من المشاة النظاميين ، ركين البنيان ، صموت دحداح ، وكـادح أصيل . ومساعد آمر فصيلة من حيث الوظيفة ، أوفد خصيصاً لهذه المهمة من كتيبة حراسة هيئة اركان الجيش . شيء واثق قوي وموثوق كان يبدو في كل مظهره ، وحركاته المتأنية المحكمة . وبعده كان المقاتل حكيموف ، من المشاة أيضاً يسير على الدرب . وجهه الأسمر بحاجبيه الداكنين المعقودين يتحفز لاستقبال أمر ، وان لم يكن قد صدر بعد . بندقيته في يد ، والأسكي في اليد الأخرى عند القدمين . والى جانبه وقف المقاتل سودنيك الشاب المتخصص بالمتفجرات والفطن القوي البنية في مظهره ، وقف يعدل على كتفيه حمولة المتفجرات الثقيلة . وكان هو نفسه قد طلب ، من بين قلائل ، الانضمام الى المجموعة ، بعد أن ضم اليها شيلوديك رفيقه في الوحدة ، ومن سلاح الهندسة أيضاً ، وقد اشتغلا سوية في تجهيز «نقطة القيادة» . وكان ايفانوفسكي لا يعرف أي متخصص بالمتفجرات شيلوديك هذا ، ولكنه بالتأكيد غير بارع في التزحلق على الاسكي . وقد شعر بذلك منذ البداية . فان هذا الكهل ابن الاربعين عاماً ، الكثير الحركة ، الاهوج ، قد فكت شدته قبل أن يدخل الصف ، فتباعدت أطراف الخشبتين

والعصاتين في مختلف الجهات . وحين خف لجمعها ، اسقط بندقيته في الثلج .

تقدم منه ديوبين قائلا :

– الم تستطع ان تشدهما ؟ هاتهما هنا .

– وكيف تتزحلق على الاسكي ؟

– أنا ؟ نعم ... في وقت ما كنت أتزحلق .

«في وقت ما !» – فكر الملازم بعصبية . اللعنة ، تجمعت انماط من الناس ، لا يخلون من مفاجئات ، على ما يبدو . وهذا مفهوم ، على كل حال ، فقد كان عليه ان يقوم هو نفسه باستجواب الجميع ، والتحدث مع كل واحد منهم على حدة ، ويجرب كل واحد على الاسكي . ولكن لم يكن له وقت ، قضى يومين في المحادثة في هيئة الاركان ، مع رئيس الاستطلاع ، ثم مع آمر المدفعية ، وفي القسم السياسي ، والشعبة الخاصة . فاعد آخرون المجموعة بدون مشاركته .

هبط الظلام بسرعة ، وحل ليل شتائي بارد ، وهدأ تساقط الثلج بالتدريج ، ودبت العجلة في الملازم ، وبدا وكأن ديوبين قد انشغل وقتاً طويلا باسكي شيلوديك هذا ، حتى شده ، كان مقاتلوه يقفون في الصف ، والانتظار اللهوف يلوح على وجوههم الداكنة تحت القلنسوات . ووراء شيلوديك كان كراسنوكوتسكي الوسيم المهيب يرفع قدماً ، وينزل أخرى ، وهو في سدارته المدببة ، مثل سدارة ديوبين ، ووراءه

جمد زايتس الصموت . وكان آخر من وقف على الدرب هو أصغر افراد المجموعة سناً ، في أغلب الظن . انه بيفوفاروف ابن بلدة الملازم ، والمدفعي مثله . أجل ، لقد كان الملازم يعرفهم معرفة كافية ، يعرف أولئك الذين سيتعين عليه ، كما يبدو ، وفي القريب العاجل ، أن يشاطرهم المجد أو الموت ، ولكن لم يكن له خيار في الامر . لقد كان من الأفضل بالطبع أن ينتدب الى مثل هذا الأمر مع رجال مجربين في القتال ، معروفين لديه جيداً . ولكن أين هؤلاء المجربون المعروفون لديه ؟ الآن صار من الصعب حتى تذكر جميع القرى والمقابر الريفية ، جميع الغابات الصغيرة والاكمات التي دفن فيها أفراد كتيبته في قبور متآخية أو منفردة ، أو فقدوا ليس غير . وخلال اربعة اشهر من الحرب لم يسلم الا القليل ، وقبل أسبوع لم ينسل معه من مؤخرة الالمان غير أربعة منهم .ومع ذلك فقد تبين أن اثنين منهم قد اضر بهما الصقيع ، وواحد جرح عند العبور قرب الكسيبفكا ، وبقي الرقيب الثاني المحاسب فورونكوف معه حتى النهاية . وكان من الممكن أن تكون لفورونكوف هذا جدوى كبيرة الآن ، الا أن ايفانوفسكي لم يستطع أن يعثر عليه . فقد أرسل المحاسب الى كتيبة المشاة في الخط الأمامي ، وهم دائماً لا يعودون من هناك ، مع الاسف .

— اصطفاف ! هيئة استعداد ! أيها الرفيق الملازم ...

— استرح ! — قال الملازم وسأل — هل يعرف الجميع الى أين ذاهبون ؟

— نعرف .

قال لوكاشوف بصوته الجهوري . وصمت البقية موافقين .

— نحن ذاهبون في زيارة الى الالمان . أما السبب والغرض من ذلك فستعرفونهما فيما بعد . والآن ... من المريض منكم ؟ لا أحد ؟ يعني كلكم في صحة جيدة ؟ من لا يعرف التزحلق على الاسكي ؟

جمد الصف القصير متحفزاً . وراحت الوجوه التي اضناها الانتظار تنظر بحدة وامتثال من تحت القلنسوات الى آمرها الذي تسلم الآن وبالكامل مصائر جنوده . هدا الجميع وصمتوا وهم ما يزالون ، في اغلب الظن ، لايدركون بانفسهم كل ما يتعين عليهم أن يواجهوه عن قريب . ولكن لم يبق لهم أن يعولوا كلياً على آمرهم هذا ، وعلى رئيس الرقباء النحيل الطويل هذا الذي أخذهم على عهدته منذ يوم أمس .

حشر ايفانوفسكي يده في جيبه عبر شق في بنطلون بدلة التمويه ، وأخرج ساعة مكعبة ثقيلة ، كان قد أخذها من دبابة المانية مدمرة . أخذت الساعة تتكتك في راحته بحيوية وبهجة

متالقة بطرة ارقامها الفيسفورية . كانت تشير الى العاشرة الا سبع دقائق .

– عندنا ، اذن ، أثنتا عشرة ساعة . خلال هذا الوقت ، ما عدا بالطبع ساعة أو أكثر ولاجتياز تشكيلات العدو الحربية ، علينا أن نقطع ستين كيلومتراً . مفهوم ؟ من لا يقتدر على ذلك ؟ ليقل رأساً قبل أن يكون الوقت قد فات ، حيث لا يمكن أن نرسله الى أي مكان ، من ؟

أجال بصره في الصف مترقباً ، ولم يتحرك شيء في الصف ، وكان الصمت شاملا ، حتى كان يسمع حفيف ندف الثلج وهي تتطاير من السطح بفعل الريح . ولكن هنا أيضاً لم يرد أحد على هذا السؤال الذي لم يعد الآن ضئيل الاهمية .

– خلاص ، اذن . رئيس الرقباء في آخر الصف . المجموعة ، ورائي سر !

ولم يودعهم أحد هنا ، فقد كانت جميع اعدادات العبور العاجلة قد انتهت من قبل . ومنذ ساعة تم الاتفاق في نقطة القيادة لآمر كتيبة المشاة بان تصمت الكتيبة حتى لاتثير انتباه الالمان ، وها هي المجموعة تحاول أن تمرق غير ملحوظة في البواكير الأولى لحلول الظلام . وعلى اية حال ، وحتى اذا اقتضت المساعدة فما كان من الممكن أن تساعد كتيبة دبابات ليس لها من ذلك غير الاسم ، بينما لم تكن تتالف ، في واقع الحال ، الا من سرية مشاة ، لا اكثر ، كما كان

يقودها ملازم أول ، هو رامي مدفع رشاش ، كان الى حين قصير آمر سرية . وقد وعد أن يغطيهم بالنار عند الضرورة القصوى ، وحتى هذا كان مجرد وعد اضطراري بناء على طلب نقيب من قسم الاستطلاع التابع لأركان الجيش ، كان حاضراً هناك . ولكن هذا النقيب سيمكث قليلا ، ويغادر بعد قليل ، وعلى الكتيبة أن تواصل القتال فيما بعد ، والعتاد ، الى جانب ذلك ، ليس بالوافر ، والرئاسة تطلب الحرص عليه لظرف طارىء اكثر أهمية .

صحيح أن النقيب لم يصر كلياً على أن يتم العبور في هذه النقطة بالذات ، وفي هذا اليوم . ولكن ممثل هيئة الاركان أخذ يتردد ، حين رأى تساقط الثلج يهدأ ، وينكشف أمامه هذا الغمر النهري الواسع مفتوحاً خالياً وشريط الاجمات المتعرج في الوسط .

– نعم ، بالفعل . وكانما على صحن فارغ . وعلى العموم قرر بنفسك ، يا ملازم ، فأنت أكثر الماما في الموضوع .

قال ايفانوفسكي بايجاز :

– سأتحرك .

– طيب ، الأمر موكول لك . وقد يكون ذلك افضل : أن تندس في الموضع الذي لايتوقعونك فيه .

وفكر الملازم في انشغال ذهن : «الشيطان

يعرف اين لا يتوقعونني . فدعك عن هذا» .
ولكن لم يكن في مقدوره أن يؤجل الأمر اكثر ، فان التباطؤ في الأمر الذي يقدمون عليه الآن كان في حقيقة الأمر كالهلاك . فقد ابطأ بالفعل اكثر من الحد، ولو أن ذلك، بالطبع، لم يكن بارادته.

صعد المقاتلون الى رابية متقاطرين في طابور واحد ، غائصين في الثلج الى الكاحل ، واحياناً الى الركبة . التفت ايفانوفسكي ببصره الى الخلف ، وصار راضياً لأول مرة ، فان طابوره القصير كان يصعد مطواعاً ، ولم يتأخر أحد ، ولم يتلكأ . توقف هو ، فتوقف الآخرون جميعاً ، في وقت واحد تقريباً . والى ابعد من ذلك كان يقتضي الانتظار ، بل ولربما الاستراحة قليلا ، والانبطاح ، فقد كان من الممكن أن يراهم الألمان من قمة التل . كان السكون يخيم على الغمر وعلى المنحدرات ، حيث كانت الكتيبة ، وكانت أصداء القتال البعيدة لا تترامى الا من وراء الغابة الى اليمين ، وكان هناك شيء يشع بلا سطوع في السماء الداكنة المتلبدة بالسحب المنخفضة . وكان الغمر ينداح بانحراف في الظلمة مرقطا بلطخات الأجمات المغبشة ، وبقع أعواد القصب الطالعة فوق النهر مذرورة بالثلج، وخصائل الاعشاب الطفيلية طالعة من تحت الثلج . وكانت المسافة الى النهر لا تقل عن نصف كيلومتر . وكان يجب قطع هذه المسافة

على الأربع ، وبعد ذلك يقتضي قطع مسافة كبيرة زحفاً على الكوعين ، وما بعد ذلك يصعب تحديد الطريقة التي سيتقدمون بها ، فقط أن يكونوا في الجانب الآخر من الغمر في اسرع وقت ، في تلك الغابة المنقذة التي لاترى من هنا كلياً .

امر الملازم بصوت خافت :

— استلقاء ! ورائي تحرك ! — وهبط على كوعيه في الثلج .

كان الثلج عميقاً ، هشاً كالقطن ، لاذعاً في برودته ، يتسرب ، بلا رحمة ، في كل شقوق بدلة التمويه ، في القفافيز ، في الاردان ، وخلف فتحات الصدر ، وسيقان الاحذية العالية ، ويذوب هناك ، ويسيل على الجسم بللا بارداً مزعجاً . فكان هذا البلل المخلوط بالعرق يبعث القشعريرة في الاوصال تارة ، ويصير خانقاً متلزجاً تارة أخرى ، فتضغط على الصدر مرارة كاتمة للانفاس . نزع ايفانوفسكي قفازه ذا الاصابع الثلاث من يده باسنانه ، وجذب شرابة القلنسوة باصابع مبللة . فاستشعر بالبرد يزداد على وجهه ، وبطلاقة أشد ، والشيء المهم ان اذنيه تحررتا ، فكان يسمع حفيف الريح في الاعشاب ، وأصواتاً متناثرة مبهمة في الخلف .

زحفوا حوالى نصف كيلومتر ، في اغلب الظن ، وكانت الرابية باشجار الصفصاف لاتكاد تلوح رمادية الى الخلف ، في حافة السماء الليلية

الكالحة التي كانت في ظلمة المساء الرمادية تكاد تندمج مع الحقل الثلجي . وكانت الأخاديد التي خلفتها اجسادهم العشرة الزاحفة ، لاترى ، لحسن الحظ ، حتى عن قرب ، وكذلك المقاتلون أنفسهم . صحيح أن ذلك في الظلام فقط . فقد كان ايفانوفسكي يعرف أن انطلاق صاروخ واحد يكفي لأن يكشف بوضوح ، كل الأثر الذي خلفوه على الثلج ، وتكشف اشخاصهم ايضاً .

الا أن الجو الآن كان مظلماً وهادئاً ، على كل حال . وكانت المعركة لاتكاد ترسل اصداءها دمدمة كامدة ثقيلة من وراء الغابة ، حيث كانت تسرح في القبة السماوية ومضات نارية عريضة، هي انعكاسات نيران المدفعية البعيدة ، فتهتز الأرض المتثلجة تحت اكواعهم اهتزازاً أصم عميق الغور . ومن ذلك الجانب ، وراء الغابة ، كانت نجوم الصواريخ الصفر ترف في السماء من حين لآخر ، وتنطفىء على الفور في الخليط الكدر من النور والظلام .

كان عليهم أن يقطعوا هذا الغمر باسرع وقت ، وهم لم يجتازوا بعد المنطقة الامامية ، وما يزال أمامهم أخطر طريق بمحاذاة النهر . ولكنهم قد تعبوا جميعاً ، فأخذت المجموعة تتباعد بافرادها . وفطن ايفانوفسكي فجاة الى أنه لايسمع أنفاس لوكاشوف الذي كان يزحف بالقرب منه . القى الملازم بصره الى الوراء ، وانتظر دقيقة ، كاتماً

أنفاسه ، رغم أنه كان يعرف أن الابطاء هنا لا يجوز ، ولو لدقيقة واحدة . ولكن التعب أوهن الحذر ، على ما يبدو . وعلى مسافة اصطدم شيء، للمرة الثانية ليس بشدة ، ببندقية اصطدمت باسكي ، في اغلب الظن ، وتصلب الملازم بعصبية ، وغرز نظرة حادة حانقة في ظلام الثلج المهلهل . أهوج ليس الا ! ولم تكن لديه الامكانية الآن لأن يصب عليهم كلمته القوية الحانقة . وبالفعل كم أكد بأن الأسكي يجب أن يمسك في اليد اليسرى ، والبندقية في اليمنى ، وها هو أحدهم اضطر الى أن يجمع الاثنين في اضمامة واحدة ، ويحدث صوتاً الآن ...

من الخلف أخذت تتحرك في الظلام كتلة مكورة رمادية في بدلة تمويه ، وزحفت صاحبة الأنفاس ، وجمدت عند قدمي الملازم . وتحرك آخر وراءها ، وأبعد ذلك كان من غير الممكن ان ينفذ البصر ، فقد كان الظلام والثلج يعيقانه . سال ايفانوفسكي بهمس مكتوم متعب :

– هل هم يزحفون ؟

رد الرقيب بهمس ايضاً :

– يزحفون ، يا آمر .

– مرهم بأن يوسعوا الخطو !

في المنخفض صار الثلج اكثر كثافة . وغرق الرجال فيه الى الاكتاف . وصاروا يشعرون بملمس عشب شائك متجمد تحت

ركابهم المتبللة ، والظاهر أنهم دخلوا مستنقعاً . لم ينظر ايفانوفسكي الى البوصلة ، فقد كان ، في العادة ، يحدس الاتجاه من طبيعة تغير التضاريس التي كان يعرفها هنا من الخارطة ، كان عليهم في هذه البقعة أن يلتزموا المنخفض ، وأن يخرجوا منه الى الأجمة على شاطيء النهر ، وأن يزحفوا بعد ذلك تحت هذه الأجمة . وكان أمامهم طريق طويل للزحف ، سيضنيهم ، ضنى شديداً ، بالطبع . ولكن اي شيء يهون الا الوقوع على الألمان ، على موقع نصب فخ ليلي مموه لهم . عند ذلك لابد أن يكتشفوا ، وقد ينتهي كل شيء نهاية سيئة وهو في بدايته .

غير أن ايفانوفسكي طرد من ذهنه هذه الافكار، وحدق الى الامام في الظلام المتكاثف كلياً . يبدو أن الأجمة لم تعد بعيدة ، ووراءها نهير مفروش بالثلج . كان هذا الموضع — كما تذكره من الخارطة — يقع في وسط منطقة الحياد تماماً . وبعده ، وعلى ربوة تبدأ قرية صغيرة هدمتها القذائف كان الألمان يتحصنون فيها . صحيح أن خندقهم الأول كان اكثر قرباً ، على بعد حوالي مائة متر من النهر . وكان على المجموعة في ذلك الموضع ، أن تتحول لتسير بمحاذاة المجرى ، وتحاول أن تنزلق في اجمة بين هذا الخندق وخندق آخر يقع في ناحية ، على رأس رابية مدببة مثل ملعقة كبيرة مقلوبة .

وفي اثناء ذلك صار الثلج أعمق ، بل وهشاً للغاية ، وكان العشب المتجمد الذي لم يحش في الصيف ، والمفروش بالثلج يخشخش تحت أيديهم . انسابوا في المستنقع . داس ايفانوفسكي بركبته في حركة غير محترسة على قشرة أشنة لم تتصلب بعد . وهشمها ، وانبجس الماء من تحتها وتناثر على الثلج . توقفاً برهة ليتسمع عسى أن يكون قد كشف عن نفسه بهذه الحركة غير المحترسة . ولكن الأجمة كانت قد بدأت في ذلك الموضع ، وعلى مسافة دانية كانت اغصان حرش الحور والصفصاف تبرز من تحت الثلج كجدار لا يخترق . زحف ايفانوفسكي مسافة أخرى قصيرة تحت الأجمة ليتيح لصف جماعته الممطوط أن يقترب اكثر ، ويصير تحت غطائها المنقذ . كانت الأجمة تغطيهم بشكل موثوق من جهة القرية ، وحتى الصواريخ لم تكن مخيفة . صحيح أن الرابية الشبيهة بالملعقة ما تزال مكشوفة وخطيرة من الجهة الثانية ، ولكنها كانت بعيدة عنهم بعض الشيء . ولا يمكن أن يلحظوا من هناك حتى في ضوء الصواريخ .

كان الملازم لايتواني طوال الوقت من النهوض ، والنظر الى الخلف ، ليتأكد من أن آخر من في الصف لم يتباعدوا كثيراً . فقد صار مهماً جداً الآن أن يبقي الجميع في كتلة واحدة ،

فان التباعد في مثل هذا الوضع لصيق النكبة . صحيح أن هناك ، في مثل هذه الحال ، من يعول عليه ، فان ديوبين الذي كان يزحف في آخر الصف لا يبدو ، بشكل عام ، رجلا لا يحسن التصرف ، وهو اكبر سناً من الملازم بحوالي مرة ونصف . ولكن ديوبين كان من الاحتياط ، رغم أن الله لم يبخل عليه بالحزم ، ولكن هل لديه ما يكفيه من البراعة القتالية الخالصة ؟ وكان ايفانوفسكي ، وهو نفسه آمر نظامي، مر بكل شدائد الحرب منذ اليوم الأول من بدايتها في حزيران ، لا يثق ابداً بالاحتياطيين ، ولزيادة اليقين والثقة كان يحاول عادة أن يأخذ على عاتقه جزءاً من العبء الموكول اليهم . ومناوشته القصيرة اليوم مع رئيس الرقباء الذي اقترح تأجيل العبور تركت اثراً غير مريح في كليهما . كان الملازم لا يطيق أن يقاسمه شخص سلطته مهما يكن ذلك الشخص ، لاسيما في ظرف مثل هذا كان لايعتمد فيه الا على نفسه ، وعلى حسن تبصره ، وحزمه . وحتى الآن ، وبشكل عام ، مضى كل شيء بسلام ، واذا حالفه الحظ فسيسير كل شيء بسلام فيما بعد أيضاً ، وعند ذلك سيذكر ديوبين عند سنوح الفرصة ...

من الخلف ، وفي أخدود ثلج رخو همس لوكاشوف ببحة :

— والآن ، الى اين ، أيها الرفيق الملازم ؟

— هدوء ! كيف هم في الخلف ؟

— يزحفون . شولودياك وحده يتأخر ...

شولودياك مرة أخرى ! شولودياك هذا حتى عندما كان في الكتيبة ، كان يضايق الملازم بتأخره بالذات ، ولكن ايفانوفسكي في خضم الاستعدادات السريعة غض الطرف عنه لا غير ، متصوراً أنه رجل متين البنيان ، وسيتحمل . كما أن المجموعة كانت بحاجة الى جندي الهندسة ولم يكن هناك خيار آخر . فاضطر أن يأخذ أول من صادفه ، وهو هذا الكهل ، ولكن الحرب كانت تؤكد مرة أخرى ضرورة المهارة والتدريب الى جانب القوة الاعتيادية . وعلى العموم أنهم لم يمروا باي تدريب ، مجرد أن الوقت لم يكن كافياً لهم . ظل رئيس الاستطلاع ورئيس الشعبة الخاصة يوماً كاملا يدققان ويغربلان القائمة ، ويختاران الرجال ، وحين حددا المجموعة اخيراً ، لم يكن ثمة مجال حتى للتفكير في التدريب .

وضع ايفانوفسكي اسكيه في مكانه ، وتجاوز لوكاشوف ، وسار على آثاره الى الخلف ، كان شيلودياك قد أنفصل عن الرقيب ، بالفعل ، رآه ايفانوفسكي يغطس في الثلج بتعب وتثاقل ، مؤخراً البقية وراءه . تلقاه الملازم بهمس خافت حانق :

— ماذا بك ؟

– عرقت ، اللعنة ! هل سننتزحلق على الاسكي قريباً ؟

– اسرع ! اسرع !

حثه الملازم ، فأخذ شيلودياك يزحف على الاربع ليلحق بالرقيب ، منتفخاً بحقيبة المتفجرات الثقيلة تحت بدلة التمويه ، هازاً عجيزته الطالعة. مرر الملازم أمامه حكيموف وزايتس وسودنيك ومقاتلا آخر لم يتبين وجهه تحت القلنسوة الغاطسة ، وانتظر حتى وصل رئيس الرقباء ديوبين ، فسأل هذا مترثياً قليلا قرب ايفانوفسكي :

– ماذا حصل ؟

لم يرد الملازم . وماذا سيرد عليه ، اذا كان رئيس الرقباء لا يرى ان المجموعة قد تباعدت ، واخلت بالنسق اللازم الذي كان يرتبط ارتباطا معيناً برئيس الرقباء باعتباره آخر من في الصف .

– من كان يطقطق في المؤخرة ؟

– يطقطق ؟ لم اسمع .

طبيعي أنه لم يسمع . ولم يرد ايفانوفسكي ان يواصل الحديث ، وجمد متسمعاً . الا ان كل شيء في المنطقة القريبة كان هادئاً . كان رجالنا على الرابية الصنوبرية قد سكتوا مترقبين ، والى الامام سكت الألمان أيضاً . وكانت الاجساد التسعة المسنمة في بدلاتها البيضاء المذرورة

بالثلج ترقد مستقيمة في الاخدود الثلجي الذي حفرته .

قال ايفانوفسكي بهمس :

– يجب الاصغاء . سيجري العبور الآن . لا اريد ان أسمع أي صوت !

صمت رئيس الرقباء ، وزحف الملازم على الاربع بسرعة متخطياً المقاتلين . لم ير وجوههم، ولكنه كان يهجس بشكل عضوي تقريباً نظراتهم المتوجسة المفعمة بالترقب والقلق من تحت قلنسواتهم . سكت الجميع . وحين مرايفانوفسكي بشيلودياك الذي كان ينبطح في الأخدود ناخراً بشعور بالذنب ، طالبه بصرامة :

– بكل قوتك ! بكل قوتك ، شيلودياك ! فهمت ؟

طلع الملازم زاحفاً الى مقدمة طابوره الذي كان الآن يتراصف ! ثم عاد يزحف في أعمق طبقة من الثلج على حافة الأجمة . كان يجر الاسكي وراءه باحدى يديه ، والرشاشة بالاخرى ، وكانت حقيبة ، العتاد باقراص الرشاشة تنزل من فخذه الى بطنه ، فكان من حين الى آخر يلقيها على ظهره . استند في الثلج على لمة من الاغصان ارسلت في الليل خشخشة مرنة . تمزقت بدلة التمويه حين تعلقت بشيء ، وانحشر الاسكي في الثلج . حرر الملازم نفسه من هذه الاحبولة حالا لاعناً في سره ثم اتجه ناحية ، مبتعداً قليلا عن

الأجمة . هناك في مكان غير بعيد عن هذه البقعة لابد أن يكون ملتقى الجدول المنصب في النهر الصغير ، ومن هذا النهر كان يبدأ أخطر مقطع في الطريق الى ثغرة في خط الالمان .

ولكن قبل أن يصل الى النهر ، فرقع شيء رنان في الهواء الى الامام ، وعلى مقربة تماماً ، وراح يتحشرج ، ويرسل شرراً ، وارتسم قوس ناري ساطع على حافة السماء . كان ايفانوفسكي متأججاً بمصارعة الثلج ، فلم يدرك رأساً أن هذا صاروخ . فطار دون أن يصل اليهم ، وتفتح في الاعلى مهيباً مثل باقة من اللهب المشع الباهر ، وتطلسم السهل الثلجي بأجمته وجمد ، وانكمش مغموراً بسطوعه المحموم . ثم ترنح شيء هناك ، وارتعش ، وانهبد كل شيء في ناحية . وعلى الغمر اضطربت شربكة من الظلال الخاطفة ، وسقط الصاروخ على الثلج وراء الاجمة ، وظل يلمع بضع ثوان آخر ببقايا لهبه البارد .

سكن ايفانوفسكي ، حيث رقد ، لا يكاد يتنفس ، وصدره يتفتق من نقص الهواء ، وبالقرب من وجهه كان الغبار الثلجي يدور في الريح . انتظر الملازم الطلقات ، الصيحات ، التي تتبع الصواريخ ، ولكن السكون السابق المشؤوم المتوتر بقي مخيماً في ظلام الليل المتكاثف . عندئذ فتح الملازم عينيه ليتغلب على انبهار بصره في اسرع وقت ، وحدق الى الأمام من

جديد . كان حائراً من أين جاء هذا الصاروخ ، لأن الاتجاه الذي انطلق منه ماكان من الممكن أن يكون الالمان فيه ، فقد كان هناك مستنقع ، نهير ، اجمة وهو بالذات المكان الذي كان يتعين عليه أن يزحف اليه . وقد تبين الآن أن الطريق الى هناك مغلق امامهم .

بالخلف مسه لوكاشوف من حذائه ، ولكن الملازم لم يعره حتى التفاتاً ، ولم يرد عليه . كان يقلقه الآن سؤال واحد : هل لوحظوا أم لا ؟ واذا كانوا قد لوحظوا فمعنى ذلك أن محاولتهم اليوم انتهت الى هذا الحد ، في اغلب الظن . واذا كان لا ، فقد كان يتعين عليهم الاسراع في مغادرة هذا المكان المنحوس .

انقضت دقيقة اخرى ، ولكن لم تصدر طلقات ولم يرتفع صاروخ ، وفكر ايفانوفسكي أن مطلق الصاروخ الذي أرسل خلال الليل يقبع هناك ، على ما يبدو ، ويجب تخطيه . استدار الملازم الى الاجمة استدارة حادة ، ووصل حابياً على الاربع ، الى شاطىء النهر غير المرتفع حيث كانت بعض أشجار جار الماء السود المكتنزة تطل عليه ، وهبط من الشاطىء بهمة الى سطح الجليد المستوى المذرور بالثلج . كانت النباتات في الشاطىء الآخر أقل ، وممتدة على طول الشاطىء شريطاً ضيقاً ، وابعد من ذلك كانت ربوة القرية

تبدأ ، وخندق الالمان تحت السقيفة المائلة في ناحية .

لم يتأخر الرقيب لوكاشوف خطوة واحدة ، وحين توقف الملازم متردداً ، زحف هذا الى جانبه ، وهمس في وجهه :

– تعال عبر النهر ...

– سكوت ...

تعقد الوضع . فقد وجدوا انفسهم ، وهم على هذا الجانب ، قريبين من العدو اكثر من اللازم ، وكان من المستحيل الانسلال منه ، الا بمحاذاة الشاطىء تماماً . وكان الاغراء شديداً في النزول الى منبسط النهير المتجمد المصقول ، ولكنه كان يتعرج في هذه النقطة وكأنه حبل شربكه الشيطان . وفكر ايفانوفسكي بجزع : «كم سيلزم من الوقت لقطع كل هذه الانشوطة ؟ ثم ماذا لو صادفنا جمد هش ؟»

وخيل اليه أن وقتاً بالغ الطول قد مر عليه ، وأنه أطال التلكؤ في هذه الأجمة بشكل لا يغفر ، وأنه متأخر في مستهل مهمته . ارتعد من الهلع الذي تملكه ، وتلفت ، فرأى الجميع قد عبروا النهير ، وكانوا ينتظرون التحرك أبعد . وفي غبش الليل الرمادي القريب تراءت في غير وضوح بضعة وجوه مسودة ، أما البقية فلم تكن ترى قط ، فزحف على الثلج بعزيمة جديدة .

في هذه المرة زحف وقتاً قصيراً جداً ، فقد

انطلق من جديد صاروخ من نفس الموضع السابق ، ومعه تناهت فرقعة طلقة . انضغط الملازم على الثلج ، وحدق بكل ما يملك من قوة في الشربكة السوداء البيضاء للاغصان على بياض الثلج الناصع الباهر . وتيقن أن الصاروخ قد انطلق من اتجاهه السابق ، في ذلك الجانب من الغمر ، من حيث جاءوا زاحفين . يعني أنهم لم يلحظوا . انتظر حتى خمد الصاروخ ، وبشعور من الانفراج جذب ضمة الاسكي ، وانطلق بنفسه الى الامام بسرعة يدب على كوعيه وركبتيه . وفي الظلام الأصم الهابط ظل بضع ثوان مستطيلة لايرى امامه شيئاً ، غير انه راح يجذف في الثلج ، ويجر الاسكي . وفجأة بهره من جديد ضوء ساطع بشكل لايصدق هبط جباراً من كبد السماء على الغمر ، وتألق الثلج ، وشع شرراً ، وتحولت ظلال الاجمة الى الغمر في شبه دائرة عريضة ، وانطبعت على الثلج بسطوع ، وجمدت . وجمد هو أيضاً ، شاعراً في كل لحظة ، بأن صليات المدافع الرشاشة الآزة ستخترق هذا الفضاء الأبيض الناصع من آونة لأخرى . واستجاب فكره بسرعة فائقة مثلما هو دائماً في لحظة الخطر البالغ ، فادرك أن ذلك من سقيفة القش ، يعني من مسافة قريبة للغاية . احترق الصاروخ كله في الاعالي دون أن تبقى منه فضلة ، ولكن الهدوء بقي كالسابق ، فاطبق الملازم جفنيه من

جديد منتظراً أن يزول الانبهار من عينيه . اذا كانوا قد لوحظوا وجب ان يعودوا من حيث أتوا ، وراء النهر ، تحت حماية شاطئه ، واذا لا ... وجب أن يزحفوا الى الأمام اسرع من ذي قبل، بعيداً عن هذا المكان اللعين ، حيث يسلطون الضوء عليك بوقاحة من كلا الجانبين .

لم تصدر اية طلقات ، يعني أنهم لم يلحظوهم ، فاندفع الملازم الى الامام بعزيمة جسور ، وقد شعر في نفسه فجأة بفورة جديدة من المخاطرة واقبال الحظ . اسرع ، اسرع ! وزحف على طول الشاطىء بقوة غير متوقعة وخفة ، سابحاً في الثلج الذي كان يضرب وجهه وفمه بلارحمة ، ويعمي عينيه ، ولا يدعه يتنفس . وحين اعاد اليه النظر القدرة السابقة على التمييز في الظلام لاحظ فجأة أنه من يسار القرية مغطى بحدبة بارتفاع الركبة هي في الغالب الحاجز الفاصل بين حقل ومرج اعشاب . وقد سره ذلك كثيراً ، فلم يعد الآن يخاف الصواريخ ، واتجهت كل ارادته الى غاية وحيدة : التقدم الى الامام !

زحف بسرعة ولوقت طويل ، وترطب كل صدره وظهره تحت الثياب من العرق والثلج ، ولم يعد يلتفت الى رجاله في الخلف ، فقد كان ذلك لايجدي نفعاً . فهو الآن لم يعد قادراً على سوقهم . وكان لايعول الا على سلطان المثل

الذي يقدمه لهم ، على قوة التزام الجندي بالاحتذاء بأمره .

وحين اشتعل صاروخ في السماء مرة أخرى، جمد ، وذراعه ممتدة الى الامام ، واجال بصره الى الخلف بنظرة واطئة فوق الثلج . فراى رجاله متباعدين مرة أخرى تفصلهم عن الرقيب مسافة عشرين خطوة تقريباً . كما أن الحاجز الفاصل قد انتهى ، وكأنما من نكد الحظ ، ولم يعد يغطيهم شيء عن خندق الألمان الأمامي . ولكن المريح أن السقيفة الموجودة على الربوة صارت الى الخلف ، حتى أن صاروخاً طار في المؤخرة . والى الامام انداح من جديد منبسط عريض في أحد طرفيه صفوف أجمة غير كثيفة اختفت في الظلام .

انطفأ الصاروخ ، وشعر بانفراج ، اذ يبدو أن اصعب مرحلة قد انقضت وخامره احساس لطيف – قصير الأجل متحفظ الفرحة – ولكن ما كاد يحرك ضمة الاسكي الى الامام ، حتى طقت طلقة بندقية بصوت كامد في غير توقع على مسافة قريبة من الخلف . التفت ايفانوفسكي كالنابض فيما يشبه الرعب . وبحركة معتادة امسكت يده ماسورة الرشاشة الاوتوماتيكية الملفوفة بالضمادة ، ولكنه لم يكتشف اية حركة لا من الخلف ، ولا من الجانبين . فكأن كل شيء قد جمد فيما حوله ، الا تلك الطلقة . وما عداها

لاصوت ولا أحد على مقربة . غير أن بضع ثوان مضت ، واذا بالفضاء فوق الأجمة يضاء بسطوع في موضعين دفعة واحدة . تابع الملازم طيران الصاروخين من وراء كتفه ، ورآهما يسقطان الى الخلف ، كالصاروخ السابق ، ولكن صاروخين آخرين انطلقا في تلك اللحظة على جانبي النهر ، وفي ضوئهما الساطع لعلع مدفع رشاش في طقطقة كثيفة حادة ، وراحت خطوط الشارات النارية تسوط الاجمات قرب النهر ، وارتدت بعض الطلقات مضيئة من الربوة التي كانوا يختفون وراءها قبل حين ، وتطايرت على الجوانب نثاراً أخضر . كان المدفع الرشاش يتلمسهم بعمى ولكن بثقة في ضوء الصواريخ ويرسل رشاش الرصاص عن قرب شديد ، حتى لم يعد ينقذهم غير الحاجز الفاصل . انبطح ايفانوفسكي وصرف باسنانه من اليأس الأصم ، ذلك لأن كل شيء سار سيراً حسناً ، واذا بهذه المفاجأة ، فيتقوض ، بسبب طلقة رعناء ...

لعلهم قضوا وقتاً طويلا في الانبطاح ، واخذ الملازم يرتعش من القشعريرة ، وقد التصقت ثيابه الداخلية المتبللة على جسده كدرع جليدي. وفي الأعلى احترق زهاء عشرة صواريخ ، والمدفع الرشاش بالقرب من سقيفة القش بدا وكأنه أخذ بالخفوت . وحين شعر ايفانوفسكي بأن لوكاشوف يمس حذاءه من الخلف مرة بعد

اخرى ، أستدار بوجهه الى الوراء فوق الثلج .

– كودريافيتس جرح .

– بشدة ؟

وبدلا من الجواب هز الرقيب كتفيه ، والتفت الى الوراء ايضاً ، ولربما ينتظر توضيحاً من هناك .

كان هناك ما يستحق الشتم ، ولكن ايفانوفسكي اكتفى بأن سحق في قفازيه حفنتين من الثلج بعصبية . لاجدوى من الكلام ، فان البداية قد احبطت ، ولكن كان من الممكن أن يقع اسوأ من ذلك عن قريب ، أن يكتشفوا وهم في الحقل . ومع ذلك فلا وقت الآن لتقليب الفكر ، ولا للعودة زحفاً الى الوراء ، فأوعز لأول من تبينه في الظلام وراء الرقيب :

– شيلودياك ، الى الوراء سر ، وخذ الجريح ، وعد به .

طاف على وجه جندي الهندسة هذا ما ينم عن الذهول ، الا أنه جذف في الثلج بجسده ، واختفى في الظلام. وفجأة عن في فكر ايفانوفسكي أنه كان من الأفضل الا يبعث شيلودياك للعودة بالجريح ، بل شخصاً آخر اكثر اقتداراً على ذلك، ولكن ايفانوفسكي لم يرغب عن اعادة شيلودياك الآن . وفكر شاعراً بشهامة مفاجئة : «ليعش!» . ان مثل هذا النصيب لا يكتب لكل انسان . ولكن لهذا الشيخ ، ربما ، الحق اكثر مما للاخرين في

أن يعيش حياته ، فهو ، على اية حال ، أبو عائلة ، وفي انتظاره ثلاثة اولاد ، وهذا يعني شيئاً .

سكت الألمان قرب السقيفة ، ومعنى ذلك أنهم لم يلحظوا شيئاً ، وساد سكون ، الا أن قصف المدفعية البعيد وراء الغابة ظل طوال الوقت يدمدم ويزمزم وينفث . ومن جديد استولى على ايفانوفسكي القلق على الوقت الذي كان يمر بسرعة شيطانية غير عابىء بشيء ، حتى أن الملازم فزع من أن يتأخر في نهاية الأمر . والحقيقة أنه لم يكن يتنبأ بهذا القدر من المفاجآت تعترضه في مستهل مهمته ، وكان الآن يفكر في حزن : ماذا سيحصل بعد ؟

اندفع ايفانوفسكي الى الأمام ، ولكن ماكاد يزحف عشر خطوات ، حتى جمد مرة أخرى من تدفق خطوط الرصاص الكشاف المندفع الى جهته . انبطح الملازم وتفرس في الناحية التي كانت السقيفة تلوح سوداء كحدبة لا تكاد تلحظ في البعيد ، وتتراجع سريعاً تحت حماية ذلك الحاجز الفاصل المتضائل والذي لاتكاد العين تراه بالقرب منها . يبدو ان الألمان اكتشفوهم ، على كل حال . في الأعلى كانت الصواريخ تحرق السماء بهسيس وفرقعة والطلقات الكشافة للمدافع الرشاشة تتقطع مشعة في الظلام كالغار ، وتنخفض ، تثير الثلج

في طريقهم المقبل من وراء الرابية . وكان يجب الافلات من هذه المصيدة مهما كلف الأمر ، ولكن لامجال حتى للتفكير في الزحف في هذا الحقل المضاء اضاءة ساطعة .

الظاهر أنهم انحصروا باستعصاء ولوقت طويل . والمسعف في الأمر هو وجود هذا الحاجز الفاصل الى اليسار ، كانقاذ مرسل من الرب اليهم . فهذا الحاجز وحده كان يغطيهم من نيران المدافع الرشاشة من الرابية . ولكن كم يمكن أن يمكثوا تحت غطائه ؟

وخلال ذلك كان الجميع يرقدون جامدين صامتين في انتظار قراره ، ومبادرته كآمر . وقرر الشيء الوحيد الممكن الآن : اجبار المدفع الرشاش على السكوت . والظاهر أن أفضل شيء هو الزحف اليه من ناحية الجبهة ، من النهر . وطبيعي أنه هو وحده كان يستطيع أن يحقق ذلك بأكبر قسط من النجاح . فقد كان من الممكن لشخص واحد ، أو لاثنين على اكثر تقدير أن يجازفا في الانسلال الى المدفع الرشاش دون أن يلحظا .

– انقلوا لرئيس الرقباء أن يأتي الي .

وانتقل الأمر في الصف من واحد لواحد بسرعة . وزحف ديوبين ، واستلقى قربه صامتاً .

– يجب اسكات المدفع الرشاش – قال ايفانوفسكي وحين لم يتلق غير الصمت قال

موضحاً – والا فلن نخرج من هنا . للطوارىء خذ الخارطة. فستقود المجموعة.

صمت ديوبين ثم قال :

– غير مناسب بهذا الشكل . الافضل اختيار شخص آخر .

قال الملازم :

– من الشخص الآخر ؟ ساحاول أنا نفسي.

فك صداره الدافىء ، واخرج من فتحة صدره خارطة مدعوكة مطوية عدة طيات ، وقرب اسكيه من رئيس الرقباء . صمت المدفع الرشاش ، وانطفأ على الثلج الصاروخ الذي اطلقه الألمان أفقياً ، وخيم ظلام وسكوت . ولكنه كان يعرف ان الألمان سيضجون من جديد ، ما ان يخرج رجاله من وراء الحاجز الفاصل . والظاهر أنهم يتفقدون شيئاً .

– لوكاشوف ، اتبعني .

نادى الملازم بصوت خافت ، وعرف ، دون أن يلتفت ، ان لوكاشوف لن يتأخر . وفي الظلام الدامس الذي خيم بعد ذلك زحف تحت الحاجز الفاصل والرشاشة الاوتوماتيكية في يده ، وثلاث قنابل يدوية في جيبي بنطاله . وطبيعي ان ذلك لم يكن أفضل حل ، بل ولربما العكس ، ولكن لم يجد مخرجاً آخر للخروج من المازق .

لم يكن هناك مخرج آخر غير العودة من حيث أتى ، وهذا ايضاً ليس بالأمر البسيط الآن على

اية حال . كان في سره يلعن حانقاً ويكرر وهو يغرف الثلج : «اطلق ، اطلق ، يا وغد ! هرج أكثر ...»

كان يلزمه أن يطلق المدفع الرشاش نيرانه . حين يعمل المدفع الرشاش ، ويكون الرامي اصم واعمى ، فيستطيع الملازم أن ينسل اليه بشكل ما . وبعد قليل عاد المدفع الى الاطلاق ، بالفعل ، ما ان انار صاروخ . ولكن ايفانوفسكي اندهش لأنه لم ير ، في الوهلة الاولى ، أي خط من خطوط طلقاته الكشافة . غير أن حيرة الملازم القصيرة تبددت حالا ، فقد كانت صليات المدفع تفور في مؤخرتهم ، في ناحية الغمر والنهر ، في الموضع الذي عبروا منه الى الاجمة، قبل وقت قصير . وفي هذه المرة كان قلق الالمان جدياً ولوقت طويل . اندلع فوق الغمر حريق حقيقي ، وصار ماحوله منيراً كما في النهار ، وانهمر الرصاص من الربوة على المرج متقاطعاً متناثراً مندفعاً كمروحة عريضة . وساطت الأجمة بضراوة عدة مدافع رشاشة من اماكن مختلفة . في بادىء الأمر غاص ايفانوفسكي في الثلج مدفوعاً بغريزته ، وهو لا يرى من اخدوده غير القليل ، ولايسمع العويل الكثيف اللامع في الاسفل الا بجهد . ولكنه سرعان ما ادرك ، حتى دون ان يرى ، أن ذلك ما هو الا من فعل شيلودياك .

يعني لاحظوهم ، على كل حال ، وعينوهم بالضوء ، وسيطلقون النار الآن .

ولكن ايفانوفسكي ، حين ادرك ذلك ، ارتعد فجاة من فكرة سارة موفقة ، وهي أن شيلودياك صرف النار نحوه ، ويجب استغلال ذلك في الحال . استدار الملازم في الثلج رأساً ، ووثب على الأربع الى مقدمة الطابور المتجمد تحت الحاجز ، واختطف اسكيه ، وأمر بصوت مسموع :

– اتبعوني .

ولم يعد يحترس في هذه الفرقعة ان يسمعه الألمان .

الفصل الثاني

الامتار الأخيرة المتبقية حتى وصولهم الى الغابة لم يقطعوها زحفاً ، بل احنوا ظهورهم ، وركضوا متعبين ، حتى سقطوا واحداً وراء الآخر في أجمة واطئة هزيلة . وانطرحوا على الثلج وقد ضاقت انفاسهم ضيقاً شديداً متشنجاً ، وصمتوا لحظة بانبهار ، غير قادرين على النطق بكلمة . وعلى خفقان قلوبهم كانت تخفق في اذهانهم فكرة وحيدة الآن ، وهي أنهم أفلحوا ، كما يبدو ، مروا ، وخلفوا المحذور وراءهم ، وافلتوا من عيون الألمان . كان القصف على المرج يستحوذ على انتباههم ، وتوهج الصواريخ

يغشى ابصارهم ، فلم يكونوا ، في اغلب الظن ، يتلفتون كثيراً على الجانبين ، حتى اطلقوا النار على شيلودياك عند النهر . «شكراً لكم ، ايها المقاتلون الاعزاء» فكر ايفانوفسكي بتأثر ، وهو منطرح على الثلج يعب الهواء من فمه متقطع الأنفاس . لقد دفع أول ثمن لنجاحه ، فماذا ستكون الحصيلة ؟ ومهما يكن من الشيء ، فلك الذكر الطيب ، أيها المقاتل شيلودياك ، يامن ارسل ليجابه اول ميتة ، ولو ان الآمر في تلك اللحظة كان يفكر بحسد خفي أن في الحياة ...

وقبل ان يسترجع أنفاسه تماماً ، رفع جسمه ، وجلس على الثلج . كان الرصاص كالحباب النارية يتخلل الظلام الثلجي على مسافة بعيدة خلفهم الآن ، فتطير للقائها رصاصات أخرى من غابة الصنوبر وراء الغمر ، ان ذلك يعني أن الكتيبة دخلت المعركة . وهنا ، قرب الأجمة ، كان الهدوء ، وأمامهم منحدر أجرد قليل الثلج مع شرائط من خصائل العشب بين حقل وحقل . أخرج ايفانوفسكي الساعة وكانت تشير الى التاسعة والنصف .

وتذكر الملازم تلك الطلقة المنحوسة ، فسأل مكظوماً بغيظ انفجر متأخراً :

– من اطلق النار ؟

تحرك شخص في لباس أبيض غير بعيد عنه ، وسط الأجساد المبطوحة ، وجلس على

الثلج ، وعرف الآمر من البروز الطالع من تحت القلنسوة انه ديوبين ، فقد كان رئيس الرقباء هذا يرتدي سدارة بوديونية :

– سودنيك .

فاكد صوت بنبرة تقصير كامدة .

– أنا الذي اطلقت . – ونهض سودنيك على قدميه بارتخاء .

– لماذا اطلقت ؟

دفع هذا المقاتل البندقية عند قدميه :

– هكذا ، افلتت من سداد الأمان .

حدق ايفانوفسكي في البندقية الملفوفة بضماد ، واختلج حنقاً ، كان لهذا المقاتل بندقية من طراز سوفت فعالة من حيث المظهر ذات عشر طلقات ومعقدة في استعمالها ، وغير موثوقة في القتال . ومن المؤسف تماماً أن ذلك غاب عن ذهنه ، قبيل خروجهم ، فهل كان من الممكن حقاً الخروج الى مؤخرة الالمان في بندقية كهذه ؟

قال الملازم بغيظ خافت غير قادر على كتمان حنقه :

– عليك اللعنة ! ما هذا السلاح الذي تحمله ؟

– بندقية .

– اية بندقية ؟

– آلية التعبئة من طراز توكاريف . رقم ٦٢٤ .

– نم ؟ ألم تعثر على أسوأ منها ؟

اطرق المقاتل برأسه شاعراً بالذنب ، والظاهر انه الآن فقط فهم غلطته . نظر الملازم بكراهية تقريباً الى شخصه المثقل بكيس المتاع ، والى جلبابه المبلل المدلى على ركبتيه . ان خضوعه هذا ، والوقت الذي يدفع الملازم الى الاسراع سرعان ما امتصا سورة الغيظ لدى الآمر . وادرك ايفانوفسكي عدم جدوى تجريم المقاتل في قضية لم يكن له أي تصور لها . ومع ذلك لم يكن في وسعه اغفال حقيقة أن سودنيك هذا كاد يهلك المجموعة كلها .

– هل تدرك ماذا فعلت ؟

– واين منه الفهم ! – قال لوكاشوف فجاة ، وهو يجلس – انه مهمل . فلماذا أخذناه ؟

ظل سودنيك يقف صامتاً ، كما كان وقد اطرق برأسه . وهمس الملازم متوعدا :

– تستحق القتل على هذه الفعلة . فهمت ؟

نكس المقاتل رأسه اكثر ، ولكن يبدو أنه لم يكن يعرف ماذا يقول للدفاع عن نفسه ، وكان يبدو مستعداً لكل شيء .

– طيب ، سنتكلم معه فيما بعد – قال ديوبين بلهجة تصالح ، ولعله شعر بالتردد في صوت الآمر .

– سادقق في الأمر مرة أخرى – وعد ايفانوفسكي ، واصدر امره – على الاسكيات !

تحرك الجميع دفعة واحدة فاكين عدد الاسكيات ، مشكلين احذيتهم بلزماتها ، فان التاخر في هذا المكان محذور . امسك الملازم بطرفي العصوين ، وتلفت منتظراً تهيؤ المجموعة.

دمدم لوكاشوف على مقربة ، وهو يحشر يديه في القفازين :

— كنت سالقنه ! لم يقع بين يدي ، ذلك الطفل الرضيع .

— طيب ، كفى — قاطعه ايفانوفسكي بهمس عال — مستعدون ؟ سودنيك ، ورائي سر !

تحرك الملازم من مكانه باندفاع متجهاً الى صحن الأجمة ، الا ان الاسكي كان يتزحلق بشكل رديء في الثلج الهش غائصاً في الاخاديد العميقة ، فلا تبرز منه غير اطرافه المعكوفة . وكانت اغصان الأجمة تتشربك ببدلات التمويه ، وتلقي القلنسوات من الرؤوس . ولعل الملازم قضى ربع ساعة يشق طريقه عبر الأجمة حتى طلع اخيراً الى الحقل ، حيث صدمته فجاة ريح خافقة ، ولكنه وجد متسعاً اكثر رحابة . تلمس باسكيه رقعة من الثلج اكثر صلابة ، ودفع جسمه بالعصوين ، كان بصره مصوباً الى الأمام ، فلم يكن يتلفت ، وكان يسمع هسيس الاسكيات من الخلف ، وانفاس المقاتلين الاعتيادية المتساوقة . واخذ غيظه على سودنيك يخفت شيئاً فشيئاً ، فان المازق الأشد قد

مر ، واخذ ايفانوفسكي يالف كونهم قد صاروا ثمانية والحقيقة أن من المستحيل القبول ذلك كلياً ، فغدا سيحتاج الى الرجال كثيراً ، وسودنيك كان يستحق عقاباً صارماً ، ولكن كيف يعاقب ؟ لامكان لاحتجازه هنا. يقتضي تاجيل كل شيء الى العودة .والى جانب ذلك فان الحظ قد حالفهم بشكل عام . وعند التدقيق لا احد يعرف كيف كان سيؤول الأمر ، ان لم يطلق سودنيك النار ، ولا يجرح كودريافيتس ولم يرسل معه شيلودياك الذي صرف نار الألمان على شخصه . ومن المحتمل تماماً انهم ماكانوا سيستطيعون حتى حلول الصباح ان يقلعوا من وراء ذلك الحاجز ، ولكان من السهل ، عند طلوع النور ، ان تطلق عليهم نيران مدافع الهاون . وهل يحتاج عشرة اشخاص الى نيران كثيرة ؟ وها هم قد افلتوا ، والآن لم يبق الا محذور واحد وهو أن يصطدموا ، في الليل ، بوحدات من المؤخرة .

بعد مسافة قصيرة ظهر على الثلج منحدر صغير ، وانزلقت الاسكيات الى الأمام اكثر خفة، وصارت الايدي اكثر تحرراً ، والتفت الملازم . كان سودنيك يسير في اثره ، كالسابق ، ووراءه يسير لوكاشوف في الظلام متأخراً قليلا . والبقية قد انتظمت ايضاً ، كما يبدو ، وفي ظلام الليل الخفاف بالريح كانت تسمع هسهسة الثلج

المتواصلة تحت الاسكيات . زاد الملازم من وتيرة سيره اكثر . كان الطريق طويلا ، بل واطول من اللازم ليقطع في ليلة واحدة ، وكانت الحاجة ماسة جداً للاسراع . وفي تلك اللحظة تذكر مرة أخرى طريق السير الذي علم على الخارطة في عشية الانطلاق ، وعرف أن غمر ذلك النهر نفسه سيقع في طريقهم مرة أخرى . وسيتعين عليهم فيما بعد أن يلازموه طوال الوقت .

وبعد الأجمة سار المقاتلون على نسق واحد ، وتقدموا سريعاً في ظلام الليل الرمادي . كانت السماء الخالية من النجوم تنسدل كالخيمة السميكة على الفضاء الشتائي الذي كانت تتآكله باسوداد باهت البقع المجدرة التي تشكلها الاجمات والاشجار والأعشاب واشياء أخرى كثيرة غامضة وملغزة . وكانت الصواريخ على الخط الأمامي تضيء بعيداً الى الخلف ، فلا ترى غير انعكاساتها الوامضة وراء التل القليل الانحدار .

اخذ ايفانوفسكي يهدأ شيئاً فشيئاً ، فان الأمر مضى بسلام في البداية ، وان لم يكن خاليا من العثرات اطلاقاً . لقد تم الاختراق . صحيح أن شيلوديك لم يغرب عن ذهنه للمطب الذي وقع فيه ، واشفق عليه ، كما يمكن ان يقال . انه سينفع غداً على الارجح ، فهو جندي

الهندسة ، على اية حال ، ورجل كبير السن ، وليس بلا تفكير ، مثل سودنيك هذا . نعم ، ان ايفانوفسكي لم يوفق مع جنود الهندسة ، ولو أن الحاجة الى جنود الهندسة اكثر من الحاجة الى غيرهم . ولكن لا حيلة له في ذلك . حين كانت المجموعة منبطحة في ضوء الصواريخ كان بوده لو يبعد نصف المجموعة من حيث جاءت، فقط ان ينسل النصف الآخر .

والآن كم هو مكدر ومؤسف .

لقد كان الملازم يعرف معرفة جيدة جداً أن الحياة ابعد من أن يجري كل شيء فيها كما يجب، ولا سيما اثناء الحرب . ولكيلا يغبن المرء يتعين عليه احياناً ان ينال الهدف الذي يتوخاه بكل ما يملك من قوة ، وأن يصارع حتى آخر امكانية لديه قوة الظروف المنحوسة ، والا فسيخسر القضية ، وينهار هو ايضاً . والحرب، على العموم لا ترأف بأحد ، ولكن أول الهالكين في الجبهة هو الجبان ، انه بالذات من يحرص على حياته اكثر من حرصه على حياة الآخرين . عموماً يهلك عدد لا بأس به من الشجعان أيضاً . ان الحرب عمياء ازاء الناس بشكل مذهل ، انها ابعد عن أن تتعامل مع حيواتهم على قدر ما فيها من جدارة . ومصير الانسان فيها متقلب وهوائي على نحو لا شبيه له في حياة السلم ، فاذا اراد المرء أن يعيش يتعين عليه أن يشد ازمة الظروف ولا يرخيها من

يديه لحظة واحدة ، وأن يسعى الى توجيهها في كل الأحوال واكثرها استعصاء عليه .

لم تزايل ايفانوفسكي مرارة الفقدان الاول والارعن الى حد ما . ولم يسه عنه الا لوقت قصير غارقاً بمشاغله الليلية ، ولكنها عادت اليه ألماً ممضاً معروفاً في الحرب ، الا أن هذا الألم الممزق لنياط القلب ما كان من الممكن أن يألفه رغم كثرة المرات التي عاناه فيها خلال خمسة اشهر ، ورغم أنه احياناً كان يبدو من نسيج الحياة اليومية نفسها . فكم فقد من الناس الى غير رجعة في زمن الحرب هذا ، حتى كان يبدوله أن الوقت قد حان للتعود على الفقدانات نفسها ، والفة الوعي بحتميتها . ولكن كلما كان يتعود كان يفاجئه على غرة يأس شديد حتى ليبدو له انه فضل ان يضع راسه ، رغم كل عزته له ، تحت رصاصة قاتلة على ايداع شخص قريب اليه في لحد القبر الى الابد .

انه لم يستطع حتى أن يواري الثرى احسن صديق له ، وهو الاستطلاعي النقيب فولوخ ، لا لشيء الا لأنه لم تكن لديهم رفشاً ، ولأن الالمان في ظرف ربع ساعة كانوا قد انطلقوا على دراجاتهم النارية من الطريق العامة . لف مع بوغربنياك جثمان النقيب في خيمة ، رادين على النيران بالمثل ، وطمراها على عجل باوراق الشجر المتساقطة المخلوطة بالثلج . وعلى هذه

الحال بقي آمرهم في فرجة ذلك الحرش البعيد فيسمولينسك . أما الفقيد الذي تلاه ، وهو الرقيب روكافيتسين ، فلم يتسن لهم حتى انزاله من الربوة التي اصابته الرصاصة فيها ، وبعد حوالي عشر دقائق التقطه الالمان منها .

وعلى العموم وفق ايفانوفسكي في الحرب من ناحية الرجال الطيبين ، وكان النقيب فولوخ بالطبع ، اكبر توفيق له . وقد ادرك الملازم ذلك بحاسية غير مستوضحة حالما رآه في درب غابة بوروفيسكي الملفع بالضباب . كان النقيب راكعاً على ركبتيه ينفض شيئاً من جيوبه على سدارته الملقاة على الطحلب ، وعلى مقربة بسطت خارطة ، كان رجال استطلاعه جالسين او منبطحين حولها . كانوا جميعاً في بدلات تمويه خضراء مخلوعة القلنسوات ، وفي قبعات عسكرية الا النقيب نفسه فقد كان يرتدي سدارة عرف الملازم منها، وبدون أن يخطيء ، أنه الآمر ، فتقدم منه مؤدياً التحية العسكرية .

— أيها الرفيق الآمر ، اسمح لي بمخاطبتك.

— تفضل — وابتسم الآمر ببساطة ، ودون أي ظل لصرامة الآمر — خاطبني ، اذا كان لديك ما تقوله . والا فليس عندنا غير الغبار .

الظاهر أنه لم يكن يمانع من أن يمزح قليلا ، بل ويمكن أن يضيفك على تبغ ، ولكن تبغه قد نفد كله ، مثلما نفد تبغ الملازم . صحيح

أن الملازم لم يكن يهتم الآن بالتدخين ، بل كان يسر اكثر ببقسماط او قطعة خبز ، لأنه لم يأكل شيئاً منذ يومين . وبعد الاندحار في معركة ليلية قرب كروبتسي انقطع عن الفوج ، وسقط في حصار كلفه ان يطوف في الغابات مع اثني عشر مقاتلاً للخروج منه بحثاً عن وحدته. ولكنه لم يستطع الوقوع حتى على فلول الفوج او حتى الفرقة ، واحياناً كان يصادف مقاتلين من وحدات غير معروفة له . ولكن لم يعرف من أحدهم شيئاً ، فقد تشربك كل شيء في الشريط الملاصق للجبهة ، واختلط رجالنا والألمان . وبعد يوم آخر لم يبق حول المنطقة غير الألمان ، فكان يقع في كل مكان عليهم أو على آثار وجودهم الطرية ، وقضى اسبوعاً يتنقل في الغابات الصغيرة بحثاً عن مخرج . لم تكن لديه خارطة ، وكان الوضع غير واضح اطلاقاً ، ورجال الجيش الأحمر الذين التقاهم في طريقه كانوا يقدمون معلومات متناقضة للغاية . وكان الشيء الواضح الوحيد هو أن وحداتنا انسحبت لمسافة بعيدة ، والألمان يتجهون صوب موسكو . وفي مناوشات طارئة قليلة فقد ثلاثة رجال آخرين ، واختفى اثنان في الليل ، ولربما ضلا طريقهما في الظلام، والتحقا بمجموعات أخرى ، ولربما اسوأ . ولم يبق معه غير اربعة ، ووجدوا أنفسهم في أعماق غابة ، حيث لا يوجد ألمان ولا رجالنا ، وإذا بهذا

اللقاء الطارئ مع جماعة المستطلعين في درب الغابة .

ونفض النقيب شيئاً من جيوبه على كل حال ، ولف سيكارة نحيلة مقطومة . وكان الآخرون يراقبون آمرهم صامتين وبحزن مكظوم ، كما بدا للملازم .

– كيف القداحة ، سليمة ؟ – سأل النقيب، وهو يعيد الى البنطلون جيوبه المقلوبة .

فسأل ايفانوفسكي مندهشاً :

– أية قداحة ؟

وفجأة تذكر كل شيء .

لقد كان ذلك بالفعل ، قبل شهر ، حين كانوا في حالة دفاع قرب كاساتشيف قاد رئيس استطلاع الفوج الى نقطة مراقبة البطارية ، قبيل الفجر ، آمراً غير معروف يرتدي سدارة ويضع وسام الراية الحمراء على قميصه العسكري الغبردين ، وما ان بزغ الفجر حتى أخذوا ينظرون في المنظار المقرب الى ناحية الالمان ، مسجلين شيئاً على الخارطة . وبعد ذلك تناولا الفطور سوية ، وقدم الرائد لايفانوفسكي سيكارة من علبة «كازبيك» ، ولفت انتباهه ، وهو يشعل سيكارته ، الى قداحة مغنومة في تمثال كاهن بوذي صغير . وكانت القداحة مثيرة للاهتمام بالفعل ، فبضغطة خفيفة على الزناد ينفلق جزء من جمجمة الكاهن ، وتظهر شعلة النار .

وتبين أن القداحة ماتزال سليمة . اخرج ايفانوفسكي التمثال الصغير الاسود ، وضغط بابهامه على الزناد ، ولكن اللهب لم يخرج في هذه المرة ، لنفاد البنزين على الارجح .

قال النقيب :

– طريفة ، طريفة . مع الاسف لا يوجد ماندخنه .

قال ايفانوفسكي :

– عندنا ايضاً لا يوجد تبغ .

اكتسى وجهاهما جدية . جذب النقيب سترته الممزقة على كتفيه . وشعرا رأساً بواقع الجبهة الخالي من المرح .

سأل النقيب :

– منذ زمان وانتم في عوز ؟

– منذ السابع عشر ، حين انسحقنا قرب كاساتشيف .

– مفهوم . طيب ، لنذهب سوية . على خارطتي هنا علمت ثغرة ، فلنحاول أن نتسل الى هناك .

وتوغلوا اربعة ايام أخرى ، ولكنهم لم يجدوا اية ثغرة في خط الجبهة الالماني ، كما لم يجدوا الجبهة نفسها . كان الخريف في اواخره ، وقد تعرت الاشجار من كل اوراقها ، وحل برد صقيعي مبكر ، بعد الأمطار الباردة الطويلة . وكانت الطرق غاصة بالعربات والسيارات

التابعة للوحدات الالمانية المهاجمة ووحدات المؤخرة . وتعب المقاتلون من السير اياماً كثيرة في ارض وعرة ، ومن البرد . وبدأت نزلات البرد والسعال تضني بعضهم . وظلت الدمامل تعذب الملازم في جسده كله . وبعد ذلك ظهر في المجموعة استطلاعي مجروح في رجله لم يستطع السير بنفسه ، فكانوا يحملونه بالتناوب على نقالة صنعوها من ساقين من سيقان الشجر والرداء المشمع . ولهذا السبب لم يستطيعوا السير بسرعة ، ولكن الآمر لم يرد ترك الاستطلاعي . وكان هذا ، بالفعل ، استطلاعياً ثميناً ، يتكلم الالمانية بطلاقة ، رياضي الجسم ، اشقر الشعر ، ازرق العينين ، يدعى «فيخ» . وقد جرح عن طريق الصدفة ، حين وثبوا في النهار الى قرية لأن يسألوا اهلها عن الطريق ، ويحصلوا على شيء من الطعام ، فاصطدموا بالالمان عند بداية الشارع . صرع النقيب اول الماني خرج من الفناء بطعنة سكين في رقبته . وتبين انه ضابط ، واول ما فعله فولوخ ان استولى على محفظته الميدانية ، على عادته القديمة كرجل استطلاع . ولكن اثنين آخرين خرجا في اثر الضابط اطلق احدهما النار من مسدس ، فاصاب فيخ في وركه . ومن حسن الحظ ان بالاينكو اطلق صلية فسقط الالماني ، فاندفع الجميع هاربين ، بعد ان اختطفوا الجريح الذي

لم يخط أية خطوة على الأرض ، بعد تلك الطلقة. والارجح أن رصاصة الالماني أضرت بعصب مهم فيه وتدلت رجله كالغصن الرخو . وبالاضافة الى ذلك حصلت مضاعفات ، وارتفعت درجة حرارته. وكانت التنقلات الطويلة تسبب للجريح عذابات ممضة ، وكانت الضمادة تنزاح عن موضعها طوال الوقت ، وينزف الجرح دماً . وكان فيخ يتعذب كازاً على اسنانه ، ويشتد حزنه اكثر فأكثر وينطوي على نفسه .

وعلى هذه الشاكلة مرت بضعة أيام .

وذات مرة توقفوا للاستراحة على رابية نمت عليها اشجار البلوط . كانت الغابة المورقة قد تعرت تماماً ، واشجار البلوط القصيرة المعوجة وحدها ظلت تحف في الريح باوراقها الذاوية جداً ، الا انها ماتزال كثيفة كما هي في الصيف . في تلك البقعة كان هدوء نسبي ، وأشجار البلوط تغطيهم بأمان عن عيون الغرباء . وما ان توقفوا حتى تساقط رجال الاستطلاع على الأرض ، ورقد فيخ على النقالة ، وعلى وجهه المعذب اغتراب صامت . قعد فولوخ على مقربة ، وراح يسلك اسنانه بقشة في سهوم . لم يكن هناك ما ياكلونه ، ولا ما يدخنونه . ذهب استطلاعيون للبحث عن مسكن يحصلون منه على قطعة خبز للجريح .

وفجأة قال النقيب :

– اسمع ، يا فيخ . لا تقلق ، فنحن لن نتركك . سنخرج بك من هنا ، وسيكون كل شيء بخير . والمهم أن لا تيأس .

قال فيخ بصوت واهن :

– اعطوني مسدسي .

طوال يومين متتاليين ظل يطالب بمسدسه الذي اخرجه فولوخ من قرابه ، بعد أن شك في أمر مريب . والآن كان كل حديث مع الجريح يبدأ وينتهي بمطلبه في اعادة المسدس اليه .

– ها أنت الآن تعود الى الحاحك. سأعطيك مسدسك . ولكن يجب ايصالك الى جماعتنا اولا .

– اعطني مسدسي ! لماذا أخذته مني ؟ ولم هذه الاهتمامات ؟ لاراحة ضميرك ؟ خل عنك، يا نقيب .

كان من المستحيل اقناعه ، وكان النقيب يدرك ذلك ، فلم يلح في اقناعه . ولم يكن وضعهم يترك مجالا للأوهام ، كما لم يكونوا بحاجة الى اية اوهام . فقد كانت حالته الميئوس منها واضحة سواء لفيخ نفسه أو لجميع أفراد المجموعة الثمانية ، بما فيهم صديقه القديم الرقيب روكافيتسين ، الذي كان يرعى الجريح طوال الطريق ، كلما سنحت له الفرصة . ولكن المشكلة أن الفرص كانت محدودة جداً . وكان فيخ يذوى أمام الابصار ، بينما لم يكن روكافيتسين يستطيع اعانته بشيء في الحقيقة،

فكان ينكب على رفيقه مسحوق الهيئة ، يمسح العرق البارد من جبينه الشاحب بمنديل قذر .

قال النقيب :

— نعم ، امور . ماذا سنفعل معك ؟

كان السؤال خطابياً تقريباً ، لم يستطع أحد ولم يحاول أن يرد عليه . وعلى كل حال لم يكن النقيب ينتظر رداً ، فقط كان يفكر بصوت مسموع لا غير . غير أنه في هذه المرة لم يكتب له أن يفكر طويلا ، فقد عاد الاستطلاعيان ، واعلنا أنهما لم يعثرا على اية قرية ، وأن موقع الحارس القريب خال ، ولم يوفقا في أن يلتقطا فيه مايؤكل . ولكن الاستطلاعيين وجدا ، في طريق عودتهما ، سيارات المانية محملة تسير واحدة وراء الأخرى في الطريق الى غابة صغيرة مجاورة ، حيث تفرغ هناك بسرعة ، وتعود فارغة في نفس الطريق . وكل الاحتمالات تدل على أن مستودعاً المانياً كبيراً ينقل الى هناك .

وطبيعي انهم كانوا يعرفون أن المستودعات قد تكون متنوعة ، منها ما هو للعلف ، وما هو للعتاد ، وما هو للوقود ، وما هو للامتعة واللوازم الهندسية وحتى الكيمياوية . ولكنها قد تكون أيضاً للمواد الغذائية . ولعل احتمال الفرضية الأخيرة بدا للمقاتلين الجائعين اكثر الاحتمالات . وقد قفز النقيب على قدميه بحيوية :

— واين هو ؟ بعيد ؟

وانطلقوا ، وقطعوا غابة البلوط بسرعة ، ثم ساروا على حافة منخفضات صغيرة ، وعبروا مرج صغير ، ودخلوا من جديد أجمة كثيفة شائكة ، وعند مخرجها جمدوا جميعاً دفعة واحدة مستجيبين لأمر فولوخ . كان البصر يلتقط ، من خلال كثافة اشجار جار الماء ، شاحنات «بيوسينغ» ذات الاطنان السبعة مثقلة بحمولتها تجرجر نفسها في طريق مهشم مملوء بالحفر الى غابة صنوبر هزيلة ، حيث كانت تفرغ حمولتها ، وتسير، هابطة الى الاسفل بسرعة لتجلب حمولة أخرى .

جلس النقيب رأساً في البقعة التي كان يقف عليها ، واخرج منظاراً من فتحة قميصه . أنزل الاستطلاعيان على الارض النقالة التي ينطرح عليها فيخ . وقال النقيب بدهشة :

— أوه ، ما هذا الذي يكوم هناك ! هذه غنيمة ! يحيطونها بالاسلاك الشائكة ، اي ، نعم . ولكن المسالك اليها جيدة عموماً . حبذا حين يحل الظلام . هاك انظر — قال وهو يقدم المنظار الى ايفانوفسكي . وجد الملازم فتحة في الاغصان الجرداء ووجه المنظار الى الغابة . فرأى السيارات بوضوح وهي تفرغ حمولتها . كان الذين يشتغلون هناك من الاسرى ، كما يبدو ، وكانت تلوح على مبعدة قليلة منهم شخوص داكنة في معاطف عسكرية طويلة ، والبنادق في ايديهم . وتحت اشجار الصنوبر العالية العارية من الاوراق على

الرابية كانت تمتد صفوف طويلة من الصناديق الخضراء والصفراء الضخمة . وكانت بعض الصفوف المعدة من قبل قد غطيت بالمشمع .

تساءل النقيب :

– ترى ما هي ؟ لا يهم ، على كل حال . سنقيم العاباً نارية في مقاطعة سمولينسك كلها. يا روكافيتسين ، هل قنبلتك اليدوية المضادة للدبابات سليمة ؟ وأنت ، يا بوغربنياك ، ما تزال محتفظا بعبوة المتفجرات ؟ ويجب اعداد صواريخ ايضاً . ستنفع .

وفي مكانه في غابة جار الماء سرعان ما وضع خطته لمهاجمة المستودع ووزع المهمات على حفنة من الرجال المتعبين الجائعين . وعهد رعاية الجريح الى رجلين في أول الأمر ، ثم الى روكافيتسين وحده . وعين ايفانوفسكي نائباً له . وقرروا الهجوم حالما يهبط الظلام . وقال الرائد مبتهجاً ، وهو يفرك يديه المتثلجتين :

– ستكون ليلة مرحة . ياليت أن ندخن الآن ، ولكن لا شيء ندخنه .

الفصل الثالث

لعل التفجير سيكون افضل طريقة . تمرر عبوة مع موصل تحت الاسلاك الشائكة ، وتوضع تحت الرصة . ويصرف انتباه الحارس الى ناحية

وكان ايفانوفسكي يعرف كيف يفعل ذلك ، فقد علمه النقيب فولوخ ذات مرة . هناك عدة طرق . سيكون أفضلها ، بالطبع ، ازاحة الحارس كلياً ، ولكن اذا كان الهدف كبيراً فان حراسته ستوكل لعدة اشخاص ، وسيكون من المتعذر ازاحتهم جميعاً .

وهكذا هبط ايفانوفسكي على اسكيه من الربوة غير الملحوظة في الليل ، وهو يفكر بهذه الأفكار . وعلى العموم لم يكن يتبين في الظلام الثلجي اين الأكمة ، واين الوهدة ، بل كان يشعر بذلك فقط من وزن الاسكي على قدميه ، حيث كان الاسكي يصير ثقيلا تارة ، فكان ايفانوفسكي يحتاج الى أن يعين نفسه بالعصوين ، وينزلق تارة اخرى على الثلج بيسر أشد . وكان ايفانوفسكي يتجه صوب الجنوب باستمرار ، مدققاً الاتجاه بين الحين والآخر على البوصلة . الى اليمين كان النهر يتلوى في الظلمة الضبابية مقترباً من درب التزحلق ، ومبتعداً عنه تارة اخرى ، وكان ايفانوفسكي يعرفه من خيط الاجمات المعوج على الشاطيء . والى اليسار كانت تقترب منه اطراف اكمات واطئة كان على المتزحلقين أن يقطعوها بين الحين والآخر .

هبط ايفانوفسكي المنحدر الخفيف التالي ، وتوقف . ارسل اسكيه صوتاً باحتكاكه بنباتات جافة ، فكان الملازم ينظر في ناحية ليتخطاها .

والى الخلف كان رجاله يقتربون واحداً واحداً ، ويتوقفون . سأل بصوته الكامل :

– كيف الحال ؟ – فقد بدا له أن أحداً لا يمكن أن يسمعه هنا .

فاجاب لوكاشوف وهو يقترب ثقيل الأنفاس:

– تدفأنا ، يا ملازم .

وكان البخار الأبيض يخرج من شخصه الجسيم ملحوظا حتى في الليل . اختطف سودنيك خفنة ثلج ، واتكأ على عصاه ، واخذ يأكلها بنهم. وبعد قليل وصل حكيموف وكراسنوكوتسكي ، وانحدر شخص آخر من المنحدر . نادى الملازم :

– ديوبين !

– انه قادم ، كما يبدو . – اجاب صوت من الظلام بعد تمهل .

ففكر ايفانوفسكي في أن الأخير اذا كان قد وصل فمعنى ذلك أن في الامكان ان يتحرك الجميع مجتمعين .

سأل كراسنوكوتسكي بمسحة من التشكي:

– حبذا لو نستريح قليلا ، أيها الرفيق الآمر ؟

اخرج ايفانوفسكي ساعته . كان عقربها الكبير يقترب من الثانية عشرة ، والصغير وصل الى الواحدة . قال الملازم .

– دعك من الاستراحة . نحن متاخرون .

–فرائصي ترتعش بالفعل .

– لملموا انفسكم ، لملموا انفسكم ، وستشعرون أخف . طيب ، ورائي سر !

كان يخاف أن تبرد الاستراحة رجاله ، فقد كان يعرف من نفسه كم من الصعب العودة الى الزخم السابق ، بعد الاستراحة . وكان من المهم المحافظة على السرعة المقررة خلال الليل كله ، بل ولربما زيادتها ، عند الضرورة ، وكان يعرف أن النفس الجديد سيحل عن قريب وعند ذاك سيكون أسهل على الجميع ...

ولكن التعب أخذ يترك مفعوله ، وصار الملازم يلاحظ اكثر فاكثر أن بصره ينخفض الى الأرض بعناد ، ورؤوس الأسكي تأخذ بالالتماع أمام عينيه برتابة . وذات مرة أنتزع بصره عن الثلج بجهد ، ودفع برأسه الى فوق ، واكتشف قدامه شيئاً رمادياً كالحاً يشبه حائطا عالياً تكونه غابة . وكان ذلك غابة بالفعل ، اشجار صنوبر عالية تحف بنذير ووحشة ، قاطعة الطريق عليهم. استغرب ايفانوفسكي قليلا ، فالخارطة ليس فيها ما يشير الى وجود غابة في هذه الانحاء ، وعلى الاخص غابة صنوبرية . ففكر في احتمال أن يكون قد فقد الاتجاه ، فأخذ يراجع البوصلة بسرعة . ولم تكشف البوصلة عن انحراف ، فقد كان يسير في الاتجاه المطلوب على درجة مائتين وعشر بالضبط ، ولكن لم هذه الغابة ، اذن ؟ وماذا

سيفعل معها ؟ يخترقها دون أن يغير اتجاه سيره، أم يلتف حولها ؟ ومن اي جهة يلتف ؟

سأل لوكاشوف من الخلف :

– أهذه وقفة للتدخين ، يا ايها الملازم ؟

ولسبب ما تقدم قبل سودنيك الذي تخلف بحيث لا يكاد يلحظ في الظلام . وكان ذلك خرقاً لنظام السير الذي وضعه فانفلت من ايفانوفسكي:

– لماذا انت هنا ؟

– ها هو جندي الهندسة ... ضجرت من الارتطام بعقبيه .

يبدو أن رجاله المتزحلقين صاروا يتباعدون فيما بينهم وهذا لايجوز البتة . فقد كان الملازم يتصور أن السير في درب تزحلق مطروق يمكن أن يكون اكثر خفة . خبأ البوصلة في كمه ، وانتظر وصول الآخرين متصوراً بجهد كيف سيتصرف مع الغابة .

وبعد خمس وحتى عشر دقائق وصل حكيموف وكراسنوكوتسكي ، ولم تصل البقية . أنتظر وقتاً آخر ، والصبر يتسرب منه . وما كاد المتزحلقون يتوقفون متعبين ، حتى جثموا بصدورهم على اطراف العصوات المغروزة في الثلج ، ليستريحوا قليلا . كان الجميع يتنفسون بصعوبة وتقطع انفاس ، ويلتقطون الثلج بايديهم .

سأل كراسنوكوتسكي خائر الصوت :

– عن قريب ، أيها الرفيق الملازم ؟ قوانا ليست كما ...

سأل الملازم بانزعاج بدلا من ان يرد :

– أين البقية ؟

– قادمون . اظن زايتس تأخر . ورئيس الرقباء يساعده .

– وبيفوفاروف ؟

– هناك شخص قادم .

انزلق ظل أبيض آخر من الظلام الثلجي المغلف بنثار متكاثف في الريح. انه بيفوفاروف.

سأل الملازم :

– أين البقية ؟

أجاب هذا المقاتل بنشاط :

– لا أدري . لا أظن احداً ورائي . تأخرت منشغلا بشد ماسكات الحذاء على الاسكي ...

– طيب ، نمشي .

لم يستطع الملازم أن ينتظر اكثر . فرئيس الرقباء ليس مستجداً في مثل هذه الأمور ، ولا يمكن أن يتأخر . ثم أن درب التزحلق المطروق واضح على الثلج ، فليلحق بنا . واستدار الملازم الى اليمين بمحاذاة طرف غابة الصنوبر ، متحاشياً دخول الغابة . اذ لم يرد أن يخترقها خوفاً من أن تصادفه وهدة أو أشجار حطمتها عاصفة ، أو مجرد أن ينحصر في وسطها . فان التزحلق على الاسكيات في الغابة ليلا غير مرغوب عموماً .

ولكنه لم يكن يعرف كيف يدور حولها ، فكان يسير على غير هدى بمحاذاة حافة غابة الصنوبر متتبعاً في دروب تزحلقه كل التواءاتها العويصة . ساروا بحذر أشد بكثير من سيرهم في الحقل ، وفي الشجيرات الصغيرة تحت اشجار الصنوبر كان طوال الوقت يتراءى لهم شيء ، وتلوح ظلال وشخوص بشرية . ولكن الملازم حين كان يقترب ، كان يكتشف كل مرة أن ذلك ليس الا شجيرات صنوبر صغيرة .

وبينما كانت الريح تشتد ، وهي الآن تهب في مواجهتهم طوال الوقت تقريباً . كانت قماشة بدلة التمويه تنتفخ عند الظهر ، خافقة احياناً كالشراع . وشعر الملازم بأن دفق حركته قد انخفض بشكل ملحوظ ، ومعه هبط وثوقه في صحة اتجاهه . ولم يكن يشك في غير ذلك . فكان تارة يقفز قفزة نشيطة ، وتارة يتحول الى سير معتدل ، متلفتاً في الجانبين باحتراس اكثر مما ينبغي . ومن حين لآخر كان ينصت الى الاصوات من خلفه محاولا أن يعرف ما اذا كان زايتس وديوبين قد لحقا بهم ، بعد تأخر .

ولكن ديوبين لم يلحق بهم بعد ، بينما انتهت الغابة بشكل مفاجىء ، ووصلوا ، اخيراً ، الى طرفها الغربي . وبعد ذلك كانت الغابة الصنوبرية تتحول الى الجنوب ، وتتدور متراجعة الى الجنوب الشرقي . وهذا بالذات ،

كان ينتظره ايفانوفسكي . حتى أنه تنفس الصعداء ، وتوقف وغرز العصوين في الثلج . فقد كان عليه أن يستشير الخارطة .

– من عنده هناك ؟.. يا بيفوفاروف هل عندك رداء مشمع ؟

– عندي ، ايها الرفيق الملازم .

– هاته .

جلس ايفانوفسكي على الثلج دون أن يخلع اسكيه . غطاه بيفوفاروف بردائه المشمع بدقة ، وساد ظلام غير اعتيادي بعد بياض الثلج اللماع ، وخيم هدوء . مرر الملازم بقعة الضوء الشاحبة من المصباح على الخارطة المدعوكة . وصار كل شيء واضحاً .

كان النهر في هذه البقعة يلتوي التواء كبيراً في ناحية ، ولهذا السبب اضاعه في الضباب ، ووقع على الغابة . ولكن من المستبعد ان تكون قد جابهتم ضرورة لمجاراة نزوة النهر هذه ، ولعل الاكثر معقولية أن يتوجهوا الى الجنوب راساً ، وبذلك يختصرون مسافة زائدة كبيرة . صحيح أن النهر يعينهم على تعيين الاتجاه في الليل ، لاسيما وأن الخارطة كانت تتهاون في الدقة . فان الغابة التي داروا حولها لم تكن معلمة عليها ، فان المطابع كانت تقتصر على الدوائر الصغيرة الموجودة هنا ، ويقصد بها الأجمات اذن ، ربما كان هذا ، بالفعل ، أجمة في

وقت ما ، وصار الآن غابة واسعة تنتشر كيلومترين طولا كادت تضلله .

عرف الملازم مكان وجوده ، فالقى الرداء المشمع عنه .

– هل وصل رئيس الرقباء ؟

– لم يصل بعد . ربما ننتظر قليلا ؟ – سأل لوكاشوف .

تفرس ايفانوفسكي في الليل بآخر أمل ، وأرهف سمعه ، ولكن لم ير أحداً الى الخلف . وبدأ غياب رئيس الرقباء الطويل يقلقه بجد ، وخامرته فرضيات سيئة مختلفة ، الا أنه طردها محاولا أن يحتفظ بالثقة بأن ديوبين سيصل . كان يجب التحرك حالا ، وأن يكون هناك الأخير في الصف . كان الرقيب لوكاشوف الأقدم في الجماعة من حيث الرتبة ، بعد الآمر ، وقرر هو :

– يالوكاشوف ، كن الأخير في الصف . لا أريد اي تأخر ! فهمت ؟

– مفهوم – أجاب الرقيب بصلابة ، وهو يراوح على اسكيه ليدع الآخرين يسبقونه .

– الى الامام سر ! لم تـ الا قفزتان ونكون عند الهدف .

... آنذاك كانوا ايضاً عند الهدف تقريباً .

قبل ان يحل الظلام بدأ ثلج رطب يسقط على الأرض المبللة . وكان هدوء . في البداية

تساقط الثلج خفيفاً ، هشاً ، كانت ذراته الجميلة المهلهلة تحوم في الهواء بهية ، وتنزل على الأرض برفق وانسياب . ثم أخذ تساقط الثلج يشتد ، وعند المساء أخذ يسقط نتفاً رطبة ، وتتدلى على الاغصان ، وترقط في كثافة رؤوس المقاتلين وأكتافهم واكمامهم . جلس الاستطلاعيون في أجمة بصبر ، وراحوا ينتظرون. وكانوا يرتجفون بشدة خلال بضع ساعات من انعدام الحركة . غطوا فيخ الجريح برداء مشمع مبلل ، فكان يئن تحته بخفوت في اغفاءة . وقبيل هبوط الظلام ذهب فولوخ واستطلاعي آخر ، هو الرقيب بالاينكو ، لمراقبة المستودع ، فقد صار لايرى من الاجمة غير القليل .

وبعد ربع ساعة جاء بالاينكو الى المجموعة راكضاً لاهث الانفاس . أمر النقيب ان يترك فيخ مع استطلاعي في غابة البلوط ، وأن يتحرك الآخرون الى حافة الغابة . هبوا من جلستهم ، وبعد قليل اقتربوا من آمرهم . كان المستودع قريباً جدا ، ولكن تساقط الثلج والظلام الهابط كانا يخفيانهم بشكل لا باس به . أعلن النقيب بتركيز ذهن وحزم أن يبدأ العمل الآن دون انتظار الليل ، الآن حين تكون يقظة الحراس قد أوهنها لغط النهار الذي لم يستقر بعد ، لم يعترض احد على الآمر ، وفهم رجال الاستطلاع كل كلمة من كلماته ، ونفذوا كل شيء في صمت

وبدقة . كان كل شيء في هذه المناورة جديداً وغير اعتيادي بالنسبة لايفانوفسكي ، فكان يعول على الآمر كلياً ، ويحاول في الوقت ذاته أن ينفذ كل أوامره بشكل أدق .

قال الملازم ، وهو يتخذ مكانه قرب فولوخ :

– الثلج نزل في الوقت المناسب .

فادار هذا له وجهاً يرتسم عدم الرضى والتفكير .

– ليس مناسباً تماماً . هم لايروننا ، ونحن ايضاً لانرى شيئاً منهم .

كان من الصعب أن يحدس المرء ما هو الأفضل ، الا أن الثلج ظل ينزل ، وقرر النقيب البدء بالعمل . اقام اربعة برئاسة ايفانوفسكي على طرف الغابة ، ومعهم مدفع رشاش مغنوم ، واعطاهم مهمة التغطية في حالة الانسحاب غير الموفق واتجه هو بصحبة استطلاعيين الى دغل ومعهم قنابل يدوية . ولم يكن هناك اي وداع ، مجرد أن ايفانوفسكي شيعهم بنظرة محترسة ، حتى اختفى الثلاثة واحداً بعد الآخر في الغسق المتكاثف المتوامض . عبأ المدفع الرشاش بهدوء ، وبقي ينتظر في طرف الغابة .

لبعض الوقت ظل الظلام والهدوء يشملان الفضاء أمامه ، ودقائق الصمت المرهق المتوتر تستطيل بطيئة . كان ايفانوفسكي يتابع الرائد في ذهنه ، متصوراً بشكل حي ، كيف كان هذا

يجتاز قطعة الحقل المكشوفة ، ويقترب من حافة الدغل . ربما سيتوقف بعد ذلك لينظر فيما حوله . ولكن ما هذا ؟..

من الظلام الثلجي الريحي تناهت صيحة غريبة فجأة ، اعقبتها صيحة ثانية ، وقبل أن يلحق ايفانوفسكي ان يعي شيئاً هدرت طلقة بندقية قريبة محطمة كل شك . وفي الوقت ذاته اضاء الصاروخ الذي انطلق فوق قمم أشجار الصنوبر قطعة صغيرة على الثلج الأبيض – كان الثلج المتساقط يحجب الرحاب الليلية ، ولكن ايفانوفسكي ادرك أن خطة النقيب قد تقوضت .

ربما كان عليه أن يغطي الانسحاب ، وربما كان عليه أن يصرف النار الى جهته ، ولكنه كان لا يعرف اين النقيب ، ولماذا لم يرد بطلقة واحدة على نار الحراس . ومع ذلك فحين اخذت صليات المدفع الرشاش الكشافة . تنطلق من مكان في الطريق بمحاذاة طرف الحرش ، لم يصطبر ، واطلق النار من المدفع الرشاش حدساً وبالمقابل على المكان الذي انطلقت منه هذه الصليات الكشافة . كان ينتظر بنفاد صبر ظهور فولوخ ، فلم يطلق غير صلية واحدة على رامي المدفع الرشاش الألماني ، فقد كانت لديهم خراطيش قليلة ، لا اكثر من شريط واحد ، وكان

يجب الاقتصاد فيها . كان ينتظر أن تطلع من الظلام بين لحظة وأخرى تلك الاشباح المعروفة له ، وعند ذلك سيأخذون في الابتعاد عن هذه القاعدة اللعينة . ولكن دقائق مرت ، ولم يخرج أحد من الظلام ، فاضطر الملازم أن ينتظر . كان المقاتل تولكاتشيف يرقد على الثلج الى جانبه ، فناداه ايفانوفسكي وأشار الى ناحية الحرش ، فوثب المقاتل ، وركض طائعاً في الحقل المفروش بالثلج .

ظلت الصواريخ تشتعل فوق الحرش بلا انقطاع ، والخطوط الضوئية الجانبية تنطلق الى موضع معين ، ومن المحتمل أن رامي المدفع الرشاش الالماني كان يعرف الى اين يصوب . أطلق ايفانوفسكي صلية بالحدس ، وهو راكع على ركبته ، وعندها هدرت حافة الحرش القريبة هذه بالطلقات ، ويبدو ان الحراس اتخذوا موقف الدفاع ، وراحوا يصدون الهجوم عن جد . في مثل هذه الحال كان ينبغي الانسحاب دون ابطاء . ولكن النقيب ظل متغيباً ، وغص حلق ايفانوفسكي بتوجس مشؤوم .

لاحظ في الحال ظهور شيء في الحقل ، ولمع في الامام ظل مترنح في الثلج المتوامض القلق ، وفي الوقت الذي سقط فيه ظل آخر ، طلع ذلك الظل بلمحة في ابعاد جبارة تملأ الحقل كله ،

وانطلقت خطوط المدفع الرشاش الضوئية من كلا جانبي حافة الحرش متخطية اياه . الا ان الظل وصل الى الحافة بخطوتين ، وسمع ايفانوفسكي في ضجيج الرمي :

— النقيب قتل !

— قف ! — صاح ووثب بنفسه — قف !

كان ذلك المقاتل فارتوتشني ، وهو استطلاعي جيد عموماً ، بل وكان النقيب فولوخ يحبه اكثر من الآخرين . ولكن رعباً غير مفهوم قد استولى عليه الآن ، فكان ينطلق من تحت النار بكل ما له من قوة . ولكن الخبر المفجع الذي اعلنه لم يستطع أن يصعق الملازم ، فقد كان لا يتوقع شيئاً فيه خير . صحيح أنه لم يستطع حتى أن يتصور مقتل النقيب فولوخ مجرد تصور .

— قف ! ارجع !

واختطف المدفع الرشاش والشريط منه يتدلى حتى يلامس الثلج ، واندفع الى الحقل . ركض دقيقة في الاتجاه الذي جاء منه فارتوتشني ، وهو ينزلق في التعرجات المغطاة بالثلج . وعرف دون أن يلتفت أن فارتوتشني استدار ، وركض وراءه ، وماكان من الممكن أن يحصل غير هذا . كانت الصواريخ تبدو وكأنها تضيء من كل الجهات . ولم يعد ايفانوفسكي يختبئ عنها ، وبوقفة قصيرة أطلق صلية طويلة على حافة

الحرش ليجبر الألمان على الاحتماء والاستلقاء . وفي تلك اللحظة تجاوزه فارتوتشني بحركة التفافية خاطفة ، واختفى في الأمام على الفور ، وراء ستار الثلج .

ووثب ايفانوفسكي ايضاً من ركعته ليركض وراء هذا المقاتل ، ولكنه في ضوء صواريخ ثلاثة توهجت فوق الحقل ، رأى بعض الاشباح القريبة كانت تركض منحنية الظهور تاركة الطريق بمحاذاة سياج المستودع ، خشي ايفانوفسكي أن يمسكوا بفارتوتشني فأسرع ليفرغ نحوهم آخر صلية له . وحين طفرت النهاية الفارغة للشريط المعدني على الثلج ، ترك المدفع الرشاش الذي لم يعد مفيداً له ، واخرج مسدسه من غلافه ، ولكنه كان قد رأى جماعته – اثنين يجران ثالثاً منحني الظهر . اقترب منهم راكضاً .

– حي ؟

صاح فورتوتشني :

– أني ! قتيل ! حارس لعين ! كيف وقع ...

غيروا اتجاههم ، وهم يردون على النار بالمثل ، وركضوا وقتاً طويلا نحو الأجمة ، وبعد حوالى ثلاثة كيلومترات فقط التقطوا انفاسهم في غابة صغيرة .

كان النقيب قد صرع في الحال ، ولم يكن هناك معنى في حمله معهم ، ففتتوا على عجل

بالسكاكين الأرض الرطبة المفروشة بالاوراق ، وحفروا لحداً ، وانزلوا النقيب فيه على نحو ما . كما فقد أحد الاستطلاعيين اللذين خرجا مع فولوخ ، لا يعرف هل قتل هو أيضاً هناك أو ربما احتمى في ناحية . ولكن لم يكن في امكانهم أن ينتظروا ، ففي كل لحظة كان من الممكن أن تنشأ مطاردة من الخلف ، وليس من السهل الخلاص منها ومعهم فيخ الجريح .

قاد ايفانوفسكي المجموعة الصغيرة الى الشمال ، وهو يلعن المستودع المنحوس وسوء الطالع في هذا اليوم ، قادها بعيداً عن هذا الحرش المنحوس المتوهج ليلا بصواريخ ظلت انعكاساتها تصاحب المقاتلين وقتاً طويلا .

كان الملازم مثقل النفس ينازعه الغيظ بين الحين والآخر ، ويعتوره اليأس . لم يكن يدين النقيب ، ولعله كان سيتصرف كما تصرف هو لو كان في مكانه . ولكنه كان مكدراً للغاية ، الى حد ادرار الدموع أن تكون المصادفة الخرقاء العمياء الى جانب الألمان . بهذا الشكل الواضح . فلو لم يقع فولوخ على الحارس في الظلام لسار كل شيء بشكل آخر على ما يبدو .

يعني يجب التزام الحذر اكثر . يجب العمل اكثر تبصراً بمائة قيراط ، لاسيما بالنسبة لايفانوفسكي الذي لم يعد الآن مسؤولا أمام نفسه فقط .

الفصل الرابع

بعد أن اجتاز الملازم الغابة طلع بالمجموعة ثانية على الغمر المستوى الملاصق للنهر، وسار المقاتلون على اسكياتهم وقتاً طويلا في خط مستقيم لا ينحرفون الى اية جهة. لم تعد في المنطقة هنا مرتفعات ولا منحدرات، فقد كان درب التزحلق يسير منبسطا في الثلج العميق، وكان ايفانوفسكي طوال الوقت يضع ثقله على العصوين بتعب ملحوظ. كانت الاسكيات في الثلج الرخو تغوص أعمق مما كان يتطلبه السير السريع، والزحلقة لم تكن يسيرة. حمل الآمر نفسه العبء الأكبر في هذا الطريق شاقاً درباً للتزحلق، وفي نحو منتصف الليل شعر، بأن قوته تضر. وكان كل ما عليه من اللباس مبللا، وملابسه الداخلية لم تجف من العرق، والانفاس الحارة تلهب صدره، وصار العطش يعذبه. ولكنه لم يحب أن يلتهم الثلج، فقد كان يعرف أن الرطب يتحول الى عرق زائد، وهذا يقلل من قوة التحمل لا غير، ولا يزيد شيئاً الى الطاقات التي كان مايزال بحاجة الى الكثير منها.

سار الوقت بسرعة، وديوبين لم يلحق بالمجموعة بعد، وتاه الملازم في الظنون: ماذا حصل له؟ ولكن يجب الكف عن التفكير فيه، على ما يبدو، فاذا كان لم يلحق من قبل، فلن

يلحق الآن، فقد قطعوا نصف الطريق، ان لم يكن اكثر. وكان قلب الملازم ينقبض كلما فكر في أنهم صاروا يقلون اكثر فأكثر. لم يبلغوا المكان بعد، بينما فقدوا أربعة رجال. ولكن لم يكن في وسعه، بل ولم يكن له الحق في تضييع الوقت في البحث أو الانتظار.

كان ايفانوفسكي نادراً ما ينظر في ساعته عن عمد، فقد أخذ يخاف جريان الزمن الذي لا يكف، فكان يضع كل قواه في الجري محاولا أن لايشغل باله كثيراً في الأشياء الأخرى. ولربما لهذا السبب لم يلحظ رأساً أن الريح قد أشتدت بشكل ملحوظ، والدوامات الأرضية تدور عند قدميه، وأخذ الثلج ينزل كما يبدو. وكانت بعض دفقات الريح القوية تضرب ظهره بذرات الثلج، بشدة حتى أن انفاسه تقطعت. والظلام فيما حوله اشتد اكثر، اوحش اكثر. وبدون ذلك كان العراء الليلي الضيق يزداد ضيقاً، ويذوب في الظلمة الرمادية الرطبة. وقلت البقع الليلية على الجانبن بشكل ملحوظ. وعلاوة على ذلك كانت الريح تصفع الوجوه بالثلج، وكان يبدو وكأن زوبعة ثلجية على وشك أن تهب. وفكر الملازم بفزع وهو يجذف في عصويه: «تهب في وقت غير مناسب». وكان اسكيه قد غاص في الثلج تماماً، ولايظهر منه على السطح غير طرفي رأسيه المعكوفين. كان ايفانوفسكي

لايكاد ينظر الى الثلج في الاسفل محاولا المحافظة على الاتجاه ، وقد كان عليه أن يرى أبعد مايكون في الليل ، فقد كان ذلك أحد واجباته كموجه للسير . وكان الآخرون ينظرون الى الجانبين ويراقبون . وكان لوكاشوف الأخير في الصف مسؤولا عن السلامة في المؤخرة . وطبيعي كان من السهل في هذه الظلمة الاصطدام بالألمان ، ولكن الملازم كان يخشى التأخر اكثر مما يخشى ذلك . اذ عليهم في الزوبعة او في الصحو ، أن يكونوا في المكان المقصود قبل انقشاع الظلام . وفي النهار لن يكون لهم اي شغل هناك .

ولكن يبدو أن النهر ابتعد ناحية مرة أخرى ، ولاح الى الأمام شيء رمادي هائل يبرز من الظلام مثل ربوة ضبابية متعرجة . كانت الزوبعة الثلجية تسرح في الحقل كله ، ومن خلالها كان من المستحيل تحديد ذلك الشيء ، لا سيما وأنه كان في طريق المجموعة . ادرك ايفانوفسكي ذلك رأساً . فكان يراجع البوصلة الآن اكثر من قبل ليتأكد من خط السير . والى الخلف منه كان سودنيك لايتأخر خطوة ، كما كان الآخرون يحافظون على قرب المسافة .

والذي جذب انتباههم وهم بعيدون ، تبين من قرب أنه مبنى - بيت ضيعة في طرف قرية أو عزبة . وكان يغريهم أن يتحولوا الى هناك ، ليطفئوا ظماهم على الأقل ، ولكن ايفانوفسكي

كان يدرك اي شيء امامه ، فانحرف ناحية راساً ، في حركة التفافية . كان يخاف بشكل خرافي من كل ما يمكن أن يصرفهم عن القضية الرئيسية الآن ، ويبدد الوقت .

في الجو المكفهر المخيم على الأرض المزوبعة ، كان من الصعب تحديد المسافة التي تفصلهم عن هذه العزبة . وما هي الا دقيقة حتى اسودت العزبة في ناحية ، واوشكت على الاختفاء ، واذا بصرخة تصدر من خلال العاصفة . لم يدرك الملازم في الحال من الذي يصرخ ولا حتى اللغة التي يصرخ بها ، ولكن نباح كلب اعقب ذلك صادراً من المبنى . لم يتوقع ايفانوفسكي خيراً من ذلك فاندفع مبتعداً يعمل بعصويه بقوة قافزاً قفزة حاسمة في ناحية ، واذا بصلية مدفع رشاش تحطم سكون الليل فوراً مغطية على صوت الزوبعة . كانت نقاط الرصاص الكشاف تخترق الظلام فوق الرؤوس ، وتشمخط على الثلج ، وتمضي بعيداً . جفل الملازم من الفجاءة ، وقفز مندفعاً بكل قوته قدماً الى الأمام في الظلام اشتعل ضوء فجأة من خلال الزوبعة في مكان ما من جنب ، ولاحت ندف الثلج كثيفة في رقعته الشاحبة ، ولكن ذلك لم يكن صاروخاً ، والأكثر احتمالاً أن مصابيح اوقدت في مكان ما . ومرة أخرى اندفعت في الهواء حزم الرصاص النارية ، ومرت على الحقل صلية طويلة كثيفة بفلطحة عريضة .

التفت الملازم الى المتزحلقين . كان سودنيك ، كما هو دائماً ، يسير وراءه تماماً ، وكان الآخرون يسيرون مسرعين منحني الظهور . كان ضوء المصابيح البعيد الشاحب يضيء الحقل بشكل ملحوظ ، ويبرز من الظلمة الرمادية أشباحاً بشرية بيضاء ، كان من الممكن أن تلحظ من العزبة على الاكثر . وحين صار الرصاص الكشاف يلمع من جديد على مقربة شديدة ، صاح الآمر بصوت غير عال : «استلقاء !» وقد خاف لسبب ما على حمولة سودنيك اكثر من أي شيء ، ورقد على جنبه برفق . ولكنه كان قد تأخر . شعر ، وهو مستلق على الثلج ، أنه قد جرح ، وأن رجله تلذعه لذعاً متقطعاً في موضع أعلى من ركبته ، وبدأ بلل دافىء يسيح في بنطاله . ولكنه لم يشعر بألم شديد ملحوظ ، فاطبق على اسنانه ، وحرك رجله ، فبدا ذلك محتملا . والى مقربة كان سودنيك يغوص في الثلج ثقيل الانفاس .

همس لهذا المقاتل همساً عالياً :

- القوارير ! احرص على القوارير !

وقد ادرك بوضوح غير اعتيادي مرة أخرى أنهم اذا اصابوا القوارير ، فسيهلكون جميعاً في الحال . سحب سودنيك حقيبة متاع من ظهره ، وهو راقد ، وغرسها في الثلج مغطياً بنفسه الحمولة الخطرة على الجميع .

ظلوا ربع ساعة راقدين على الثلج جامدين

وما ان انطفأ الرصاص الكشاف حتى حاول الملازم أن يقفز على قدميه ، واكتشف ، وسط فرحه ، أن رجله تطيعه . انحنى على الاسكي وانطلق مرة أخرى في ظلام الليل محاولا بكل جهده أن يبتعد عن الصليات وضوء المصابيح الباهر . لطيف أن خفقات الريح بما تحمل من ثلج كانت تغطيهم حتى في العراء المنور بضوء بعيد ، وقطع حوالي مائة متر أخرى . لم تعد العزبة ترى اطلاقاً ، والمصابيح ومضت في البعيد ، وكمد ضوؤها ، ولكنها ظلت ترسل ضوءها الى هنا ، كالسابق . خرقت الظلام صلية جديدة من الخلف ، ولكن خطوطها سارت مبتعدة في ناحية .

يبدو أنهم افلتوا من أخطر منطقة . دار في خلد الملازم أنه انفصل عن رجاله ، فالتفت . كان رجل يتخبط في الظلام من خلفه متردداً ، ولكن لم يلحق به ، والظاهر أنهم خرجوا عن خط تزحلقه . عند ذاك كف عن التزحلق ، وقعد ، ونادى على الرجل بخفوت ، وانزلق في الظلام ابطأ من ذي قبل ، مبتعداً عن تلك العزبة اللعينة .

وبعد قليل وقع على حافة غابة أو أجمة وتوقف . فقد كان عليه أن يجمع مقاتليه . كان ألم رجله يزداد أكثر فأكثر . لكن الألم ما يزال محتملا ، والظاهر أن الرصاصة أصابت اللحم فقط . صمتت العزبة . وعلى مقربة منه لاحت اجمة عارية سوداء مذرورة بالثلج ، فيها شجيرات

شوح صغيرة ، يمكن الاختفاء فيها اذا حدث طارىء . ظل ايفانوفسكي مندهشاً من يقظة الألمان . ولكن الكلاب وشت به ، كما يبدو إن هذه الكلاب الحمقاء ربما عرفته فنبحت عليه . وعلى كل حال كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك ، لو لم يبتعد عن هذه العزبة في الوقت المناسب . ولكنهم لم يفطنوا اليه ، رغم أنهم لم يكونوا بعيدين جداً بحيث لا يلحظونهم . والآن ما العمل ؟ شعر بالألم المتزايد في رجله ، وبنطاله من الداخل صار مبللا تماماً ، وحتى اللفاف في الحذاء تبلل ، وكان يجب أن يلف من جديد . ولكنه صمت ولم يتحرك ، فقد كان ينتظر اقتراب الآخرين .

كان سودنيك أول من طلع من الظلام بشكل غير متوقع ، ثم ظهر شخص بيفوفاروف النحيل ، وبعد ذلك بقليل انطلق مقاتلان آخران من العاصفة الثلجية منحنين يجذفان بعصواتهما بحركات عريضة . توقف الجميع قرب الآمر ، والتفتوا الى الخلف بحذر . كانت الريح الخفاقة تدور في الهواء ذرات الثلج القليلة ، وتنثرها على الاسكيات ، وبدلات التمويه ، ووجوه المقاتلين .

سأل الملازم بهدوء :

– من غائب الآن ؟

– حكيموف غير موجود .

قال لوكاشوف دون أن يلتفت ، ونظر الجميع صوب العزبة المنحوسة .

وراح كراسنوكوتسكي يشتم :

– اوغاد ! كيف أحسوا ؟ كنا نسير بهدوء على ما يتهيأ لي .

– والمصيبة الأخرى تلك الكلاب . لا بأس لو كانت كلاباً المانية ، ولكنها كلابنا .

– الكلاب كلها المانية تحت حكم الألمان . انها ليست رفاقاً لنا .

أرخى الملازم رجله الجريحة ، وهو واقف لا يكاد يقوى على ذلك ، ولزم الصمت . واكتاب اكثر فاكثر ، انه يعي وضعه ، ويتخوف من غياب حكيموف الطويل . وكان واضحاً تماماً أن هذا التأخير سيكلفهم غالياً ، ولكنه لم يكن في وسعه ايضاً أن يتخلى عن مقاتل . وبعد انتظار قصير سأل الملازم لوكاشوف :

– اين اختفى ؟ عندما كنا مستلقين ، أم وقع بعد ذلك ؟

– كان موجوداً عندما كنا مستلقين . وبعد ذلك لم يقع بصري عليه .

– اذهب واعثر عليه . نحن منتظرون هنا .

سار لوكاشوف في العاصفة الثلجية صامتاً ، بينما وقف ايفانوفسكي قليلا ، وانعطف على حافة الغابة ، وتوغل وراء شجيرات الشوح الفتية المذرورة بالثلج . كان الهواء يدوم هنا ، وكأنما

في أنبوبة ضخ الهواء ، فقد كانت سحب الثلج تندفع في الظلام كالزوبعة ، والريح تهب من كل الجهات . أسرع الملازم بحل مشدات بدلة التمويه ، وفك بنطاله . شعرت يداه الباردتان فجاة بالدم المتخثر . مزق غلاف الضماد الخشن ، وشد به أعلى ركبته بقوة . كان الألم ممضاً ، ولكنه تحمل ، وكبت زفرة ، ولبس بنطاله بسرعة ، فرك يديه بالثلج بعناية . يجب أن لا يفطن أحد الى أنه قد جرح ، فلا وقت الآن لذلك ، لاسيما وأن الجرح طفيف ، عموماً . وعليه أن يتحمله صامتاً .

اللعنة ، كيف حصل كل ذلك بهذا الشكل غير المعقول ولا أسوأ منه . وخطر في باله رأساً تطير شعبي من أن البداية المنحوسة تفضي الى نهاية أكثر نحساً . وكانت بدايته منحوسة الى حد كبير . فما سيكون في النهاية؟

ترامى المقاتلون على الأرض ، وانتظروا بصبر ، ضاغطين في ايديهم بنادقهم الملفوفة المواسير . وانتظر هو ايضاً بعض الوقت ، ثم أخرج ساعته . كانت هذه ، حسب الاصول ، تقوم بعملها ، وكأنما لم يحصل شيء ، مشيرة الى الساعة الثانية والنصف . مر جزء كبير من الليل ، وهم ايضاً قطعوا مسافة غير قليلة ، ولكن مايزال امامهم حوالي عشرين كيلومتراً . فقط أن لا يكون قد فقد الاتجاه . فهو بعد أن

انشغل بتلك المناوشة لم يعد ، بالطبع ، يفكر في أي اتجاه . والآن كان يجب تصحيح الوضع . أخذ يستشير البوصلة . كان المؤشر المنصوب على مائتين وعشر درجات يتجه نحو الأجمة . وفي ظلام الليل الزوبعي لم يتبين الملازم اي شيء . فاستقر على أنه سيضطر ، على ما يظهر ، الى أن يشق طريقه خلال الخميلة . والا فانه بعد قليل سيضيع تماماً . او يقع في براثن الألمان .

– شش !

صدر من الظلام صوت واهن غير واضح . نهض كراسنوكوتسكي على اسكيه ، وانحنى ، وسار الى هناك . وبعد حوالي خمس دقائق لم يرد من هناك أي صوت ، ثم لمع شيء في الظلام ، واضطرب أبيض مهوجاً . اها ، بالطبع ، اثنان يسحبان حكيموف على الأرض منحنيين .

قفز الجميع على اقدامهم دفعة واحدة ، وامسكوا عصواتهم . ولكن لم تعد هناك حاجة الى المساعدة، وصل لوكاشوف وكراسنوكوتسكي بحكيموف سحباً ، وسقطا على ركبتيهما في الثلج . وقال لوكاشوف متعب الانفاس :

– ها هو ، عثرت عليه بالكاد . لم تكن هناك غير عصا واحدة بارزة . عصاه . انظر فاراها بارزة . وهو على بعد عشر خطوات . والثلج أخذ يطمره .

سأل الملازم :

– حي ؟

– حي ، ولكن حالته سيئة . اصابوه في ظهره ، وفي بطنه ، على ما يظهر .

من ساعة لساعة يتعقد الوضع . هذا مقاتل آخر ! حكيموف البائس . اي فتى مجتهد ، نشط ، معتن . راق للآمر من أول لقاء . مقتصد بكلامه ، حصيف . ولكن ما العمل معه الآن ؟

– اذن ، ضمده بسرعة .

– لففته قليلا هناك ، على السترة . انه مغمى عليه ...

بينما كان المقاتلان يضمدان الجريح متخبطين بالثلج ، ارخى ايفانوفسكي رجله المصابة ، ونظر في الظلام بذهول يقتضي حمل حكيموف معه بالطبع . ولكن كيف ؟ والى أي وقت ؟ وماذا يفعل معه غداً ؟ كان كل شيء صعباً ، غامضاً ، ومزعجاً جداً ، ولكن الآمر حاول أن يخفي مايلاقي من مصاعب . فهو يجب أن يعرف كل شيء في القضية التي اقدموا عليها ، ويحسن كل شيء ، ويكون بالنسبة للآخرين تجسيدا للوثوق المطلق .

– ضمدتموه ؟ أصنعوا ربطة من الاسكيات. لا تعرفون كيف ؟ بيفوفاروف ، هات مشمعاً ! – أمر الملازم بخفة مصطنعة .

فسأل كراسنوكوتسكي متشككا :

– وهل يمكن أن يحمل بهذه الصورة ؟

– يحمل . اخلعا سير البندقية . وليتقدم واحد بسير بنطاله . اخلعا منه أيضاً كل احزمته . اجمعا الخراطيش . كلها ، كلها . والقنابل اليدوية أيضاً . سودنيك ، خذ أنت القنابل اليدوية . والآن احملاه بالتعاون . واحد من الحزام ، هكذا . وأنت ، يا بيفوفاروف احمله من الخلف . بجراة اكثر ، اكثر ، لا تخافا .

وضعا الجريح على ربطة الاسكيات على نحو ما ، وسارا به متثقلين الى الأجمة . ولم يكن الأمر سهلا عليهما ، فقد كانت الاسكيات تتزحلق على الثلج ثقيلة متفرقة ، وجسد الجريح كان ينقلب الى جانب باستمرار . ومن الخلف كان يمتد خط عميق في الثلج . وغير معروف كم سيستمر حمل هذا الثقل .

ولكن لم يكن لهم خيار آخر . اذ لا يمكن ارجاعه الى جانبهم من هنا ، ولا ابقاؤه في اي مكان . ولا بد الآن من حمله والاهتمام به . الآن من المستبعد أن يتموا مهمتهم حتى الصباح ...

زحفا الى الأجمة مترددين ، يتوقفان تارة ، ويعدلان الاسكيات ، لايكادان يمسكان بحكيموف عليها . كان كراسنوكوتسكي يجره ، وبيفوفاروف يدفعه من خلف ويوازنه منحني الظهر . وكان لوكاشوف السائر الى الخلف يساعدهما احياناً ،

خائراً في القش المذرور بالثلج ، والفواح بالصيف والشمس ، كما كان . كانت قدماه المشدودتان الى الاسكي قد انزلقتا ناحية ، فدب بجسمه بنعومة في كومة القش . رقد بضع لحظات بهدوء في جمود لذيذ ، مغمضاً عينيه ، شاعراً بأن كل شيء تحته يلف في دوران ناعس سادر ، حتى فزع من أن يغلبه النعاس في الحال، فاجبر نفسه على النهوض بجهد هائل من الارادة. على ما يبدو لم يلحظ أحد نقطة ضعفه هذه التي كان يخجل منها آنذاك اكثر من أي شيء آخر . وخلال ذلك اقترب سودنيك من كومة القش ، ووصلت محفة حكيموف . وكان لوكاشوف آخر من خرج من الظلام متعباً ايضاً . وتهاوى الجميع على كومة القش في صمت .

نطق آخر الجماعة بصعوبة :

– هل بقي الكثير ؟

قال الملازم بحيوية مفتعلة :

– قليل ، قليل . ولكن يجب أن نسرع . توجد طريق عامة هناك ، ويجب أن نقطعها قبل طلوع الفجر . في النهار لا يمكن ذلك ابداً .

قال لوكاشوف :

– اذن ، كل شيء واضح . حسناً ، لنتحرك.

– نعم ، يجب أن نتحرك . – قال الملازم مؤكداً ، ولكنه لم يقو رأساً على انتزاع جسمه من وسادة القش الناعمة .

أوعز لوكاشوف :

– طيب ، الى الاسكيات ! واحد ، اثنين !

ولاحظ الملازم في سره ، وليس للمرة الأولى ، أن هذا الرقيب صار يوعز للمجموعة اكثر وثوقاً فاكثر . وفي الطريق أيضاً ظل طوال الوقت يصيح على الآخرين ، ويحثهم ، ويدلهم . وايفانوفسكي المشغول بتحديد خط السير ، ومراقبة البقعة الى الأمام لم يكن لحد الآن يفكر فيما اذا كان جيداً او سيئاً . وعلى العموم كان يرضيه تماماً كرقيب آخر الصف . فقد كان ممتازاً في هذا ، يرصف الصف رصاً ، ولن يتأخر أحد عنده بالتأكيد .

– قيام ! قيام !

أوعز لوكاشوف بصوت خافت ، وبالحاح معهود منه . ووقف هو على اسكيه ، وتهيأ للتحرك . نهض كراسنوكوتسكي بجهد واضح ، والقى على كتفه حمالة المحفة ، وبقي هو بيفوفاروف وحده جالساً منطرحاً بجنبه على كومة القش ، ولم يتحرك .

– طيب وانت ؟ هل تنتظر دعوة خاصة ؟ بيفوفاروف !

تقلب بيفوفاروف بوهن ، ولم ينهض . فسأل الملازم :

– ماذا بك ؟

– لا اقدر . – قال هذا المقاتل بصراحة لاتقبل الاعتراض .

– يعني كيف لا اقدر ؟

– لا اقدر . اتركوني .

فقال ايفانوفسكي مندهشاً :

– غير معقول ! هل أنت تمزح ؟

– لا يمزح ، بل يتحامق . – قال لوكاشوف بوثوق وصاح – هيا ، قيام !

الظاهر أن بيفوفاروف النحيل الضعيف ، لم يكن مهيئاً للطريق الطويل ، وها قد وصل الى نهاية امكانياته غير الكبيرة اصلا . وكان من المستبعد أن يكون في الامكان اعتصار طاقة أخرى منه ، ولكن ابقاءه على كومة القش هذه غير ممكن ايضاً . أوعز ايفانوفسكي بحدة :

– هيا ، انهض ! يا رقيب لوكاشوف ، انهض المقاتل !

لم يكن في امكانه الا أن يستخدم سلطته بكل صرامة . فهي وحدها يمكن أن تؤثر . وطبيعي أن الملازم كان يعي كل فظاظة مطلبه البعيد عن الروح الرفاقية ، ويفهم أن هذا المقاتل المطيع المنفذ ، عموماً ، كان يستحق معاملة افضل . ولكن ايفانوفسكي في هذا الطريق شطب من نفسه اي تعاطف ودي ، ولم يبق الا على تشدده البارد كآمر .

تقدم لوكاشوف من المقاتل ، وانتزع عصاه من الثلج .

– سمعت ؟ قيام !

تململ بيفوفاروف باسترخاء ، واخذ ينهض، وكانما غير فكره ، لا يكاد يتغلب على الارهاق في داخله ، واحتدم لوكاشوف فجأة :

– كف عن التباله ! قيام !

حاول الرقيب أن يوقف المقاتل على قدميه بجذبة قوية من ياقته ، ولكن بيفوفاروف لم يكن منه الا ان انقلب على ظهره ، رافعاً رجله باسكيها الى فوق . جذبه لوكاشوف مرة أخرى ، فتلوى بيفوفاروف مثل كتلة رمادية لاحول لها ، في دوامة الثلج التي أثارها .

دفع الملازم رجله السليمة بحدة غير قادر على كبح شعور اعتمل في نفسه غريب لاينسجم مع ما يرغب .

– اتركه ! لوكاشوف ، توقف !

– كيف اتوقف ! اجامله ...

– اهدأ ! انه لا يتصنع . يا بيفوفاروف... هاك ... خذ لك جرعتين ...

وخلع ايفانوفسكي من الحزام الزمزمية التي ظل طوال الطريق يحرص عليها الى ساعة أخرى ، الى الغد ، الذي سيتعين عليه ، كما تشير كل الدلائل ، أن يقضيه في الثلج ، بلا حراك ، ثم الى طريق العودة ، ومن المحتمل

تماماً أن يكون أسوأ من هذا . بل ومن المؤكد أن يكون كذلك . فهم الآن ، على الأقل ، غير مطاردين ، لم يكتشفوا بعد ، وكان الليل والعاصفة الثلجية يغطيان على آثارهم بشكل مأمون . ولكن ماذا سيكون في الغد ؟ من المحتمل تماماً أنهم في الغد سيتذكرون بعذوبة ليلتهم المضنية هذه . ولكن مهما كان هذا اليوم ، فان لم يصلوا في الوقت المحدد لن يكون لهم غد أبداً .

شرب بيفوفاروف عدة جرعات من الزمزمية، وبقي جالسا بعض الوقت ، وكأنه يراجع فكره ، ونهض مترنحاً .

— طيب ، رائع . هاتوا البندقية . ها توها، هاتوها ! وليحمل لوكاشوف حقيبة المتاع . خذ ، يارقيب حقيبة المتاع منه . لم يبق الا الشيء القليل . قبل ان يطلع الفجر سنختبىء في حرش شوح ، ونستطلع ، ونكتشف ، وفي المساء نثير ضجة ، تسمعها سمولينسك كلها ! فقط أن نحمل حكيموف الى الأخير . كيف هو ، يتنفس ؟

قال كراسنوكوتسكي وهو يقف شاداً عليه حمالة المحفة :

— يتنفس ، أيها الرفيق الملازم . ولكن ربما نتركه ، أيها الرفيق الملازم ؟ نطمره في كومة القش ...

قال ايفانوفسكي بقسوة :

— لا ، لا ينفع . واذا اكتشفه الألمان ؟

عندئذ ماذا سيكون ؟ توهب لنا الحياة ، ونترك له الموت ؟ وماذا سيقول الجنرال ؟ تذكروا أنه أمرنا : ليسند بعضكم بعضاً ، فليس لكم من تستندون اليه بعد الآن .

زفر كراسنوكوتسكي :

— بالطبع ، فقط أن لا يضيع تعبنا به عبثاً ...

وفكر ايفانوفسكي : هذا صحيح ، محتمل تماماً وان يضيع عبثاً . وهذا ما سيحدث على الأكثر ، فان حكيموف مايزال في غيبوبته . ثم هذه الهزة ، البرد ، سيتجمد وينتهي الأمر . والمقاتلان اللذان يجرانه يمكن أن ينهارا قبله ، وعند ذلك سيتضرر الجميع . وأخذ ايفانوفسكي دون أن يعترف حتى لنفسه يشعر شعوراً غامضاً بأن حكيموف يتحول ببطء ، ولكن بوفاء لارادة القدر المسيطر على الجبهة ، من مقاتل جيد ورفيق الى معذب مرغم لهم ، لا اكثر .

ولكنه كان رفيقهم الذي جعلته المصادفة العمياء فقط ضحية ، مثلما صار شيلودياك او كودرياڤيتس . الا أن الفرق بين حكيموف وبينهما هو أن الأخيرين في مقتلهما تركا في انفسهم الامتنان والأسى . بينما كان حكيموف كلما طال الوقت يثير في انفسهم شيئاً مختلفاً تماماً . وفي الوقت ذاته كان مفهوماً تماماً أن كل جريرته هي أن جسمه يقاوم الموت بصلابة اشد.

وكان الملازم يعي جيداً من تجربته الذاتية المريرة المصيبة التي تواجهها المجموعة حين يكون بينها جريح . انهم الآن سيتأخرون بالتأكيد ، ولا يستطيعون عبور الطريق العامة قبل انقشاع الظلام ، وسينحصرون في الثلج في أرض مكشوفة ، حيث سيسهل على الألمان اكتشافهم . ولكن مهما تعذب ايفانوفسكي من وعيه لهذا المنظور المشجي ، لم يكن في مقدوره أن يسمح لفكرة تركه حتى في أن تخطر في باله . فقد كان واجب الآمر والانسان يملي عليه بقوة بان مصير هذا البائس الذي مايزال على قيد الحياة لايمكن ان ينفصل عن مصير المجموعة . ويجب أن يفعلوا من أجله كل ما في امكانهم أن يفعلوه لأنفسهم . وكان ذلك قانوناً لرجال استطلاع فولوخ ، وسيبقى كذلك في مجموعة ايفانوفسكي ايضاً .

وارهق الآمر تماماً ، مثل كل من في مجموعته ، خلال هذه الليلة الشاقة بشكل شيطاني . كان لا يكاد يحرك رجله الجريحة متالماً ألماً غير شديد ، ولكنه موصول . ومع ذلك فقد اخفى جرحه عن الآخرين ، وبقي في أعين المقاتلين مساوياً للجميع في امكانياته الجسدية وقد ألقى ذلك عليه التزامات مساوية لالتزامات الآخرين كاملة غير منقوصة . ومنذ بعض الوقت أخذ يشعر ببعض الحراجة من أنه ، وهو يجبر الآخرين على عمل فوق طاقة الانسان ، كان يسير خفيف

الحمولة ، لم يأخذ حملا اضافياً غير بندقية بيفوفاروف . ان الواجب الرفاقي يقتضي مشاركة الآخرين جميع الاعباء بشرف .

طافوا حول حافة حرش الشوح ، وساروا من جديد خلال غمر النهر الذي بدا لايفانوفسكي جزءاً من الطريق غير خطر نسبياً . وعلى الخارطة لم تعلم على مرج وأجمات أو مستنقع ، ولم تكن ثمة قرى على مسافة قريبة ، وكان الالتقاء بالالمان اقل احتمالا . عبروا بسلام طريقين ممسوحين بالثلج ، ولم يبق الآن غير الطريق الأخير ، وهو الطريق العامة للجبهة ، الطريق التي لا تخلو بالطبع ، والتي لا يمكن عبورها الا ليلا . ولكن مايزال هناك زهاء خمسة كيلومترات تفصلهم عن هذه الطريق ، فانتظر الملازم مترنحاً في الظلام ، اقتراب كراسنوكوتسكي .

– كيف الحال ؟

– سأعود الى طبيعتي قريباً . لو اعطيتني بعض الجرعات ؟

قدم الملازم الزمزمية له ، فشرب المقاتل بضع جرعات طويلة .

– ها ، احسن ؟

– يبدو . هل سنتوقف في استراحة عن قريب ؟

– عن قريب ، عن قريب . هات اساعدك . معاً أسهل .

– اها ، اسهل ! سنتعب فقط . الآن سادبر نفسي بشكل ما ... يبدو أن الزوبعة تهدأ .

أجال الملازم بصره فيما حوله ، ولدهشته اكتشف أن الزوبعة بالفعل ، قد هدأت تقريباً . ارتفعت السماء السوداء منفصلة عن الأرض . وفي الأسفل حقل أبيض ساكن ، منتفخ في غرابة ببياض الليل الريان ، وعلى الجانبين طلعت من جديد منمنمات الأجمات المرقطة برقع قليلة من شجيرات الشوح وكان الصباح يقترب ، كما يبدو . أخرج ايفانوفسكي الساعة من جيبه بيده المنتفخة . كانت الساعة السادسة والربع .

– اهوه ! قفزة أخرى ، وستكون النهاية . همود حتى المساء .

شحذ القوى هذا القلق الجديد من الوقت القصير وراح الملازم يحرك اسكيه بنشاط . ساروا على طول شجيرات صفصاف واطئة تبدو سوداء في الثلج . ولم يهدأ ضيقه الذي تفجر من جراء هدوء العاصفة الثلجية في هذا الوقت غير المناسب ، وكانت ستنفع كثيراً لو استمرت . فان عبور الطريق العامة بعد هدوئها أصعب ، على الاخص ، اذا كانوا سيتأخرون . وكل الدلائل تسير الى أن ساعة او نحوها من الظلام لا تكفي للعبور ، بينما هذه الساعة تستطيع أن تقرر كل شيء . وكان الجنرال في كلمة التمنيات القصيرة

قبيل خروجهم قد نصحهم بالحاح في أن يستغلوا الظلام الى اقصى حد ، فان الليل وحده كان يمني بالنجاح . ففي النهار ، حين يكشفهم الألمان ، سيحاولون بالطبع ، ابادتهم عن بكرة أبيهم ، بينما في الليل يمكن أن يفلتوا ، ويختفوا . وكان الملازم يدرك هذه الحقيقة بالذات ادراكاً ممتازاً بدون اثباتات ، ومع ذلك فقد كان ممتناً للجنرال على اهتمامه وكريم نصحه اذ لم يكن فيهما ما يشير قط الى انهما صادرين من جنرال ، بل من أب في الأحرى ، في علاقته بهم جميعاً ، وبالأمر كذلك . وكانوا هم أيضاً ، وبدون شك ، يدركون أن الثقة قد أنيطت بهم . ومنذ تلك الليلة صاروا الاسياد الوحيدين لمصيرهم ، لأن أي واحد آخر لايستطيع أن يساعدهم في اللحظة الحرجة ، لا الجنرال ولا الرب نفسه . ولكن الملازم في الطريق كله خلال الدوامة الثلجية لهذه الليلة المخبولة كان يحمل في دخيلته شعلة الامتنان المتوقدة أبداً على تعاطفه الانساني . وكانت هذه الشعلة تدفئه ، وتوقد وتبطن في نفسه الأمل المنشود في النجاح ...

ظل ايفانوفسكي ثلاثة أيام ، وهو يقضي وقته بلا هدف في مقر الاركان بعد الخروج من مؤخرات الألمان ، يراوده اكثر من أي شيء آخر ، الخوف من أن تقع عليه عين هذا الجنرال بالذات.

الجنرال العجوز رئيس الاركان القوي السلطان .
وليس ايفانوفسكي وحده ، بل كان الكثيرون في تلك القرية الخشبية الصغيرة ، حيث كانت هيئة الاركان ، يمرون في تخوف غير قليل ، ببيته الخشبي باطارات نوافذه المنقوشة . كان الجنرال صارماً لايرأف ازاء جميع مرؤوسيه ، وطبيعي أن الجميع هنا ، ما عدا القائد ، كانوا تحت رئاسته . وكان الله وحده يعرف على اي شيء يمكنه أن يتشدد ، فقد كان الجنرال لا يطيق العاطلين والمتهاونين بالقيافة واللباس وعملية التمويه ، واولئك الذين كانوا لاينفذون أو ينقلون أوامرهم بسرعة ، كما كان يحب . وما اكثر الأشياء التي يتشددبها صاحب السلطة الصارم في الجيش نحو مرؤوسيه ! وذات مرة صادف أن شاهد ايفانوفسكي كيف كان الجنرال يؤنب عقيداً على عدم وجود معلومات في قطاع الجناح الايسر ، وكيف وبخ هذا العقيد ، بعد ذلك ، آمر سرية الاستطلاع ، وجماعتين من رجال الاستطلاع لم يعودوا من خط الجبهة ، رغم انقضاء جميع مواعيد عودتهم .
كان ايفانوفسكي هناك رجلا طارئاً غريباً . وخلال مدة خدمته غير الطويلة جداً في الجيش لم يصادف ان كان في موقع أعلى من هيئة اركان فرقة ، فكان حينذاك يراقب باهتمام الحياة الهادئة بشكل عام ، والوادعة الى حد ما ،

تلك التي كانت تعيشها مؤسسة المؤخرة هذه . وعلى كل حال حصل انذار مفاجيء في القرية مرة أو مرتين ، فقد ظهرت طائرات «يونكرس» الا ان القنابل التي القتها لم توقع ضرراً كبيراً ، لم تحطم غير سقيفة فارغة ، الى جانب قتل حصان ركوب مسرج في الشارع . وفي بقية الأيام كان كل شيء هناك يسير بسلام وهدوء ، الا حين يبدأ رئيس الاركان ، أحياناً ، بتفقد الأقسام ، وعند ذاك كان جميع هؤلاء العقداء والنقباء وكتبتهم المثابرون يصيرون في حالة من الفزع القصير الأجل والبلبلة ، الا أن الجنرال بعد أن يوقع عقوبة او عقوبتين ، ويوبخ هذا او ذاك ، ويصيح بهذا أو ذاك ، ينصرف سريعاً ، ويعود كل شيء الى طبيعته في مقر الاركان .
جاء الملازم الى هنا ، بعد اختراقه لخط الجبهة ، بصحبة مستطلعين سالمين ، لأنه رأى من واجبه بعد مقتل النقيب فولوخ أن يبلغ بكل ما حصل خلال اسبوع تطوافهم في مؤخرات الالمان . ولكن الرؤساء في مقر الاركان المشغولين بمشاغلهم لم يولوه اهتماماً خاصاً ، فكدره ذلك . فقد كان طرياً في وعيه تماماً ، الألم على الخسائر الكثيرة ، وموت فولوخ ، وكل محنهم الشديدة في مؤخرة الألمان ، حتى لا يكون قادراً على القبول بهذا التراخي من جانب الرئاسة الغارقة في أوراقها . دخل في كوخ شعبة

الاستطلاع على عقيد شاب أشقر الشعر ، وأخذ يعرض عليه رأساً جوهر الأمر ، ولكن هذا نظر اليه ساهياً ولوقت طويل ، والظاهر أنه كان يفكر ايضاً في مسألة أخرى . وبعد ذلك قطع العقيد حديث الملازم بلا كلفة ، وأمر بان يبسط كل ذلك كتابة . وسأل سؤالا عابراً هل اجتاز الملازم التدقيق الاختصاصي في دولتسيفو ، حيث كانت توجد نقطة مختارة من الجيش لغربلة الخارجين من مؤخرة الحصار الالماني .

تكدر ايفانوفسكي ، وقال للعقيد الأشقر الشعر أن دولتسيفو لا تفلت منه، ولكن المستودع الالماني يمكن أن يفلت منه ، وعند ذلك ستضيع كل الجهود والتضحيات بما في ذلك مقتل الاستطلاعي الرائع النقيب فولوخ .

– كيف ستضيع ؟ – وبدا وكان ذلك قد أثار دهشة العقيد لأول مرة ، فانتزع القلم من الورقة التي كان يجتهد ليخط عليها جدولا معقداً له أبواب كثيرة .

فقال الملازم :

– ببساطة جداً . هلكوا بدون فائدة ، عبثاً تماماً .

– هكذا ! – قال العقيد ، ونهض ، وسحب قميصه العسكري ، نافخاً تحته صدراً عضلياً مرصوصاً بشكل يحسد عليه – قلت من أية فرقة أنت ؟

ذكر ايفانوفسكي الفرقة والفوج . وغضن العقيد وجهه .

– من أي جيش هذه ؟ ليس حتى من جهتنا . لايجوز بهذا الشكل . اكتب توضيحاً .

واقتضى على كل حال الانشغال بالتوضيح وقد كتبه خلال يومين متخفياً عن الجنرال المتشدد الذي كان قد وصل في ذلك الوقت من الخط الأمامي ، وكان وعلى عادته ، يشيع النظام في مقر الاركان بعد غيابه القصير . بات ايفانوفسكي موقتاً في مقر شعبة الادارة والتموين، الذي كان كاتبها في العشية قد شرب زمزمية فودكا المانية فتقاسم بأريحية مع الملازم «غير العائد لأحد» سريره في بيت فارغ شبه متهدم . صحيح ان ايفانوفسكي اضطر أن يهب هذا الكاتب الشهم بوصلة ذات مرآة مغنومة الى جانب الزمزمية ، ويتخلى الى الأبد عن القداحة الانيقة براهبها ، ولكنه خلال يومين وضع تقريراً مفصلا بحجم دفترين مدرسيين . ومن المحتمل أنه كان سيكتبه اسرع ، لو لم يضطر في ظهيرة اليوم التالي الى الانقطاع عن العمل لزيارة اضطرارية الى الشعبة الخاصة لهذا القسم . ولكن كل شيء جرى على مايرام .

وعندما قدم توضيحه كان العقيد الأشقر متعكر المزاج على ما يبدو . نقل الدفاتر ملقياً اياها بحركة عريضة دقيقة ودون أن ينظر فيها .

على طاولة مجاورة كان يجلس وراءها رائد كثيف الحاجبين منكباً على أوراق .

– كوفالوف هاك اشتغل ، لا وقت عندي .

ولكن كوفالوف ، لسبب ما ، لم يستطع ايضاً مطالعتها رأساً ، ولم يبق امام الملازم غير الانصراف ، والانتظار في مسكنه المتداعي . رفع يده الى سدارته استئذاناً بالانصراف ، فاذا بباب الغرفة يفتح على مصراعيه ، ويظهر على العتبة حانياً رأسه تحت العضادة نفس الرجل الذي كان الملازم يخاف الالتقاء به ، اكثر من أي شيء آخر . نط الامراء من وراء مكاتبهم ، أما ايفانوفسكي فقد استدار بكل جسمه ، ووقف جامداً وقد رفع يده الى سدارته بالتحية العسكرية .

ولعل مظهره غير المهندم وغير المعتاد هنا– فقد كان ايفانوفسكي في سترة الكاتب ، خالية من علامات الرتبة ، وسدارة متسخة من الجوخ ، بينما كان جميع امراء المقر في قبعات جيدة من فراء الغنم – بدا غير مألوف فجذب اليه نظرة الجنرال الحادة .

فسأل الجنرال بلهجة غير مبشرة بخير مخاطباً العقيد :

– من هذا ؟

رد الملازم بجسارة مفتعلة ، وبصوت اهتز على الفور :

– الملازم ايفانوفسكي آمر حضيرة الفوج الفلاني من الفرقة رقم كذا .

– أية ، اية فرقة ؟

كرر ايفانوفسكي رقم فرقته بثقة .

– لا أعرفها . ماذا تفعل هنا ؟

– انه من الحصار .

قال العقيد ، وهو واقف أمام الجنرال ، مظهراً بكل قيافته المهيبة احتراماً مشدداً مع مسحة خفيفة من الطلاقة العفوية . وجمد ايفانوفسكي بهيئة استعداد حجرية ، اذ كان يتحدث لأول مرة مع رئيس عالي الرتبة .

– محاصر ؟ ولماذا هنا ؟ لماذا ليس في دولتسيفو ؟

وتأذى الملازم ثانية من ذكر دولتسيفو الممقوتة ، ولكن هذا الشعور بالأذى ساعده في ذات الوقت على التحرر من حراجته الجامدة .

– أنا هنا بخصوص قاعدة العتاد الألمانية ، أيها الرفيق الجنرال .

– مسألة جديدة – قال الجنرال دون أن يتقدم من الطاولة ، مديرا جذعه الى الملازم نصف استدارة . ونظرة عينيه المدققتين لا تبارح قوام ايفانوفسكي المنتصب في هيئة استعداد – اية قاعدة ؟ اين ؟ من اين تعرف بها ؟ هل دققت ، يا عقيد ؟

– سأدقق ، ايها الرفيق الجنرال – قال العقيد بلهجة مختلفة تماماً عن تلك التي كان يتحدث بها قبل هذا الحين . ان لهجته هذه ، لهجة انسان لايطابق كلامه تماماً ما في الواقع ، اجبرت الملازم على جسارة جديدة نحوه . فقال بنفس واحد :

– العقيد لا يريد أن يدقق ، أيها الرفيق الجنرال .

القى الجنرال نظرة حادة متسائلة نحو الملازم ، ثم نحو العقيد . فأضاف الملازم وهو يشعر بأن الأمر سيحسم الآن وقطعاً :

– قاعدة الجيش المدفعية عن بعد ستين كيلومتراً من هنا . عدة قطارات من العتاد عليها الحد الادنى من الحراسة وحولها سياج من الاسلاك الشائكة ذو صف واحد . ويمكن تفجيرها .

– هكذا ، اذن؟ واستطلعتم الأمر بالفعل ؟– قال الجنرال واستدار نحوه بكل جذعه في فروة محلولة ، تلمع من وراء خلف بطانتها ميناء الأوسمة لمعاناً هادئاً . وقد خف صوته ، وقد لاحظ الملازم ذلك بفرح ، فقرر أن يبوح كل شيء مهما يكن من شيء .

– تفجيرها ممكن بسهولة . أو حرقها . وسيظل الألمان المهاجمون لموسكو بلا ذخيرة .

وأسف في الحال على استعجاله الذي أبرد رأساً الاهتمام الذي ابداه الجنرال لتوه نحوه ، حتى ان الجنرال بربر بشيء غير محدد في ياقة فروته ، وقعد على مسطبة قرب المنضدة . أما الآخرون فبقوا واقفين في اماكنهم .

– تقول بسهولة ؟ بوم ، وتبقى القوات الألمانية بلا قذائف ؟ هكذا ؟

– ليس تماماً ، ايها الرفيق الجنرال – حاول ايفانوفسكي أن يصحح استعجاله – لقد حاولنا بالفعل ، ولكن ...

– حاولتم ؟ توفقتم . وماذا كان ؟

– فقدنا رجلين ، أحدهما النقيب فولوخ .

– **هذا هو ، يا ملازم** ... ما اسمك ؟ ايفانوفسكي ؟. لا ينفع دون ترو بالأمر ، يجب استخدام الدماغ . ولكنه شاطر – قال الجنرال مخاطباً العقيد – اذا كان الأمر كذلك فارسله مع مجموعة . اعطه حوالى عشرة اشخاص . اشتغل بذلك . وبدون تأخير .

قال العقيد بهدوء :

– لم يجر التأكد منه بعد ، ايها الرفيق الجنرال .

فحرك الجنرال حاجبيه علامة على عدم الرضى .

– لابأس ! فقد جرى التأكد منه . الألمان تأكدوا منه . وهذا سيكون التدقيق الثاني . ساخبر كليوزين ، – وأدار رأسه نحو الملازم

الذي أخذ محياه يتالق ، وقال رافعاً صوته بتشجيع : – هيىء المجموعة ، يا ملازم بالتعاون معه . وبعد غد أبلغنا عن الاستعداد مفهوم ؟

– حاضر !

ولم ينطق ايفانوفسكي بذلك كلاماً هادئاً ، بل بما يشبه الصراخ في غمرة فرح كالصبيان ، ورفع يده بالتحية العسكرية بشطارة ، واغلق الباب وراءه .

وفي اليوم التالي كان حظه في التوفيق أقل . فان العقيد الذي جاء اليه في الصباح ، وجهه الى رائد يدعى كولوميتس وانتظر الملازم كولوميتس هذا نصف نهار ، وحين حضر اخيراً وسلمه ايعاز العقيد ، قضى عليه هذا بعبارة واحدة :

– ومن اين آتي بالرجال ؟ لم يبق عندي غير حوذي واحد .

احس ايفانوفسكي بأن كل شيء ينهار مرة اخرى ، لم يستوضح اكثر أو يقدم البراهين ، بل توجه بعزم جديد وخطو سريع الى البيت العالي بدرفه البديعة . طبعاً لم يسمحوا له بالدخول ، ودخل في شجار أحمق فاشل مع الحارس الثابت الاعصاب الواقف عند مدخل البيت ، وكاد يصل الى حد اليأس حين فتح البيت فجأة ، وظهر الجنرال نفسه على العتبة . لم يعرف الملازم الذي رآه بالأمس رأساً ، فاضطر الملازم

الى أن يذكر اسمه ، ويبلغه بصوت مرتعش بأن مسالة تكوين المجموعة لم تتم . لمعت عينا الجنرال بغضب ، وكان ايفانوفسكي هو الملوم في هذا الفشل .

– كيف لم تتم ؟

– لا يوجد رجال ، ايها الرفيق الجنرال . أرسل العقيد ...

– استدع زيمنكوف الي !

طلب الجنرال من الواقف وراءه ، فاختفى هذا في الرواق بخفة ، وانصرف الجنرال أيضاً الى هناك دون أن يقول كلمة أخرى . بقي ايفانوفسكي واقفاً على مدخل البيت وحيداً مع الحارس الذي أخذ ينظر اليه بشماتة صامتة . وقد ارتسم على وجهه : «على كل حال لن تمر» . ولكن الملازم لم يعد يحفل باقتحام هذا البيت الرحب . انتظر حوالي عشرين دقيقة طائعاً ، حتى ظهر على المدخل ملازم أول في فروة جديدة، والمسدس متدل عبر كتفه .

– اذهب الى النقيب زيمنكوف ، واحصل على الرجال منه . وغداً في الساعة الواحدة ظهرا تماماً، سينتظر الجنرال تبليغاً بان المجموعة جاهزة .

– حاضر ! – قال ايفانوفسكي . ولم يسأل حتى من هذا النقيب زيمنكوف ، ولا أين يمكن أن يجده . واضطر أن يستفسر عن ذلك من سائقي

الخيول في الشارع . في المساء كانت في يده فعلا قائمة من ثمانية مقاتلين ورئيس رقباء واحد . وصار هو العاشر في هذه القائمة .

وأخذ الملازم يتهيأ .

الى جانب الرجال كان يجب الحصول على عتاد ، وعلى قوارير مواد حارقة ، ومتفجرات ، ومترين من الموصلات . وكان أربعة من الرجال التسعة في معاطف عسكرية مهلهلة ، وبلا صدارات مبطنة ، وكان يجب اعادة تجهيزهم بالملابس العسكرية . امتنع أحد الاشخاص طويلا عن تزويدهم ببدلات التمويه (لم يكن الوصل موقعاً من قبل الرئيس الأقدم) . واقتضى الحصول على الاسكيات قطع خمسة عشر كيلومتراً الى قرية في المؤخرة . وفي الليلة الأخيرة قبيل الخروج غفا ايفانوفسكي ساعتين لا غير ، وأكل مرة واحدة في اليوم ، ووقف طويلا للحصول على ثلاثة أوامر ، ولكن استطاع ، على كل حال ، أن يقود بالمجموعة في الساعة الواحدة والنصف الى البيت العالي ذي الدرف البديعة . وفي هذه المرة سمحوا له بدخول البيت دون اعاقة ، وقد بالتبليغ بفرح واجف عن الاستعداد للقيام بالأمر العسكري .

انهى الجنرال مكالمة تلفونية ، ووضع السماعة . وخرج الى الفناء كما كان في صدار الفرائي فوق القميص العسكري ، وهناك كان

المقاتلون التسعة برئاسة رئيس الرقباء ديوبين في انتظاره ، وقد اصطفوا في هيئة استعداد . سار الجنرال امام هذا الصف صامتاً ، وتفحص الجميع ، ولأول مرة خلال وجود ايفانوفسكي في مقر الاركان لم يجد في وجه الجنرال الكهل المغضن بخديه المرتخيين أي أثر لصرامة الرئيس المفزعة . في هذه المرة لم يكن هناك غير وجه متعب مثقل باعباء كثيرة لرجل تخطى سن الشباب ، لم ينل ما يكفي من النوم .

– اولادي ! – قال الجنرال ومس نفس الملازم شيء مؤثر بشكل غريب – هل تعرفون جميعاً الى أين انتم ذاهبون ؟ هل تعرفون أنكم ستلاقون مصاعب ؟ ولكن عملكم ضروري . ها انتم ترون أن الجو ردیء – وأشار الى السماء الغائمة الواطئة التي كان الثلج يتساقط منها – الطيران متعطل . وكل اعتمادنا عليكم .

وأخذ يتحدث ايضاً مرشداً الى الطريقة التي يجب أن يتصرف بها المقاتل في اللحظة الصعبة ، في المؤخرة ، حيث لايعود أي انسان قادراً على عونه غير رفيقه . غير أنه كان في امكانه الا يفعل ذلك ، فقد كانت للملازم تجربة في العمليات العسكرية في مؤخرة الألمان ، جمعها خلال اسبوعين من الضياع في غابات سمولينسك . ولكن الذي أبهر الملازم هو لهجة الجنرال الودية تقريباً ، وموقفه المتعاطف المبتدي من كلماته

الأولى نحو مصائرهم المجهولة تماماً ، مما جعل الملازم من تلك اللحظة مستعداً الى كل شيء لمجرد أن يبرر هذا التعاطف الانساني . وحتى الموت نفسه لم يبد للملازم في تلك اللحظة مرعباً ، فقد كان مستعداً لأن يجازف بحياته اذا اقتضت ذلك مصلحة الوطن ، أو بأمر الجنرال على ذلك .

ولعل هذا الشعور لم يخامره وحده بل خامر الآخرون أيضاً في هذا الصف القصير المصفوف في الفناء ، اولئك الممتلئون انتباهاً وحزماً . وحين أدى ايفانوفسكي التحية العسكرية ، واستدار بالمجموعة الى باب الخروج ، كانت أصوات الأبواق تتردد في اعماق نفسه بمارش نصر صداح . وكان يعرف أنه سينفذ كل ما أرسل من أجله ، وهذا ما يجب أن يكون ، وما كان من الممكن غيره .

الفصل السادس

ورغم كل حث الملازم لرجاله في الكيلومترات الاخيرة من الطريق ، فان الفجر طلع عليهم ، وهم في حقل خال من الثلج بعد عاصفة الليل الثلجية ، عند مشارف الطريق العامة .

قطع ايفانوفسكي كيلومتراً آخر مستفيداً من ظلام ما قبل الفجر . وصار يقترب بمجازفة

متزايدة من خيط الطريق الذي لايكاد يلحظ على المنحدر ، واذا به يرى سيارات تنحدر عليه من ربوة . وكادت تفلت صيحة يأس من الملازم ، اذ لم يبق غير ما لا يزيد عن خمس عشرة دقيقة ليعبروا الى الجانب الآخر . وللتسرية عن نفسه أخذ يفكر في أن السيارات ستمر قريباً ، وبالفعل سرعان ما اختفت في البعيد ، ولكن طابوراً من العربات المجرورة بالخيول أعقبها ، وبعد ذلك طلعت في اثرها من وراء الأكمة سيارتا ركوب خفيفتان سوداوان واطئتان . وصار واضحاً أن النهار أخذ يحل والحركة تشتد . وكان من المستحيل حتى التفكير في عبور الطريق العامة دون أن يلحظوا ، ومعهم محفتهم المصنوعة كيما اتفق .

عند ذلك انحرف ايفانوفسكي انحرافاً شديداً الى ناحية ، دون أن يقترب من الطريق العامة ، وغير مبتعد عنها في ذات الوقت ، ليصل الى ربوة جرداء غير بعيدة ، عليها اجمة عشب هزيل . وكان الاختفاء هناك متعذراً ، كما تشير كل الدلائل ، ولكن الانتظار في المنخفض على مرأى من الطريق العامة متعذر أيضاً ، فقد شف النور ، وكان من الممكن أن يكتشفهم الالمان في كل لحظة .

صعد المتزحلقون على منحدر الربوة مستنفدين آخر قواهم ، حتى كادوا يسقطون

الجريح من محفته ، وانزلق الملازم الى الأجمة التي اضحت قريبة متعباً مغالباً الألم الذي تعوده. الا أن سدة على قدر كاف من الارتفاع نهضت أمامه في منتصف الطريق اليهما كانت تشطر الربوة شطرين متساويين ، وتنحدر نحو الطريق العامة . توقف الملازم حائراً ، ولكنه سرعان ما فهم كل شيء ، وأشار فرحاً الى رفاقه الذين كانوا يتسلقون وراءه ببطء ، يحثهم على الاسراع !

وتبين أنها خندق مضاد للدبابات كاد الثلج يخفيه ، وهو أحد تلك الأعمال الميدانية بكيلومتراتها العديدة التي كانت تشق الأرض الروسية في مختلف الاتجاهات في بداية الحرب. وكم من الجهود بذلت لاقامتها ، ولكن الملازم لم يستطع أن يتذكر مرة اوقف فيه خندق من هذه الخنادق زحف جيوش دبابات هتلر بقدر ما . ولعل هذه الأعمال ، الجبارة لم تبرر نفسها ، الا لكونها تغطيات مأمونة من نار المشاة والمدفعية ، وعلى العكس من ذلك لم تكن مناعتها ضد الدبابات تفوق أبداً مناعة ساقية اعتيادية الى جانب الطريق .

ولكن الشق كان الآن مناسبا لهم تماماً في هذه الربوة المكشوفة ، ونزل الملازم دون تأخير الى قاعه العريض المغطى بكثيب من الثلج . وكان القاع عميقاً جداً ، واهداً . وقد

كومت الريح من أحد الجانبين حاجباً بديع الشكل كان يكون متراساً من فوق . ولعل من الممكن أن يلبدوا بعضاً من الوقت هنا .

سقطوا في هذا المتراس واحداً وراء الآخر، فوقعوا على ثنيات كثبان الثلج الناعمة . وسقط الملازم ايضاً ، شاقاً بعجيزته الثلج الذي كبسته العاصفة الثلجية ، ونظر زائغ البصر لوقت طويل، لاهب الانفاس ، الى ضباب ثلجي أثره على المتراس المقابل . كان لا يعرف كيف يتصرف بعد ذلك ، وفي أي موضع سيجتاز الطريق المشؤومة وكيف سيجتازها ، ولا يتصور ماذا سيفعل مع الجريح . كان يشعر فقط بأنه منذ الليلة البارحة لم يسر كل شيء كما كان يتصوره في ذهنه ، وأن كل شيء سار أسوأ ، وقد ينتهي نهاية سيئة تماماً . ولكنه لم يكن في امكانه ان يقبل بأن ينتهي كل شيء بفشل ، بعد هذا القدر من الجهود ، وكان يشعر بأن عليه أن يقاوم الظروف حتى آخر امكانية لديه كما لو كان يقاوم الالمان انفسهم . فان لم تخنه قواه فان له ما يكفي من العزيمة .

انبطحوا في الخندق زهاء عشرين دقيقة دون أن ينطقوا بأية كلمة ، لم يجد الملازم في نفسه الطاقة على البدء بالكلام ، وتعيين مراقب . كان يؤكد في سره فقط يجب تعيين شخص الآن .

كانوا منهكين الى اقصى حد ، ومع ذلك فقد كان يجب التضحية براحة شخص ، وجعله يخرج الى فوق ، الى الريح والصقيع ، حتى لايدع العدو يباغت الآخرين .

– نحتاج الى مراقب – قال ايفانوفسكي أخيراً بصوت ناعس ، وقطع صمت المقاتلين الأخرس – سودنيك ، انت .

أسقط سودنيك ظهره على الجدار الثلجي ، وأمسك بركبتيه حقيبة متاعه المبطنة بالنشارة ، وفيها حمولتها الحساسة . كان يبدو كالنائم . فقد كان رأسه بقلنسوته المبللة ملقى الى الخلف ، وعيناه مغمضتين . ناداه الملازم بصوت اعلى :

– سودنيك !

– الآن ، الآن ...

تماهل هذا المقاتل لحظات أخرى ، ورفع جذعه بحركة قوية ، وجلس اكثر استقامة .

ثم استند على يديه ، ونهض ، مترنحاً بشدة ، وكاد يسقط من جديد .

– على مهلك ! القوارير !

قال الملازم فزعاً ، وانتزعه هذا الفزع من حالة الانهاك المذهل للغاية .

ترك سودنيك اسكيه في الأسفل ، وتسلق المتراس العالي الشديد الانحدار على بعد قليل

من المقاتلين ، وانطرح وراءه مثل لصقة بيضاء على الثلج الناصع .

سأل ايفانوفسكي :

– كيف هناك ؟ حركة سير ؟

– حركة سير . ولا نهاية لها .

وسيظلون يتحركون بالطبع ، ولاينتظرون حتى يعبر الى الجانب الآخر بسلام ، ويحطم قاعدتهم . فان لهم أهدافهم الخاصة ، ومهماتهم الخاصة ، المضادة تماماً لمهمته ، ففكر : لطيف أيضاً أنه لا يوجد في القرب منطقة التمركز لهم ، وحدات للمؤخرة ، والا لما كان أن يظل قابعاً في مكمنه هذا .

ولعل نصف ساعة قد انقضى . شعر ايفانوفسكي بالبرد الشديد ، فقد أخذ الصقيع ينفذ الى جسمه الذي ألهبه السير . كان الجميع ، ما عدا سودنيك على المتراس ، يرقدون جامدين اعياء ، ففكر ايفانوفسكي بأن من السهولة أن يتجمدوا وهم على هذه الحال ، فهتف :

– لاتناموا ! هيا ، اقعدوا جميعاً !

تململ شخص ، قعد لوكاشوف ، وأجال بصراً كدراً من التعب في المخبأ الثلجي . لم يتحرك بيفوفاروف من المكان المريح له في الثلج . كان نائماً . وفكر الملازم وعزم على أن الأمر يقتضي ، كما هو واضح ، أن تتاح للجماعة بعض الدقائق

لغفوة ، والا فلا يمكن تحريكها من مكانها . لا يظنهم سيتجمدون خلال ثلاثين او اربعين دقيقة . والحق أنه هو نفسه لم يكن له الحق في أن يغفو أيضاً .

طرد ايفانوفسكي عن نفسه غفوة قاهرة بجهد غير قليل ، وبوعي قوي بخطر قريب ، ورفع جذعه ، ونهض . كان حكيموف يقلقه منذ زمن ، ولكن الآن فقط سنحت الفرصة له لأن يتفحصه ، فتقدم من الجريح مترنحاً . وكان هذا في حالة سيئة ، مثلما كان الملازم يتوجس . ولعله لم يعد الى وعيه بعد ، فقد كان يرقد على المحفة بلا حراك ملفوفاً لفاً شديداً بالمشمع المبقع بالثلج ، ومن فتحة المشمع كان يلوح وجهه الشاحب المظلل بزرقة . وكانت قطرات الجمد الكثيفة قد علقت بطرف المشمع من أنفاسه الصعبة المتلاحقة ، وقطع الثلج التي كانت تنزل منها تذوب على خديه في الحال . فقد كان الجريح مصاباً بحمى . انحنى الملازم على المقاتل وناداه بصوت خافض . ولكن هذا لم يبد اية استجابة ، ومضى يتنفس بتلاحق وجهد .

جلس ايفانوفسكي مطلا على الجريح ، وصار يتشكك في صحة قراره الذي عرض حكيموف لهذا الطريق الكثير المصاعب . فلربما كان من الأفضل ، بالفعل ، أن يبقيه في كومة قش

انتظاراً لعودة المجموعة . ولكن حينذاك كان يتعين أن يبقى مقاتلا آخر مع الجريح ، ولم يكن في وسع الملازم أن يوافق على ذلك . لأن المجموعة ، بغير ذلك ، لم يبق منها غير خمسة . وأمام هذه المجموعة كانت تتعقد مهمتها القتالية الرئيسية التي جاءت من أجلها الى هنا ، ولو متأخرة . وكان تحقيق هذه المهمة يقتضي ، قبل كل شيء ، عبور الطريق العامة ، ولكن الملازم لم يكن قادراً على أن يتصور كيف سيقوم بهذه المهمة ، وهو عند طريق مكتظ بالألمان .

الآن لم تعد تغيب عن ذهنه هذه الطريق العامة . فنهض بسرعة . لم يكن في مقدوره أن يساعد حكيموف ، بينما لم يكن في وسعه أن يغفل عن المهمة لحظة واحدة . غرس اسكيه في كومة ثلج ، زحف على المتراس نحو سودنيك وهو يطأ الثلج مترنحاً . احس بالريح وببرد اشد مما في قاع الخندق ، ولكن انداح امامه منظر واسع على الحقل بكلا طرفي الطريق العامة التي كانت قمة التل تغطي وسطها . وكان الخندق يتوغل الى هناك . وعلى الجانب الآخر من الطريق العامة كانت مجاميع الأشجار والاجمات تنتشر واسعة مقتربة من الطريق ببعض الا ماكن ، وفي المدى البعيد ، وفي ناحية ليست بالبعيدة عن الغمر النهري كانت تلوح مسودة غابة الصنوبر المعروفة التي استقبلتهم بجفاء ذات مرة .

اخرج الملازم الخارطة من طية قميصه ، وراح يعين الاتجاه لم تكن القاعدة معلمة على الخارطة عن قصد ، ولكن الملازم كان ، من غير ذلك ، يتذكر موقعها بشكل جيد ، على الطرف الشمالي لحرش صغير مطل على النهر . وعرف الملازم الآن ، وهو يجد تلك الربوة على الخارطة ، أن ما يفصلهم عن القاعدة هو كيلومتران لا اكثر . وأحس بالكدر المؤلم مرة أخرى من كونها بهذا القرب ، ومع ذلك يعز الوصول اليها . فبسبب هذه الطريق اللعينة كان يقتضي تضييع يوم كامل . يوم كامل من العذاب في المجهول وتحمل البرد الشديد .

أخذ ايفانوفسكي يراقب الطريق العامة مع سودنيك ، فلاحظ خلال ذلك انقطاعات صغيرة في الحركة في غضون فترات قصيرة من الوقت . كانت الشاحنات في الاساس هي التي تسير على الطريق العامة – سيارات من مختلف الماركات ذات احواض مغطاة أو مكشوفة ، والظاهر انها جمعت من كل اقطار أوربا . وغالبيتها كانت تنطلق نحو الشرق ، نحو موسكو . وفكر الملازم فجأة أن الأمر ليستحق المجازفة بواحد أو اثنين ، في أغلب الظن لا بالجميع ، ولا مع الجريح ، وعبور الطريق العامة الى جانبها الآخر بالاستفادة من الخندق . فهو ، أي الملازم يستطيع ، على أقل تقدير أن يتفقد الكثير خلال يوم واحد ،

ويضع خطة للعمليات ، وعند حلول الليل يقود المجموعة كلها عبر الطريق العامة .

مدته هذه الفكرة بالحيوية فجأة ، وأثار الهدف الجديد قوى اضافية للعمل . انزلق عن المتراس ، وصاح بالمقاتلين بصوت غير عال ، ولكنه نشيط :

– نهوض ! القفز في البقعة جميعاً والتدفؤ ! هيا !

نهض كراسنوكوتسكي ولوكاشوف حالا اخذا يضربان نفسيهما بقفازتهما ويلوحان باذرعهما . جذب لوكاشوف بيفوفاروف من كمه ليوقظه من نومه السادر .

– تدفأوا ، تدفأوا ! اقوى ! – كان الملازم يلح ، ويفكر في ذات الوقت بأحسن ايعاز للنهوض بهم – هيا الى الفطور ! اخرج المعلبات، يا لوكاشوف ! بقسماطتان لكل واحد .

اخرج لوكاشوف من الحقيبة بعض بقسماط الجودار وعلبة سمك معلب ، وهو يتمايل ناعساً. شق الملازم سطح العلبة القصديري بسكينه ، فأخذ المقاتلون يكشطون محتواها المتجمد بالسكاكين والملاعق .

سأل الملازم متغلباً على البرد بشكل مصطنع :

– هل نلت غفوة ، يا بيفوفاروف ؟

- غفوت قليلا .
- اراك وهنت . ها ؟
أجاب هذا المقاتل ببساطة :
- أنهكت ، أيها الرفيق الملازم .
- كنت أظنك قوي الجسم - قال ايفانوفسكي بمزاح خفيف - وها أنت ...
- انحكت قدماي .

لم يدافع عن نفسه ، ولم يتوجع ، وكان مظهره ، بعد الراحة القصيرة مرتبكاً ومضطربا . وخداه الاسمران يتوهجان من النوم بمايشبه التورد الطفولي .

فقلده لوكاشوف بلهجة ادانة :
- انحكت قدماي ! لا أظنك عند مرضعة . المتاخر أسوأ من القتيل .
- لاتقارنه بالقتيل . القتيل لا يتطلب جهداً . خذ هذه الفقاقيع في يدى ، من الحبل - وعرض كراسنوكوتسكي راحتي يديه الحمراوين المتورمتين - طبيعي أنه تأذى من الليلة الفائتة ، ولكن من لم يتأذ ؟ وما يزال غير معروف ماذا سيحصل للجميع في المستقبل القريب .

ومضى لوكاشوف يقول بصوته المنفعل السابق :
- أما الآخران فذكيان . اما أنهما اختفيا ، أو تاها . وعليك أن تتحمل تبعتهما .

وكان يقصد ديوبين وزايتس اللذين لم يغيبا عن بال الملازم لحظة واحدة . لقد كان كل شيء واضحاً بالنسبة للذي قتل ، والأمر مع حكيموف كان صعباً جداً ، ولكنه مفهوم أكثر . اما رئيس الرقباء وزايتس فقد اختفيا في الطريق الليلي ، وكأن الأرض غاصت بهما ، اختفيا بهدوء وبلا أثر وبشكل غامض .

- لطيف لو كان مجرد ، ولكن يبدو - كان لوكاشوف يقول ، وهو ينظر بمحاذاة الخندق بحدة وغم ، وادرك الملازم ما كان يقصده الرقيب. ولكن ما كان يقصده غير ممكن . أو بالاحرى أن ايفانوفسكي لم يرد أن يتسامح حتى بالتلميح بأن رئيس الرقباء ديوبين يمكن ان يرتكب خيانة . ومع ذلك فقد كان هو الآخر ممتلئاً بالظنون والشكوك ، اذ مهما اطال التفكير لم يكن قادراً أن يفهم أين اختفى هذان المقاتلان من مجموعته الصغيرة اصلا .

وقال كراسنوكوتسكي ببساطة نفس :
- وقد يجعلان الألمان يقتفون آثارنا . وببساطة . فآثار الاسكيات على الثلج ، فطارد حتى تجد .

وافقه لوكاشوف بحزن :
- كل شيء ممكن .
فتدخل ايفانوفسكي قائلا .

– لا يجوز الكلام بهذا الشكل . ليس رئيس الرقباء بذلك الشخص .

نظر لوكاشوف متعباً الى طرف الخندق البعيد ، وهو يلوك بقسماطة .

– ربما ليس بذلك الشخص . ولكن يمكن أن يحدث كل شيء . كان عندنا في وحدتنا نقيب مستقيم ، أقام الدفاع كله . ولكن تبين أنه لم يقمه في الجهة المطلوبة . وظهر الألمان ، فكان أول من رفع يديه .

قاطعه ايفانوفسكي بحزم :

– دعك من هذا . ديوبين ليس نقيباً ، هو مؤكد . ثم يجب أن تثق بالناس اكثر ، يا لوكاشوف . اما هم فيثقون بك .

– يعني أنا ...

– لماذا تظن ديوبين أسوأ منك ؟

– أنا هنا ، وهو غير معروف أين .

بالفعل كان منطق كلامه قاتلا تقريباً ، وكان من الصعب الاعتراض عليه . فهو في واقع الأمر لم يتأخر ، وان كان الأخير في الصف ، كما انه لم يدع بيفوفاروف يتأخر ، وها هو بيفوفاروف يجلس الى جانبه يلعق ملعقته بسرعة . وعلى العموم كان لوكاشوف على حق ، الا أن ايفانوفسكي لم يرد أن يحكم على ديوبين قبل الاوان . فقد كان في رئيس الرقباء شيء يوجب

الثقة على كل حال ، رغم عناده الذي كان يزعج الملازم .

أتوا على المعلبات بعد قليل ، وهم جلوس على كومة الثلج ، وقضموا بقسماطهم الى الآخر ايضاً ، وأخفى ايفانوفسكى الملعقة في جيبه ، وقال بلهجة أخرى :

– يا رقيب لوكاشوف نب عني . يجب أن اقوم باستطلاع . الجميع يبقون هنا . ويمكن أن يستريحوا . ساراقب في المنطقة المحيطة . وسأعود قريباً . هل هناك شيء غير واضح ؟

اجاب لوكاشوف باستعداد :

– واضح ؟

– ليكن كل شيء في وضعه الطبيعى . اهتموا بحكيموف .

– سينفذ كل شيء ، يا ملازم . سنراقب .

– حسنا ، يا بيفوفاروف ، ورائي !

– أنا ؟ – قال بيفوفاروف مندهشاً ، ولكنه بعد تريث شرع ينهض .

– خذ الاسكي ، والبقية ، لنذهب . حل محل سودنيك ، يا لوكاشوف . أظنه أخذ يتجمد هناك .

وسار ايفانوفسكي في الخندق نحو الطريق العامة ، غائصاً في الثلج العميق الى الخصر احياناً . كانا يحملان الاسكيات بأيديهما . كان

الخندق يسير بالتواءات غير كبيرة من حين لآخر ، فكان الملازم حين يخرج منها يعاين في الجانبين بحذر ، ولكن لا أحد في الخندق ولا على مقربة منه ، على ما يبدو . فقد كانت تموجات الثلج المضلعة في القاع سليمة لم تمس بشيء . وأخيراً صار مسموعاً هدير الديزلات الأصم ، وفاحت رائحة دخان البنزين الاصطناعي الذي لا يكاد يلحظ في الصقيع . لقد اقتربا من الطريق . أطل ايفانوفسكي من وراء نتوء طيني أجرد عند منعطف ، واذا به يرتد الى الوراء بحدة ، في طرف شق عريض في الخندق ، على مسافة قريبة تماماً ، لمح حوض سيارة مغطى بمشمع منتفخ بالريح ، ثم آخر ، وآخر . كان ذلك رتلا من السيارات يتحرك ، وقد لاحت في بعض السيارات المكشوفة قرب القمرات شخوص الألمان الجهماء في معاطف خضراء . وكان يبدو من كل الدلائل أن الصقيع الروسي قد أثر فيهم كثيراً ، فكان الجالسون لا يراقبون الجانبين باكتراث كبير . أومأ الملازم بحركة من يده لبيفوفاروف الجامد من التوتر ، وصعد على المنحدر عند حافة كثيب الثلج .

كان بالطبع بعيداً عن الأمل في نجاح سريع، وفي لحظة مناسبة للعبور ، ومع ذلك لم يكن يتوقع طالعاً أسود عنيداً كهذا . وماكاد ينتظر، وهو متجمد في الريح المتثلجة ، حتى انقطع

مرور السيارات الهادرة على الطريق العامة ، وبدا له أن المنطقة المجاورة له خلت من كل شيء . ولكن ماكاد يطلع برأسه من وراء كتل المتراس المتجمدة حتى رأى الالمان من جديد على مسافة غير بعيدة عنه . كانوا ثلاثة من رجال الاتصال ، وحين تسلق أحدهم عموداً ، وراح يشتغل بالأسلاك كان الآخران يجلسان مع أجهزتهما على جانب الطريق يصلحان الاتصال ، كما يبدو . وكانت ماسورتا بندقيتين تبرزان من وراء ظهريهما ، وعلى الأرض لفات الاسلاك وبعض الادوات . حقاً أن الالمان لم يكونوا يتلفتون لانهما كهم بعملهم، ولكنهم كان سيلحظون الروسيين ، بالتأكيد ، لو أن هذين اقدما على عبور الطريق العامة قربهم .

يعني كان يجب الانتظار مرة أخرى .

ورقد الملازم بجزع على الكتل المتجمدة المذرورة بالثلج ، دون ان يصرف بصره عن الطريق العامة . وشعر ببرد لعين ، وتثلجت قدماه ، وكان وركه الجريح يوجعه اكثر فأكثر وكان هذا الألم يذكر بنفسه اكثر فأكثر ، كانت الحركة على الطريق العامة تستأنف تارة باكثر ما يكون من الكثافة ، وتهدأ بعض الشيء تارة اخرى ، فيكون هناك انقطاع لحوالي كيلومتر ، ولربما اكثر . ولمرتين أو نحوهما ظهرت لحظة مناسبة الى هذا الحد أو ذاك للعبور الى الجانب

الآخر ، ولكن الالمان ظلوا منشغلين في اصلاح خط الاتصال . ولثلاث مرات تناول الملازم ساعة الدبابات بمكعبها الثقيل حيث كانت تشير في المرة الأخيرة الى الساعة العاشرة والنصف . لم ينصرف رجال الاتصال . ومضى نصف ساعة قبل أن ينزل الى الأرض الرجل الذي تسلق العمود وفكر الملازم بأن من المحتمل أن يرحلوا الآن... ولكن الألماني تحول الى العمود التالي ، شبك قدميه بالخطاف ، وتسلق من جديد ، الى الاسلاك . وأخذ الآخران يتحدثان عن شيء ما ، ولكن الريح دفعت بكلماتهما ناحية ، فلم يسمع الملازم شيئاً .

واستمر الأمر على هذا النحو وقتاً لا حد له . وأخذ ايفانوفسكي ينظر على الجانبين ، باحثاً عن مكان اكثر ملائمة بعيداً عن رجال الاتصال هؤلاء ، واذا به يرى ألمانياً آخر يظهر قرب الالمانيين . ولم يكن مفهوماً كلياً من أين طلع ، ولعله كان جالساً في مكان ما على الطريق محجوباً بتل . شعر الملازم بقشعريرة خفيفة . فلو أنه جازف بعبور الطريق العامة لأصطدم لامحالة بهذا الالماني الرابع غير المرئي . وخلال ذلك جلس الألماني الى جهاز ، وصار يتكلم مع الآخرين ، ويهز ذراعه الى المتسلق على العمود ، فأخذ هذا ينزل . وبينما كان ينزل نهض الالمان

الثلاثة ، وجمعوا حقائبهم وصناديقهم دون استعجال ، وساروا بمحاذاة الطريق .

في هذه المرة صاروا على مسافة كبيرة من الخندق ، ولم يتسلق أحد منهم عموداً ، فنظر الملازم في الطرف المقابل للطريق العامة ، الآن يجب أن يحزم أمره على ما يبدو . ولكن قبل هذا كان يجب أن يقترب من الطريق اكثر .

انزلق من المنحدر الى قاع الخندق ، مؤذياً وركه الجريح بشدة . وثب بيفوفاروف من مكانه في الثلج . هز ايفانوفسكي رأسه صامتاً ، وانضغط الاثنان على الجانب الشديد الانحدار من الخندق ، وسارا بسرعة في قاعه . وكان من السهل هنا اكتشافهم من الطريق ، فسقط الملازم بسرعة على تلة ثلج عرضانية ، وانضغط في الثلج ، وانغرز بيفوفاروف الى جانبه بخفة . وجمد وجهه الصبوي المنتفخ من البرد والسهر ، ومن حين لآخر كان الملازم يلتقط نظرته الهلعة المتسائلة . كان هذا المقاتل في وجوده في قاع الخندق لايرى أي شيء اطلاقاً . فكان يعتمد في كل شيء على الملازم الذي كان الآن يتخذ قرارات تعني الشيء الكثير لكليهما .

ولكن الملازم نفسه لم يكن يرى أي شيء من موضعه ، فكان يضطر الى الاعتماد على السمع ، ملتقطا بارهاف كل الاصوات المتشتتة المتقلبة الآتية نحوهما من الطريق . ولم تكن هذه ،

بالطبع ، الوسيلة المثلى من كل الوسائل الممكنة للعبور ، ولكن لم يبق لديهم وسيلة أخرى . انتظر ايفانوفسكي حتى خفت هدير الديزلات المدمدم في الطريق العامة ، ولم يلتقط اية اصوات جديدة على مقربة ، فقال لنفسه : «هيا !» وقفز .

وببضع قفزات على الثلج العميق وصل نهاية الخندق عند حافة الطريق ، ونظر من خلالها ، كانت الطريق العامة ، خالية بالفعل على مقربة منه ، ولو أنه لم يلحق أن يلقي نظرة على التلة البعيدة ، وطلع بعدو جنوني الى منبسط الطريق العامة المدكوك حانياً قامته ، وقفز قفزة عريضة الى تلة ثلج في قاع القطاع التالي من الخندق . وخلال جريه تحسس برضى أنفاس بيفوفاروف ، وجرى في القاع الى عطفة غير بعيدة بكل قوته . الا أنه ، بعد بضع قفزات ، أخذ من جديد يلتقط ولولة محركات مجهدة ، فانكمش داخله بقلق ، منتظراً صيحات أو طلقات ، ربما . ولكنه استطاع ، على كل حال ، أن يختفي وراء العطفة. تاخر بيفوفاروف قليلا ، ولكن الملازم حين التفت رأى السيارات قد ظهرت بعد لحظة من وقوع هذا المقاتل وراء العطفة . انطلقت السيارات دون أن تقلل من سرعتها ، ولأول مرة خلال هذا الصباح اطلق الملازم الصعداء زفيراً مراً يمزق صدره .

– فوه ! اللعنة ! ..

وللحظة صار الاثنان يتنفسان انفاساً متلاحقة صعبة ، ثم ركع ايفانوفسكي على ركبتيه ، ونظر في الجانبين . يبدو أن هناك أجمة غير بعيدة ، كانت أعالي شجيراتها الخفيفة تطل في بعض الاماكن من وراء المتراس العالي ، فسار الملازم والمقاتل في قاع الخندق بتراخ . حاولا الخروج الى الحقل مبتعدين عن الطريق العامة واحداً وراء الآخر . ودهش الآمر من فلاح بيفوفاروف في ذلك بسرعة ، وفي المحاولة الأولى لم يقطع الملازم غير نصف التل ، فتزلق على المنحدر وانحدر منزلقا على كومة الثلج . ومرة آخرى شعر بالألم الشديد في وركه . في هذه المرة لم يستطع ، أو لم يرد أن يكبت الانين نفسه ، والتفت بيفوفاروف على المتراس، والقى نحوه نظرة مذعورة متسائلة .

– لا بأس . كل شيء على مايرام .

واستجمع ايفانوفسكي قواه ، وقهر الالم ، فمد المقاتل له عصا الاسكي التي استطاع هذا بواسطتها أن يجتاز المتراس .

– طيب ، والآن لنتزحلق !

الآن ربما من الممكن السير على طول الخندق ، يحميهما المتراس من جهة الطريق ، وتغطيهم الأجمة في بعض الاماكن تغطية لا بأس بها .

والى اليمين كانت أعالي حرش اشجار الصنوبر تبدو رمادية على مبعدة ، حيث كان في انتظارهما نصيبهما نجاحا كان أو مصيبة مجداً أو ربما موتاً .

الفصل السابع

شعر ايفانوفسكي ، وهو يشق طريقه على الاسكي خلال الأجمة ، بنوبة قلق غير مريح متزايد ابداً ، وقاهر تقريباً .

وكان غير واضح تماماً لماذا أطل القلق في هذه اللحظة بهذا الالحاح ، فان كل شيء ، في آخر المطاف يبدو في طريقه الى النجاح بهذا القدر أو ذاك . فقد عبرا الطريق العامة ، دون أن يلحظهما أحد ، على ما يبدو ، وكانت قريبة تماماً غاية طريقهم الليلي الصعب الطويل . والنهاية كانت تقترب ، وان كانت العقبات تكتنفها ومن المحتمل أنهم قادرون الآن على القيام بشيء . صحيح أن قواهم قد تبددت ، فقدوا بعضهم في عبور خط الجبهة ، اختفى اثنان منهم في الليل . وثلاثة بقوا في ذلك الجانب من الطريق العامة ، واثنان منهم فقط وجدا انفسهما هنا . واثنان ليسا عشرة ، بالطبع . ولكن من المستبعد ان يكون ذلك سبب قلقه الغامض اللجوج الآن .

وكلما اقتربا من الحرش الذي كان يلوح في البعيد ، ازدادت وطأة الضيق في ايفانوفسكي . وتملكه نفاد الصبر بشدة ، حتى أنه لم يستطع ان يبيح لنفسه التوقف لتعديل الضمادة على وركه . الظاهر أن الجرح بدأ ينزف . وعلى العموم كان قد حاول منذ وقت طويل أن يتغافل عن الألم ، وقد الفه على مضض خلال الليل . حتى التلفت في الجانبين لم يعد يحفل به الآن ، فقد كان يسعى بكل قوته لبلوغ الحرش ، وكأنما كان في انتظاره هناك اكبر مكافأة في حياته ، أو ، ربما ، اكبر مصيبة . وكان بيفوفاروف المسربل كله بعرق كف عن مسحه من وجهه بكم بدلة التمويه يحاول الا يتأخر ، فصعد الاثنان على حافة الأجمة بخطو سريع لاهثي الانفاس . وكانت الدنيا قد تنورت تماماً ، والريح تهب معتدلة صقيعية ، والسماء الملبدة بالسحب تتدلى واطئة فوق الرحب الرمادي الدميم الملفع بالدخان .

وصل ايفانوفسكي الى قمة الربوة ، ونظر الى الأسفل من خلال اغصان جار الماء العارية . كانت أمامهما وهدة ضيقة ينغرز فيها لسان أجمة ماكاد الملازم يتعرف فيه على أجمة جار الماء التي كان قد اختبأ فيها مع فولوخ في انتظار الليل . ولكن بدلا من الحرش الكثيف الذي آوى السبعة آنذاك ، لم يبق الآن غير

اغصان جرداء متجمدة لأشجار هزيلة لا يكاد طائر أن يختفي فيها ، فكيف بانسان . غير أن دغلا من أشجار الصنوبر تخترقه أعمدة متباعدة لسياج. ألماني كان يخفر على الربوة ، عبر الوهدة ، في براءة منفصلة عما حوله ، وعند هذا السور لم يحالفهم الحظ في تلك المرة ولكن لابد أن يحالفهم ، ولابد أن يحالفهم في هذه المرة .

اطمأن قلب الملازم بعض الشيء عند مرأى السياج المعروف له ، ولكن المهم أنه وصل اليه على كل حال . وكل ما تبقى صار متوقفاً على اقتدارهما ، حذاقتهما ، جسارتهما . وأدى فعل العوامل الملازمة المختلفة الى أقل حد ممكن في مثل هذه الاحوال .

وقف ايفانوفسكي دقيقة أو دقيقتين ، تحت غطاء الاجمة ، ليستريح ويهدأ من نفاد الصبر الذى كان يرهقه طوال الوقت . حاول أن يوحي لنفسه أن كل شيء سيمر بسلام على نحوما . والحقيقة أنه لم يستطع أن يقنع نفسه بذلك نهائيا ، وأن شيئا ظل يضنيه ، على كل حال ، ويثير مشاعره المثارة اصلا خلال الليل . والظاهر أن بيفوفاروف كان يفهم الوضع ، دون أن يستفسر عن شيء ، وينتظر أن يواصلا السير . بينما ظل ايفانوفسكي لايستطيع أن يصرف بصره عن حرش الصنوبر البعيد ذاك ، وكأنما يأمل أن يرى شيئاً هناك . ولكنه لايكاد

شيء يلحظ على مسافة كيلومتر ، ان لم يكن اكثر ، ماعدا جذوع اشجار الصنوبر المتفرقة المتناثرة على الثلج بتباعد ، وأعمدة قليلة من السياج وهذا مفهوم ، على كل حال . فقد استطاع الألمان أن يموهوا الهدف . كانوا يجيدون التمويه أيضاً بالشبكات المختلفة ، وبالزروعات الخضراء ، وبالثلج . ولكن المدهش فقط اختفاء الطريق الذي اكتشف عليه استطلاعيو فولوخ اللوريات الألمانية ، التي كانت تحمل الذخيرة . فقد كانت هذه الطريق تنحدر على الربوة الى الحرش ، بينما الآن لايظهر لها أي اثر . وفكر الملازم : «ربما سوي بالثلج ليلا؟» . ولكن كان لابد أن يبقى له أثر حتى بعد العاصفة الثلجية . او ربما مدوا الطريق في مكان آخر لا يرى من هنا ؟ وعلى كل حال لم يكن الطريق الآن ضرورياً له ، وفي أغلب الظن لن يتعين عليهما استخدامه . وكان الأهم من ذلك بكثير اكتشاف المدخل الخفي الى هذا الحرش ، حتى يمكنهم أن يزحفوا في ظلام الليل غير ملحوظين واقرب ما يمكن من السياج . وكل الدلائل تشير الى أن الجانب المكشوف عبر الحقل لا يصلح لذلك ، وكان يجب استطلاع مداخل من الجنوب .

– بيفوفاروف ، لنذهب ! فقط بهدوء ...

وسارا عبر الأجمة الى الأسفل ملتفين حول الحقل ، منحنين عن الاغصان المتجمدة التي

كانت تتشربك في قلنسويتهما . كان ايفانوفسكي في أشد الحذر ، وقد تحفز كل شيء فيه الآن ، كما لم يتحفز طوال تلك الليلة المقلقة . ولكن السكون كان يخيم حوله ، وهذا ما كان يهدئه بعض الشيء . ولعدة مرات أخذ الملازم يتأمل في أحسن طريقة للتسلل من السياج . فقد كان ذلك الآن أهم شيء في مهمته والأكثر صعوبة . بالطبع لو أن الصفوف قريبة من الاسلاك الشائكة ، لكان في الامكان تفجيرها بالقنابل اليدوية وقوارير العبوات الحارقة ، ولو أن من المستبعد أن توضع على مسافة رمية قنبلة يدوية . عندئذ يجب خرق السياج ولعل افضل طريقة هو أن يفعل ذلك هو وحده ، ويقوم الآخرون بتغطيته في حالة اكتشافه ، وتأمين انسحابه . ولا بأس لو دخلوا معركة مع الحارس، فان المباغتة الى جانبهم ، ولعل دقيقة من الوقت تكفيهم لأن يقوموا بكل ما يقتضي . والاسوأ ان وجدت كلاب .

ولكن حتى في حالة وجودها سيضطر واحد أو اثنان الى التسلل من خلال الاسلاك الشائكة ، وعلى الآخرين أن يصرفوا انتباه الكلاب اليهم ، والتصدي لنيران الحراس . وما من مخرج آخر . والشيء الرئيسي أن يقدروا خلال ثوان معدودات على حرق ونسف اكبر عدد ممكن من

الصفوف . وستقوم المتفجرات الناسفة بالاشياء الأخرى وتأتي النار على كل شيء .

اجتازا الوهدة عبر الغابة القليلة الاشجار وتحاشا منطقة الحقل المكشوفة بالسير بمحاذاة حافة الغابة . ولم يكن أحد على مقربة ، ولم يقابلهما أحد . سارا باحتراس ، وحولهما سكون شتائي خفاق الريح . وذات مرة حملت الريح الى الوهدة هدير محركات بعيداً ، ولكن ايفانوفسكي ادرك ، حين استمع اليه ، انه قادم من الطريق العامة . والحرش قد صمت في البعيد أخرس بشكل مذهل ، صمت الموت .

وبعد نصف ساعة ظهر في طريقهما منخفض بشكل مفاجيء . وكان يلوح بكل طوله اجرد كلية متعرجاً ومنحدراته مغطاة بالثلج . ولم يدرك الملازم رأساً أن ذلك هو نفس المنخفض الذي خرج منه فولوخ الى السياج ، عند تساقط الثلج . ومعنى ذلك يجب السير ابعد قليلا ، والالتفاف على القاعدة من الأجمة اعمق بكيلومتر واحد وعند ذاك يمكن بالتأكيد الاقتراب اكثر ، والاستطلاع بتفصيل اشمل .

نظر الى بيفوفاروف الذي كان نصف وجهه المحمر مغطى بقلنسوته المبللة المدلاة . كان هذا الفتى يعمل بالعصوين بكل قوته ، واسكيه يغطس ، كالسابق ، عميقاً في الثلج الهش . كبت

ايفانوفسكي في نفسه كل التوتر المتزايد من احساسه بقرب الهدف ، وأشار لبيفوفاروف بأن ينتظر ، بينما دار هو حول الوهدة ، وتوقف وراء أجمة بندق عريضة كثيرة الاغصان .

صارت اعمدة السياج الجرداء المقشرة قريبة جداً ، تلوح ملحوظة بارتفاع قامة الانسان أو اكثر على خلفية اشجار الصنوبر الفتية المخضرة الثلجية . ولكن المدهش أن العين ما تزال لاتقع على شيء وراء هذه الأعمدة . ومهما ركز ايفانوفسكي بصره لم يستطع أن يكتشف قط تلك الصفوف المعروفة له من الصناديق الرمادية والصفراء التي ظلت عالقة ببصره في وضوح منذ تلك اللحظة التي رآها لأول مرة من خلال المنظار . كما لم ير المشمعات ايضاً . وهذا الوضع عاد يقلق الملازم بهاجس منحوس ، فأشار لبيفوفاروف بأن يجلس ولايتحرك . ففهم هذا الاشارة ، وحط على اسكيه ، وخرج الملازم من الاجمة بعد لحظة من التردد .

ولعل تصرفه لم يكن حصيفاً ، فان آمر المجموعة ما كان يجب أن يجازف بنفسه بهذا الشكل ، ولكن ايفانوفسكي لم يعد قادراً على ضبط النفس . فقد تملكه هاجس منحوس كلياً ، حتى أنه كبت شيئاً في حلقومه ، وجرع غصة الاهانة ، وثبت بصره في حافة الغابة القريبة الآن ، وسار نحوها بسرعة وبخط مستقيم .

الآن لم يكن يفصل بينهما غير حوالي ثلثمائة متر ، وقد ادرك الملازم ، منذ بداية هذا الطريق ، أن الأعمدة خالية من الأسلاك الشائكة. فان تلك الاسلاك التي كانت تحيط بالقاعدة آنذاك قد رفعت ، وأثار اختفاء هذه الاسلاك في وعي ايفانوفسكي اكبر التخوف شعوراً بالفزع تقريباً . فلم يعد يحترس من شيء ، ولا يعير انتباهاً الى أن من المحتمل أن يرى من الحقل المكشوف ، ووصل الى اشجار الصنوبر القصية من الحرش ببضع قفزات ، وتوقف مذهولا ، ومدحوراً تقريباً بما قد اكتشفه .

القاعدة لم تكن موجودة .

في غابة الصنوبر الصغيرة على الربوة لم يكن هناك حراس ، ولا كلاب ، ولا صفوف من الصناديق الرمادية الصفراء ، فقد كان قدامه ثلج منبسط لم يمسس ، وصف من الاعمدة البيضاء يمتد عبر حافة الغابة ، وهي الشيء الوحيد الذي يذكر بالقاعدة ، ولم يبق أية علامات أخرى عليها . والظاهر أن الاسلاك قد رفعت من الاعمدة بعناية ، وأخذت الى مكان ما ، اكثر ضرورة على ما يبدو .

وحلت البلبلة ، القريبة من الذهول في وعي ايفانوفسكي بدلا من الحيرة . وقف قليلا على ثلج نقي جديد بعد العاصفة الثلجية في الليلة الماضية ، ثم سار على اسكيه على الجهة المقابلة،

حيث كان المدخل آنذاك . ولكن حتى هنا لم يبق شيء ، ما عدا بعض فوهات النيران الخاوية تطل من تحت الثلج في غابة اشجار الصنوبر الفتية ، وعند حافة الحرش قرب الأعمدة ، برزت كومة من الروافد المذرورة بالثلج، لعلها كانت موضوعة تحت صفوف الصناديق من قبل .ولم يكن هناك اكثر من هذا . والطريق الذي أدهش اختفاؤه الملازم عندما كان في الحقل كان يمتد شريطا أبيض خالياً تحت الثلج ، لم تطرقه سيارة منذ زمان .

وفجأة أحس ايفانوفسكي بالاعياء التام ، فركن كتفه الى نتوء خشن في جذع شجرة صنوبر ، مسحوقاً بخواء هذه الغابة المتروكة التي لم تعد نافعة لأحد . فقد نقلت القاعدة الى مكان آخر . وكان ذلك واضحاً ، ولكنه لم يكن قادراً على التصديق بذلك . فقد استولت على وعيه المضطرب فكرة محتجة عنود وتعصت هناك لاتريد ان تبرحه ، فكرة توحي له بان ذلك خطأ ، سوء فهم سخيف ، خبيث ، وفهم ذلك لايقتضي غير جهد صغير . ولم يستطع أن يتصور غير ذلك ، لأنه لم يكن قادراً على القبول بأن الفشل قد اصابه في هذه المرة ايضاً ، وأن جهد الجماعة الجبارة ذهبت هباء ، وانهم عبثاً عرضوا أنفسهم الى مجازفة قاتلة لامعنى لها ، وفقدوا رجالا ، واستنفدوا قواهم تماماً . فقد تأخروا . ولم

يصدق بذلك راساً ، ولكنه بعد أن وقف تحت الصنوبر ، واسترد أنفاسه ادرك ، على كل حال ، أنه لم يكن هناك اي ضلال . بل كان هناك واقع قاس مغيظ ، مصيبة كبيرة أخرى من كل المصائب التي وقعت من نصيبه العاثر في هذه الحرب .

انتزع كتفه من شجرة الصنوبر بجهد ، ووقف على اسكيه اكثر استقامة ، وراح يجذف بالعصوين بوهن . انزلق الاسكي على الثلج المحبب ، وتوقف. لم يكن يعرف الى اين يتجه بعد الآن ، لأول مرة انتفت الحاجة الى الاسراع الى اي مكان كان ، فاتكأ ايفانوفسكي على العصوين . ظهر على غصن صنوبر قريب عقعق حرك وغاص في الغابة بوصوصة قصيرة طائر ازرق . ظل يزقزق عليه طوال الوقت بغضب ، مرفرفاً فوق رأسه . ولم يكن ايفانوفسكي يلحظ شيئاً . فان تصلباً صفد عضلاته المسترخية ، ولم يكن يفكر في شيء ، بل كان ينظر فقط الى فراغ الغابة ، متحسساً في نفسه تعباً مضنياً يشمل جسده ، ولم تكن لديه امكانية للتغلب عليه .

وهكذا استمر الحال لبعض الوقت ، ولكن الغابة ، ظلت خالية ، كالسابق ، وغير مهمة ، واضطر الملازم في آخر الأمر الى أن يخرج من خدره ، فقد كان المقاتلون في انتظاره على كل

حال ، وبيفوفاروف قبل الآخرين . التفت ايفانوفسكي فرأى هذا المقاتل يجلس صبوراً وراء الوهدة ، حيث تركه ، فلوح الملازم بذراعه له يدعوه اليه .

وبينما كان بيفوفاروف يسير في اثر ايفانوفسكي نحو الحرش ، فك هذا مشدات الاسكي ، وسار ماشياً على الثلج . لا خوف هنا في اغلب الظن ، اذا لم يكن أحد في حرش الصنوبر . جلس الملازم على قرمة غير عالية مفروشة بالثلج ، ومد رجله الى جانب . وكان عليه أن يقرر ماذا يفعل بعد الآن . والشيء الرئيسي التفكير كيف يشرح هذا الفشل للمقاتلين . ولم يكن في مقدوره أن يزيح عن نفسه الشعور ببعض التقصير منه ، وكأنما هو ذاته رتب هذه الحكاية عن القاعدة ، وخدع أحداً. رغم أنه نفسه اكثرهم انخداعاً ، لو دقق في الأمر . والأصح أن الالمان خدعوا الجميع .

وعلى العموم ليس هناك خداع في هذا الأمر ، بل هناك حرب ، ومعنى ذلك أن هذه الحرب كانت تعمل بكل حيلها ، وتستفيد من كل امكانياتها ، بما في ذلك الوقت الذي عمل في الحالة الراهنة لصالح الألمان ، تاركاً ايفانوفسكي ومقاتليه في خيبة قاسية .

سار بيفوفاروف بهدوء على خط اسكيه ، وتوقف أمامه صامتاً ، وراح يحدق في الحرش

غير فاهم ، ملقياً من حين الى آخر على ملازمه نظرات متسائلة . واخيراً حدس حقيقة الأمر .

– يعني ... معقول كانت هنا ؟

– بالضبط . كانت .

– طاعون طعنهم ! يعني رحلوا ؟

– رحلوا ، طبعاً ! – قال ايفانوفسكي ، ووثب عن جلسته على القرمة – خدعونا .

ودهش الملازم لان بيفوفاروف لم يتأثر كثيراً بكلماته المغيظة المفعمة بالمرارة .

– الظاهر ، تأخرنا ...

– بالطبع . انقضى اسبوعان . وقت !

– وكيف الآن ؟ يقتضي البحث ؟

– البحث عم ؟

– عن القاعدة ، بالطبع . هناك أمر .

أجل ، لم تكن هناك قاعدة ، ولكن أمر تدميرها ما يزال قائماً . لم يمض وقت طويل منذ أن سعى الملازم نفسه حتى حصل من هيئة الأركان على هذا الأمر الذي صار اخيراً من نصيبه العاثر . طيب ، نفذ الأمر الآن ، ياملازم ايفانوفسكي ، فتش عن القاعدة . كان الملازم يفكر في سره بحنق ومع ذلك فان اللهجة التي استخدمها بيفوفاروف في تذكيره بالأمر قد اعجبته ، بل وسر في دخيلته . في كل الاحوال لن يطيل شرحه للمقاتلين ، على الاكثر فاذا كان

بيفوفاروف قد فهمه ، فان الآخرين ايضاً سيفهمونه في اغلب الظن .

وأخذت الغمة الموشكة على تحطيم الملازم في البداية تنقشع بالتدريج ، ولو أنه كان يفهم ، بالطبع ، أن التغلب عليها ليس بالأمر الهين . كانت كل الدلائل تشير الى أن القاعدة نقلت الى الشرق ، اقرب الى خط الجبهة . الى موسكو ، وهناك كان ينبغي البحث عنها . ومن المحتمل أن يوفق في العثور عليها اذا سار على طول الطريق العامة مفتشاً في كل حرش . ولكنه تذكر في تلك اللحظة اولئك الذين كانوا في انتظاره وراء الطريق ، والجريح حكيموف ، وفكر في أنه لن يضطر على مايبدو ، الى البحث عنها ، فان ذلك سيتطلب وقتاً كبيراً ، وجهوداً ضخمة اكبر بكثير من الاحتياطات التي يمتلكونها . ثم ليس في المستطاع التنقل بحكيموف بعيداً . كان من الصعب البحث ، دون معرفة ، عن هدف في أعماق الغابات ، مموه ومحروس بدقة ، أضحى الآن بالنسبة لهم لا اكثر من أبرة ضائعة في تل من القش . وعلى العموم ، من الممكن تماماً أن يتضح أن لا وجود للقاعدة اطلاقاً فقد قسمت أجزاء ، ونفدت في المعارك الى آخر لغم .

اذن سيعودون بالمتفجرات كاملة لم

يستخدموا أية قنبلة يدوية ؟ مرة أخرى سيحملون القوارير الحراقة اللعينة ، ويظلون يتخوفون من أن يرسل الماني بحماقة صلية فتصيبها رصاصة عن طريق المصادفة . وهذا بعد ان فقد نصف المجموعة ، الى جانب جريح مثخن محمول على محفة . بالنتيجة سيمثل الملازم امام الجنرال الذي أرسله في هذه الهيئة المنفرة لفاشل تماماً . فماذا سيقول الملازم له ؟

– نعم ، وضع ...

غرف ايفانوفسكي حفنة من الثلج ، ومضغها ، وبصقها . وكما هو دائماً بعد ليلة مساهرة كان مايزال يشعر بطعم معدني مقرف في فمه . وكان يشعر بشيء من التقزز لسبب ما ، بل وبما يشبه القشعريرة . ولو أن هذه القشعريرة ربما من التعب وفقدان الدم .

سأل الملازم بيفوفاروف :

– هل لديك ضمادة ؟

خلع هذا قفازه ، وأخذ يتلمس جيوب بنطاله ، ونهض الملازم من القرمة . وقال ، وقد فك بنطاله .

– هيا ، ساعدني .

مفكراً في الوقت ذاته أنه لم تكن هناك اهمية كبيرة في اخفاء جرحه المزعج .

– جرحت ؟

– اصبت في الليل . ها هو الجرح ينزف دون توقف ، عليه اللعنة .

ولا غرابة في أن بيفوفاروف ارتعب . كان سروال الملازم الداخلي الأبيض ، وبنطاله القطني مشبعين ومبقعين بدم كثيف متيبس . وقد سال خط بني داكن من الدم بسرعة من جرح صغير غير عميق في الجهة الخارجية من الورك .

– هيا ! شده ، ولكن بقوة أشد .

– انت بحاجة الى دكتور .

– أي دكتور . أنت ستكون الدكتور .

كان واضحاً أن جرح الآمر قد افزع بيفوفاروف اكثر مما افزعه اختفاء القاعدة نفسها . جلس بالقرب منه ، وأخذ يلف الرجل بالضمادة بطريقة لا تدل على مهارة كبيرة ، وعقد طرفي الضمادة بشكل سيىء جداً .

– لم تسقط بحيث .

– لا بأس . ثابتة الآن .

القى ايفانوفسكي الضمادة المدماة القديمة على الثلج ، وسحب بنطاله ، وعقد شرابة سروال بدلة التمويه المبقع . وأخذ بيفوفاروف يربط مشدات اسكيه . ومن مظهره الهادىء تماماً كان يبدو أن فشلهم مع القاعدة لم يؤثر في مزاجه ، فغبطه الملازم في سره على تماسكه . وماذا يهم المقاتل ، فهو لا يسأل كثيراً .

– ماذا سنقول للرجال الآن ؟ – سأل

الآمر مغموماً ، وقد أحس بالرغبة في المشاورة ، على الأقل لتفريغ شيء من ضيقه .

فاجاب بيفوفاروف ببساطة :

– نقول لهم ما حصل .

– نقول لهم ان الالمان خدعونا ؟

– وماذا في ذاك ! ما داموا قد خدعونا ، يعني خدعونا .

فقال الملازم بعد تفكير :

– نعم ، يبدو أنك على حق . يجب أن نقول الحقيقة . ولكن الى اين نذهب بعد ؟

فنصحه المقاتل قائلا :

– انظر في الخارطة ...

بالبساطة النقية . الظاهر أن بيفوفاروف كان يفترض ان كل شيء معلم على الخارطة العسكرية . وهذا ما كانت نساء القرية الكهلات يتصورنه ، حين يرين الآمر يفرد الخارطة ، ويندهشن عندما هذا يسأل ماذا تسمى هذه القرية ، أو كم كيلومتراً تبعد المدينة عن هنا . والظاهر أن بيفوفاروف كان له نفس التصور الآن .

وعلى العموم تنرفز الملازم ، وأخذ بحنق على ما يبدو فان الجرح المستشار أخذ يوجعه ، وكان يحس بالقرف في داخله . اذ لم تكن له فكرة حتى الآن عما سيتخذه . فراح ينظر زائغ البصر الى الاسفل ، الى الحقل الأبيض المنحدر بأجمته

البعيدة حتى داهمه التفكير في المقاتلين الذين تركهم وراء الطريق ، دافعاً اياه الى العمل .

عند ذاك دفع الأرض بعصويه ، ومضى مسرعاً في طريق التزحلق السابق الى الاسفل .

الفصل الثامن

وبينما كانا يتجهان الى الأجمة عبر الطريق المعروف لهما كان ايفانوفسكي يحاول ان يستجلي نفسه ويقرر ما سيفعل بعد هذا ، وقد تعود اخفاقه اكثر مما هدأ روعه . ان اختفاء القاعدة بالطبع ، قد جعل تسلله بكليته غير ذي بال ، فكان متأسفاً الى حد البكاء على كل جهودهم التي ضاعت سدى . اسفاً كان مقتل الرجلين ، وحكيموف المحتضر ، ولكن الآن صار يطرح على نفسه سؤالا اكثر فأكثر : كيف سيشرح اخفاقه لمقر الاركان ؟ وقد انغرزت عميقاً في ذاكرة الملازم توديعاتهم غير العسكرية ، كلمة الجنرال القصيرة في فناء البيت ذي الصفاقات العالية ... أولادي !.

وها هم «أولادي» ! ذاهلين ، مشتتين ، ملاعين، خلال ما كانوا يتهيأون ، يتيهون في الليل ويغفون في الخندق، قد اختفت القاعدة دون أن تخلف أثراً.

وضع مقرف دون شك . فكر ايفانوفسكي مقلصاً وجهه باستمرار، وكأنما من وجع الاسنان.

كف عن التنحى عن اغصان الأجمة الشائكة ، وسار دون ان يلوي على شيء ، منحنياً قليلا ، مفكراً : ليشتمني الجنرال في البداية ، ويرسلني الى دولتسيفو للتأكد من صويتي ، فذلك أفضل من ان يتمعن في تقريره السيىء الحظ . ولكن اذا كان قد اتخذ مثل هذا القرار فقد كان من الافضل ان يامره رئيس الأركان بقسوة بشأن هذه القاعدة ، بل وأن يهدده بمحاكمة عسكرية في حالة عدم تنفيذ الأمر ، أفضل من أن يخاطبهم اولادي ، كل اعتمادنا عليكم . فماذا سيفعل الآن مع هذا الاعتماد ؟ أين يذهب به ، كانت هذه الفكرة غير السارة تضرم وعيه وتزعجه ، ولاتدعه يرضخ للفشل ، وتدعوه الى القيام بعمل.. ولكن ماذا كان في وسعه أن يعمل ؟

كان عبور الطريق العامة من جديد ليس بالامر السهل ، فقد صار يرى من بعيد سيل متماسك من القوات التي انهمرت عليها ، ربما هي وحدة من قوات المشاة في مسيرة ، طوابير من الجنود السائرين بتعب، والعربات والمركبات واحياناً كانت تظهر خيالة ، وفي الصف الثاني سارت السيارات وجرارات المدافع . وكان هذا السيل الكثيف يتحرك بلا انقطاع باتجاه الشرق ، باتجاه موسكو ، وعصر قلب الملازم هاجس نحس . هاهم مرة أخرى ! ربما هم يهجمون مرة اخرى ، ومن المحتمل أنهم خرقوا الجبهة ...

العاصمة البائسة ، أي صمود ستصمد أمام هذه القوة ! ولكنها ، على الاكثر ، ستجد لديها القوة على ذلك ، ويجب أن تجدها . والا فلم كل هذا القدر من الدم المراق ، وهذا القدر من الحيوات التي اختطفها الموت قبل الأوان تضحية لها ، ومن العذابات والمعاناة الانسانية . اذ لابد أن يكون لهذا جدوى ، ويجب أن يكون .

الا هو فلم يحصل على جدوى كبيرة ، فرغم أنه قطع في تلك الليلة ستين كيلومتراً ، الا أن ذلك لم يجعلها اقرب اليه مما كانت في المساء . ولربما صارت أبعد ، لأنه في المساء الفائت كانت لديه مجموعة في كامل قوتها ، وعزيمة لا تنفد ، فماذا تبقى اليوم ؟ وحتى هو نفسه ، فقد قلت قواه ، في كل الأحوال ، والشيء الأهم ان وضوح الهدف السابق اختفى مع القاعدة ، فهو لا يعرف على أي شيء يقدم ، والى اين يتوجه . على العموم يجب في البداية الانسلال الى رجاله .

أمسك وبيفوفاروف الاسكيين في أيديهما ، ونزلا ثانية زاحفين على المنحدر الى قاع نفس الخندق المضاد للدبابات . صار الاقتراب من الطريق العامة اكثر من هذا محفوفاً بالخطر ، فكانا يختفيان وراء كل كتلة ترابية ، وينظران منها احياناً الى قطاع الطريق المكشوف . ولم يكن هناك معنى للتطلع مرات متتابعة ، فقد كان

طابور القوات يمتد هناك بلا نهاية ولا بداية ، وعبور الطريق العامة في مثل هذا الوقت لايستحق حتى التفكير فيه . يعني مرة أخرى يجب الانتظار . وقرر الملازم تمضية الوقت في الصقيع ، في حالة تقرب من اليأس ، على بعد نصف كيلومتر من الالمان . لقد زايله نفاد الصبر الذي كان قبل حين ، فكان مستعداً الى ان يجلس هنا حتى حلول الليل ، فان النهار ، على كل حال ، لايدع مجالا للانسلال الى أي مكان . ثم كانه لم يتخذ أي قرار بعد ، ولم يكن يعرف الى أين يتوجه بعد هذا ، ام ربما كان عليه أن يعود الى جانبهم وراء خط الجبهة . لم يكن يتحدث مع بيفوفاروف تقريباً ، فان الحديث يمكن أن يعيقه عن الاستماع ، والاستماع الآن صار حمايتهما الوحيدة في هذا الخندق الذي لانهاية له ، والمفروش بالثلج . كان ايفانوفسكي يخرج ساعته من جيبه من حين لآخر ، فهي وحدها كانت تشهد كيف كان الوقت يمر بسرعة وبلا انقطاع . كانت ليلة شتائية شديدة البرودة . كانت للملازم رغبة شديدة في النوم رغم البرودة . ولعله الآن فقط شعر الى أي حد من الاعياء قد وصل في هذه الطلعة الليلية . والتوتر الذي لم يكن يفارقه لحظة خلال عدة ايام متتابعة أخذ يخفت شيئاً فشيئاً بل ونعس دون أن يلحظ ، وقد القى ظهره على

المنحدر الثلجي المتجمد ، وفجأة تيقظ مرتعشاً على صوت بيفوفاروف الخافت .

– ... يارفيق ملازم ! أظن مرورهم انتهى .

– نعم ؟ مرورهم انتهى ؟

وكان بيفوفاروف قد ثبت قدميه على المنحدر ، وأخرج رأسه من وراء سدة المنحدر وراح يراقب الطريق ، وكان صوته يوحي بالأمل ، فتسلق الملازم المنحدر أيضاً . خلت الطريق العامة من القوات ، وابتعدت العربات الاخيرة الى جهة الشرق ببطء . ربما كان عليهما أن يركضا نحو الربوة .

التقطا اسكياتهما ، وهرولا في قاع الخندق، سائرين على آثارهما العميقة التي لم يلحق الثلج أن يغطي عليها . وحالفهما الحظ هذه المرة ، وطلعا في الوقت المناسب الى الطريق الفارغ المدكوك ، وعبراه ، واختفيا في الخندق ثانية . مدهما الركض بحرارة جيدة ، فعرق ظهر ايفانوفسكي وتغطى وجه بيفوفاروف مرة اخرى بطبقة كثيفة من العرق . وسالت من جبينه على خديه قطرات كبيرة كقطرات شمعية عديمة اللون . فكان يمسحها بكم بدلة التمويه لاهث الانفاس ، ولكنه لم يتأخر قط ، وشعر ايفانوفسكي لأول مرة بميل ودي نحوه . فان هذا المقاتل الضعيف الحول كان ، على كل حال ،

يبذل جهداً بارزاً ، ومن الاجحاف أن لاتقدر قيمته .

بعد عطفة الخندق الأولى على الربوة ابطأ ايفانوفسكي خطوه ، وزفر بخاراً حاراً لعدة مرات منفساً عن نفسه . ويبدو أن موجة أخرى في طريقها الى المرور . فقد ترامى من بعيد هدير الديزلات ، ولكن ذلك لم يقلقه . فان افكاره الآن مصوبة الى حيث كان اربعة مقاتلين ينتظرون عودتهما ، وكان هاجس الملازم الأول هو كيف حالة حكيموف هناك ؟ بالطبع ، سيكون من الحمق توقع أن يفيق هذا على نفسه ، ويقف على قدميه ، ولكن ... ماذا لو توفي ؟ ولسبب ما طاف هذا في ذهنه دون ما ينبغي من الاسف ، بل العكس هو الاصح فقد فكر في ذلك بامل : اذ سيكون ابسط ، لو مات حكيموف فبذلك سيقدم لهم خدمة . ولكن ذلك ليس في سلطته ، كما يظهر .

هناك في مكان قريب ، في الخندق ، كان رجاله ، فالقى الملازم سمعه ، حتى بدا وكأنه التقط صوتاً غير عال ، كأنه صوت كراسنوكوتسكي ، أطل الملازم من وراء عطفة اخرى ، فاذا به يلتقي بديوبين وجهاً لوجه . والظاهر أن رئيس الرقباء سمع اقترابه ، فالتفت ، وحدق في عيني الملازم وعلى وجهه الاسمر انتباه متوتر . وعلى مسافة غير بعيدة

جلس لوكاشوف وكراسنوكوتسكي وسودنيك على الثلج عند المنحدر ، والى جانب محفة حكيموف قعد زايتس في الخندق جامداً مطوي الجذع بحزن .

التفت الجميع الى القادمين ، ولكن أي واحد منهم لم يقل لهما كلمة ، وسار الملازم نحو المحفة صامتاً ايضاً ، دون أن يلقي نظرة على أحد .

— كيف حكيموف ؟

قال لوكاشوف :

— ما يزال يهذي من الحمى .

— هل اعطيتموه ماء ؟

— وكيف نعطيه ماء ؟ جرحه في بطنه .

نعم ، الظاهر أن جرحه في بطنه ، وفي هذه الحال لا يجوز أن يعطى ماء . ولكن ماذا يجوز عندها ؟ التفرج عليه كيف يتعذب ، ويعذب الآخرين معه ؟

نظر الملازم الى وجه حكيموف الشاحب ، وعلى شفتيه المتيبستين المفتوحتين الى النصف ثنية تنم عن عذاب . كان هذا المقاتل يئن أنيناً لايكاد يسمع ، دون أن يفتح جفنيه ، وكان غير واضح هل هو في وعيه أم فاقد الوعي .

قال ديوبين من بعيد :

— حبذا لو يغطى بفروة .

فرد عليه لوكاشوف بانزعاج :

— واين نجد الفروة ؟

— سيموت .

سأل ايفانوفسكي دون أن يتحول عن حكيموف :

— جئت منذ زمان ؟

— قبل ساعة — قال ديوبين ، وأشار برأسه نحو زايتس — بسببه كسرت خشبة اسكي .

— كيف ؟

قال زايتس :

— عندما طفنا حول الغابة . ووقعنا على نتوء ، فانكسرت . لست مذنباً ...

وفي ظرف غير هذا ربما ماكان زايتس هذا سيسلم من معاقبة ، وهو الذي خذل المجموعة مرتين ، ولكن ايفانوفسكي لزم الصمت هذه المرة . وادخل القليل من الفرح الى قلبه لحاق ديوبين بالآخرين ، ولو أن هذا الفرح كسفه كثيراً فشلهم الجماعي . حاول الملازم عامداً أن يلزم الصمت دون أن يخوض حديثاً في هذا الموضوع لمجرد انه كان يخاف لحظة انكشاف أن تسللهم الليلي هذا لم يسفر عن شيء . ولكن لم يتسن له التزام الصمت طويلا ، ولو أن مظهره الكئيب بجملته لم يكن يوحي بمبادلة الحديث ، وهذا ما رآه الجميع . ومع ذلك فان السؤال عن القاعدة كان ، في الظاهر ، يرهق

الآخرين ايضاً . وكان بيفوفاروف الشاب البسيط القلب يجلس في الخندق على مقربة ، وقد توجهت الآن جميع انظار الآخرين اليه . وكان لوكاشوف أول من نفد صبره . فسأل بصوت خافت وراء ظهر الملازم .

– طيب ماذا رأيتم ؟ الألمان كثيرون ؟

اجاب بيفوفاروف ببساطة .

– لا يوجد ألمان . وكذلك لاتوجد مستودعات .

– كيف لا توجد .

تقلص داخل الملازم .

لم يكن يرى ، ولكنه كان يحس جسدياً تقريباً كيف جمد المقاتلون وراء ظهره بقلق ، ولم يتحمل طويلا فوقف على قدميه .

– كيف ، يا ملازم ؟ ماذا يعني هذا في الحقيقة ؟ – ونهض لوكاشوف في اثره . وراح الآخرون ينظرون جميعاً الى آمرهم في غاية الذهول وبما يقرب من الفزع .

– نعم ، لم نجد القاعدة . اظنهم نقلوها الى مكان آخر .

ساد صمت ، ولم يفه احد بكلمة ، سوى ان كراسنوكوتسكي بصق على الثلج من خلال اسنانه . وظل زايتس ينظر في وجه ايفانوفسكي متحيراً .

– ليس الأمر بيدنا ! – وتنهد

كراسنوكوتسكي – كل شيء يحصل في الحرب .

– ولكن ربما لم تكن موجودة هنا أصلا ؟ ربما هي في مكان آخر ؟ – تشكك لوكاشوف بخبث ، وهو مايزال واقفاً كالسابق في مواجهة الملازم .

رد بيفوفاروف عليه ببساطة :

– كانت موجودة . والأعمدة بقيت هناك ، ولكن بلا اسلاك شائكة .

ابتعد الملازم عن محفة الجريح ، والقى نظرة خاطفة على سودنيك الذي كان ينظر من المتراس الى الخندق بتوتر . حاول الآمر أن يتحاشي لوكاشوف ببصره ، ولكنه كان يشعر بقوة خبيثة خانقة كانت تمزق الرقيب اول وكان هذا مستعداً للبدء بمشاجرة .

سأل ديوبين بلهجة عملية هادئة :

– يعني لا توجد آثار في اي مكان ؟

قال ايفانوفسكي :

– لا شيء .

– ماهذا الذي يحصل ... كيف هذا ؟ – تدخل لوكاشوف من جديد – يعني ، الذنب يقع على أحد .

التفت الملازم نحوه بحدة .

– في اي ذنب ؟

– في أن ينتهي الأمر هذه النهاية الفاشلة ! اضافة الى هلاك ناس .

فأوقفه الملازم بسؤال حاد :

– وماذا تقترح انت ؟

ولم يستطع أن يتجادل معه ، لأنه كان يعرف أن توترهما هذا غير بعيد عن الشجار ، والى جانب ذلك ماكان من الممكن الايشعر بأن الرقيب أول محق الى درجة كبيرة . ولكن ما الحاجة الآن الى الحديث كثيراً عن ذلك ، وكل واحد منهم ، بدون ذلك ، كان يشعر بالقرف من هذا الفشل . بالاضافة الى أن من غير المسموح به في الجيش التعبير في مثل هذه الحالات عن عدم الرضى أو الاستياء ، فان مثل ذلك يوقف بكل صرامة .

أخذ لوكاشوف يحتد ، والتمعت عيناه غيظا، وظهر الشر على وجهه المنفوخ قليلا بشعره الخشن .

– وماذا علي أن اقترح ؟ أنا اقول .

– اسكت أحسن !

سكت الرقيب أول ، وابتعد ناحية ، وجلس الملازم على الثلج ثانية . لم يكن الحديث يبعث على الارتياح ، ولكن ماكان يضنيه منذ الصباح قد زال رأساً ، وكأن كل شيء قد حسم ، وان يكن ، ربما ، ليس باحسن طريقة . وكفوا عن توجيه الكلام له ، ولعلهم رأوا أنه الآن لا يعرف اكثر مما يعرفه الآخرون . انتظر المقاتلون بصمت امراً جديداً أو قراراً حول ما سيفعلونه

بعد هذا ، وقد ادرك الملازم ذلك فأخرج الخارطة من طية صدره . وحاول أيضاً أن يجد عليها شيئاً ، وأن يقرر شيئاً مع نفسه ، حاول أن يفهم الى اين يمكن أن تنتقل ، في اكثر الاحتمالات ، هذه القاعدة الملعونة . ولكن مهما حدق في الخارطة ، لم تسعفه هذه الخارطة بجواب عن أي واحد من أسئلته ، فان الخط الأحمر المشير الى الطريق العامة سرعان ما يختفي وراء حافة الخارطة ، وليس له الورقة التي تكملها . ولكن الأماكن المناسبة للمستودعات كثيرة في المنطقة التي تحتويها الخارطة ، ومن المحتمل في أماكن أبعد منها ايضاً : في الغابات ، والاحراش ، والوهاد ، فاين يبحث عنها ؟

وهكذا جلس وقتاً طويلا ولم يقل شيئاً ، غير رافع عن ركبتيه الخارطة المبسوطة ، التي كانت الريح تخشخش فيها بنثار ثلج كبير . ولم يعد يدقق عن شيء فيها ، بل مجرد انه كان يتحاشى أحاديث مع المقاتلين غير ضرورية الآن ، ونظراتهم المتسائلة . كان يشعر بأنه يجب ان يتخذ قراراً دون ابطاء ، حالما يحل الظلام . يجب أن يغادروا هذا المكان ، ولكن الى اين ؟

– استبدلوا سودنيك . اظنه قد تجمد في الريح . – قال الملازم دون أن يخاطب أحداً على وجه التحديد ، حين شعر أن صمتاً منحوساً

قد استطال كثيراً في الجماعة ، وهتف – يا زايتس !

نهض زايتس راسا ، واخذ يتسلق على المتراس ، بينما انزلق سودنيك عائدا الى الخندق مثيرا الثلج ، وسحابة الثلج التي أثارها طوقت ديوبين الذى تململ ، ونهض على قدميه . وسأل :

– اذن ، ماذا سنفعل بعد الآن ، يا آمر ؟

– ماذا بالضبط ؟

رد ايفانوفسكي متظاهراً بعدم الفهم ، رغم أنه كان يدرك جيداً ما يقلق رئيس الرقباء هذا.

– الى أين نذهب الآن ؟

عزم الآمر ببساطة :

– أنت ستعود .

– كيف ؟ أنا لوحدي ؟

– أنت والآخرون . حاولوا انقاذ حكيموف .

– وأنت ؟

– أنا ؟ انا سأحاول ايجاد مكان القاعدة .

– وحدك ؟

ترك ايفانوفسكي سؤال رئيس الرقباء هذا دون جواب سريع . فقد كان لايعرف هل سيذهب وحده أم مع شخص آخر ، ولكن كان يدرك بالضبط وجوب استمرار البحث . اذ لم يكن في وسعه العودة دون شيء ، فقد كانت مثل هذه العودة اكبر من طاقاته .

– لا ، ليس وحدي . سيذهب شخص آخر ايضاً .

– ومن هو بالضبط ؟ ربما تاخذني ، يا ملازم ؟ – قال ديوبين . وكأنما يستشعر تصميمه في داخل نفسه ولكن الملازم صمت .

راح ايفانوفسكي يفكر بجهد فيما لم يفكر فيه من قبل . وبالطبع لم يكن هناك مخرج ممكن غير هذا ، اذ لم يكن في وسعه ان يجازف بالجميع . فان رجاله فعلوا كل ماكان عليهم ان بفعلوه وليس ذنبهم ان يكون تحقيق الهدف خارج طاقتهم كما اتضح . وبعد ذلك بدأ حساب خاص لشرفه كآمر ، نزاله المنفرد تقريباً مع الدهاء الالماني ، ولم يكن للمقاتلين علاقة في هذا النزال . ومع ذلك فان فرص النجاح لم تكن واضحة الآن . ومنذ الآن سيتحمل بنفسه الخوف والمجازفة ، وعلى الآخرين أن يعودوا الى ما وراء خط الجبهة .

رفع الملازم وجهه عن الخارطة ، ونظر الى ديوبين كان وجه رئيس الرقباء المخدود بتجاعيد قبل الاوان ، والداكن من شدة البرد هادئاً ، ونظرته من تحت الظليلة الصغيرة للسدارة البودونية ذات النجمة الحمراء مترقبة بهدوء وبغير الحاح ، وكأنه كان يقول الآن : اذا أخذتني فذلك شيء جيد ، واذا لا ، فلن اطلب بنفسي . وكان الملازم شبه راغب في أن يأخذ معه رئيس

الرقباء اذ لعله لن يجد من يفضله في هذه الصحبة . ولكنه عند ذلك سيتعين عليه أن يعين لوكاشوف مسؤولا عن المجموعة العائدة ، وكان لا يريد ذلك لسبب ما . وكان قد عرف لوكاشوف بعض الشيء اثناء مسيرته الى هنا ، فنشأ في نفس الآمر تحامل ملح ضده .

ومعنى ذلك يجب أن يبقى ديوبين مع المجموعة .

سيعودون قلائل جداً ، وفي وصايتهم حكيموف المتعب ، ومن المستبعد ان يكون طريق العودة أسهل من طريق وصولهم الى هنا ، بينما كان الملازم يود كثيراً أن يصلوا الى جهتهم بسلام حسب الامكان . والاكثر حصافة لهذا الاعتبار ، والاعتماد على رئيس الرقباء ديوبين المجرب المتزن .

— لا ، يا رئيس الرقباء ! — قال الملازم بعد صمت استمر طويلا — قد الآخرين . سيأتي معي ... بيفوفاروف .

أدار الجميع رؤوسهم بشيء من الدهشة الى بيفوفاروف المستلقي على جنبه ، والذي بدا عليه الاضطراب ، على ما يظهر ، حين سمع كلمات الملازم ، وقعد باستقامة .

— طيب ، يا بيفوفاروف ؟

— يعني . — رد هذا ببساطة ، وقد توهج ، وراح يرمش بأهدابه البيضاء .

— يعني ، موافق — قال الملازم راضياً بأن يحسم الأمر بهذه السرعة .

وبعد ذلك سيسأل نفسه غير مرة لماذا اختياره المهم هذا وقع على هذا المقاتل الشاب بهذا الشكل المفاجىء لنفسه هو ذاته ، وغير الواعي تقريباً ؟ لماذا لم يختر سودنيك جندي الهندسة ، أو كراسنوكوتسكي الضخم القوي ؟ هل من المعقول أن انصياع هذا الشاب الضعيف للطاعة هو وحده أملى عليه قراره ؟ أم الذي أثر فيه هو تسللهما المشترك اليوم عبر الطريق العامة ، حيث تحملا سوية الخطر ، وخيبة الأمل الأولى العمومية للجميع .

ومهما يكن من شيء فان الاختيار قد تم . عدل بيفوفاروف قيافته حالا ، وتجهم قليلا أو صار جدياً ، وجلس هادئاً ، على تل الثلج المدكوك .

قال ديوبين :

— الرأي لك . ماذا سأقول في مقر الاركان؟

فكر ايفانوفسكي قليلا ، وقال :

— ساكتب .

الا انهم لم يجدوا ورقة ، لم يكن هناك غير قلم رصاص مغنوم مخلخل اللب . فاضطر رئيس الرقباء ان يقتلع ورقة من دفتره المتسخ كتب عليها الملازم ، بعد قليل من التفكير :

«لم نعثر على الهدف في موضعه . تكبدت

المجموعة خسائر ، وها أنا اعيدها من حيث أتت. سأتابع أنا البحث مع مقاتل . أظن اننا سنعود بعد يومين. ايفانوفسكي. ٢٩ - ١١ - عام ٤١».

قدم هذه الورقة الى رئيس الاركان .

- وهذه القنابل اليدوية ستأخذها ؟

- نعم ، نأخذ قنبلة يدوية ، وقارورتين . يا بيفوفاروف خذ قارورتين من سودنيك ، وهات القنبلة اليدوية لي .

- حبذا لو تزودتما بالطعام ايضاً ؟

- بالطعام ايضاً . هات بقسماطا ، وزوجاً من المعلبات ، اما أنتم فستفطرون في الوحدة التموينية .

- ان شاء الله . - تنهد كراسنوكوتسكي .

- فقط أن تفتحوا عيونكم عند العبور ، فلا تقعوا تحت الرصاص مرة أخرى . ازحفوا على بطونكم ولا تبخلوا بها ، حينذاك تكتب السلامة لرؤوسكم اكثر .

وافق ديوبين على ذلك ، حين قال بهدوء :

- هذا مفهوم .

- طيب ، يبدو أن الظلام أخذ بالهبوط . يمكنكم أن تتحركوا .

كيف الحال على الطريق العامة ، يا زايتس؟

- هناك سيارة تسير باضوائها . واحدة أو أكثر ، لا أرى جيداً .

ربط رئيس الرقباء كيس متاعه . وكان

بيفوفاروف يضع في كيسه البقسماط ، وقارورتين كبيرتين من العبوات الحارقة ملفوفتين بلفاف القدم . وتقدم لوكاشوف وكراسنوكوتسكي من حكيموف ، دون انتظار امر ، وكان الثلج قد تناثر على الجريح . قال الملازم لديوبين :

- اعتن بحكيموف . ربما يبقى حتى الصباح .

- لا حاجة الى تذكيري !..

- اذن ، تحركوا !

- موفق ، يا ملازم - التفت ديوبين ، وفي ذات اللحظة اوعز للمقاتلين - تهيأوا ! امسكوا بالاسكيات ! ارفعوه أعلى ، أعلى اكثر . هكذا ...

رفعوا حكيموف ، وصعدوا من الخندق بصعوبة . وعند المتراس نظر ديوبين فيما حوله مرة أخرى . وجرى الوداع بعجالة ، وابتسار ، ولوح ايفانوفسكي بذراعه :

- موفقون .

وعندما اختفوا هناك ، وكانت قلنسوة رئيس الرقباء العالية آخر ما اختفى وراء المتراس ، جلس ايفانوفسكي على الثلج . كان يشعر بارتياح خاص لأن ديوبين لم يضع نهائياً ، بل لحق بالمجموعة ، وهو الآن يعود مع العائدين ، وسيكون آمراً مدبراً ، انسانياً ، عليه ان يعود بهم الى معسكرهم . أما هما فسيدبران امرهما

على نحوما ، وكان بيفوفاروف مايزال واقفاً في الشق ينظر من فوق المتراس العالي . قال الآمر بتبسط في الكلام ليس من طبعه ، ليزيل الحرج الذي أثاره هذا الوداع :

– اجلس ، يا عزيزي بيفوفاروف . ما اسمك الأول ؟

– بيتر .

– يعني بيتكا . وأنا ايغور . طيب ، وربما سيحالفنا الحظ في مرة أخرى ، ماذا تظن ؟

– يمكن أن يحالفنا . – قال بيفوفاروف بلا تحديد ، وهو يمسح قرنافة البندقية ، وتنهد بهدوء وتقطع .

– حسناً ، مادام لدينا وقت ، تعال نتناول شيئاً من الطعام ، فسيخف حملنا . – قال ايفانوفسكي ذلك ، فقعد بيفوفاروف ، وأخذ يفك كيس متاعه .

الفصل التاسع

خرجا من مكمنهما الثلجي بعد نصف ساعة ، حين انسدل الظلام بشكل جيد . كان كلاهما يرتجف ، وتتجمد قدماهما بشدة ، فاراد أن ينطلقا على الاسكي رأساً ليتدفئا . ولكن قبل كل شيء يجب تدقيق النظر فيما حولهما . خفت الحركة على الطريق العامة مع حلول الليل ،

وبقيت سيارات منفردة تتحرك ، ومصابيحها الجانبية ، تضيء ضوءاً شاحباً . وحولهما هدوء وخواء ، وظلام المساء يلف الآماد الثلجية بتواضعات ، والسماء الغائمة غير المنجمة تتدلى منخفضة على الفضاء الليلي الثلجي . قرر ايفانوفسكي السير باتجاه الشرق بمحاذاة الطريق العامة ، دون أن يتركها تغيب عن بصره ، مراقباً الحركة عليها . وفكر بأن السيارات ستكشف موقع القاعدة ، مثلما حدث في تلك المرة ، في الخريف .

هبطا من ربوتهما بسرعة ، وقطعا منخفضاً على الثلج الهش . وكفتهما عشرون دقيقة من السير لأن يتدفئا تماماً ، بل وأن يتعبا قليلا . لقد تركت الليلة الماضية أثرها ، على أية حال . وفضلا عن ذلك فان ايفانوفسكي خلافاً ليوم امس ، قد شعر رأساً اثناء السير بأن رجله الجريحة صارت أشد ايلاماً له ، فكان يضطر الى تحريكها بحذر اكثر ، ويضغط على اليسرى اكثر . صحيح انه كان يحاول التعود على المه هذا ، ويفكر في انه سيدبر أمره ، ويزول الألم ، فلربما رجله لا تخذله . ولكنه ، حين صعد على الربوة التالية شعر بأنه بحاجة الى استراحة. ارخى رجله قليلا ، ونقل ثقل جسمه على الرجل السليمة ، ولكيلا يتشكك بيفوفاروف في شيء . وهو يتقدم منه ، تظاهر بأنه يراقب ، وان لم

تكن هناك حاجة الى مراقبة . فقد كانت الطريق العامة على مقربة ، تمتد خالية ، والى الأمام لاترى العين شيئاً كثيراً ، فقد كانت الريح الشرقية تهب على الوجه بحدة تفجر الدموع في العيون .

سأل الملازم بصوت مازح عن عمد :

– كيف أنت ، ياصاحبي بيفوفاروف .

– لا بأس .

– هل تدفأت ؟

– بل وعرقت .

– طيب ، لنواصل السير .

سار زهاء ساعة أخرى ، وهما يتلفتان على الجانبين من حين لآخر ، والتفا حول حافة دغل ، حرش صنوبر ، وابنية صغيرة على الطريق . كان ايفانوفسكي بعد اطلاق النار من القرية يوم أمس يحاول الابتعاد عن المناطق السكنية . كانت الطريق العامة تمتد مستقيمة وبلا منعطفات في كل ، قطاعاتها تقريباً ، وقد سهل هذا تعيين الاتجاه ، وكان الملازم في بعض الاحيان فقط ينظر في البوصلة ليتأكد من الاتجاه .

وحتى مزاجه يبدو قد تحسن . كان بيفوفاروف يسير في اعقابه ، لايتأخر عنه خطوة واحدة ، وحين توقف الملازم للمرة التالية سأل وفي صوته شيء من الحيوية :

– يا صاحبي بيفوفاروف ، ماذا رأيت في حياتك ؟

– أنا ؟

– نعم ، أنت . سألت : ماذا رأيت في الحياة ؟

هز بيفوفاروف كتفيه .

– لا شيء .

– ربما قرأت كتباً ، على الأقل ؟

– قرأت كتباً – أجاب هذا المقاتل ، ولكن ليس على الفور ، وكأنما يتذكر – كل كتب جيول فيرن ، كونان دويل ، والتر سكوت ، مارك توين ...

– وغايدار ؟

– وغايدار ايضاً . وقرأت كذلك كل ما وجدته من كتب ديوما .

– أهوه ! – قال الملازم مندهشاً ، بل ونظر الى بيفوفاروف بشيء من الاحترام – ومتى لحقت أن تقرأ كل هذه الكتب ؟

– مرضت عندما كنت في الصف السادس ، ولم اذهب الى المدرسة نصف سنة فقرأتها . قرأت كل ما كان في المكتبة . كانوا يجلبون الكتب الي منها .

اجل ، وربما كان نافعاً أن يمرض نصف سنة ، ويقرأ المكتبة كلها . وكم حلم ايفانوفسكي ان يمرض في الطفولة ، وفي المدرسة ايضاً ،

ولكن لم يعاق به مرض اكثر من ثلاثة أيام . لقد كانت صحته جيدة دائماً ، ولم يقرأ كثيراً ، ورغم أن الكتب الجيدة كانت تثير فيه دائماً هزة روحية على كل حال . ولم يصادف في حياته أن قرأ أفضل من غايدار . وحتى هذا كان في الطفولة . وبعد ذلك لم يكن الأدب يهمه ، فقد جاءت كتب ذات طابع آخر .

كان الجو ساكناً فيما حوله ، كما كان في السابق ، وهادئاً بصورة عامة ، ذلك الهدوء الذي لا يوجد الا على مسافة بعيدة من الخط الأمامي . وسار ايفانوفسكي الآن دون مرارة البارحة مغالباً الثقل المحسوس في رجليه وفي كل جسده ، وألم الجرح المستديم الذي يقيد كل حركة من حركاته . والحقيقة أن الألم كان محتملا لحد الآن . وحاول الملازم ، لكيلا يلتفت اليه أن يصرف ذهنه الى شيء جانبي . كانت افكاره من حين لآخر تتجه الى المقاتلين الذين هم في طريق عودتهم الآن الى معسكرهم تحت امرة ديوبين . لعلهم الآن يسيرون بمحاذاة النهر والغمر . لطيف لو أن الثلج لم يمح درب الاسكيات ، فان ذلك سيساعدهم على التوجه . وعلى العموم قد يكون ديوبين في غنى عن ذلك ، اذ ربما يتذكر الطريق ، وعند الحاجة ستسعفه الخارطة . فالخارطة في الحرب ذات قيمة ، والمؤسف فقط أن هذه الخرائط نفسها دائماً ليست بالعدد

الكافي . وظل طوال الوقت يفكر كيف حكيموف الآن ؟ بالطبع سيتعذبون به كثيراً . ولا سيما اثناء عبور خط الجبهة . فهم الآن لايستطيعون معه أن يسرعوا ، وأن ينطلقوا على الاسكيات ، بل عليهم أن يزحفوا على بطونهم دائماً . على الاقل أن يجتازوا . ولكن ديوبين ، في أغلب الظن ، يعرف كيف يجتاز ، ويجب أن يجتاز . وديوبين ايضاً سيوضح لرئيس الاركان فشلهم ، ويدافع على نحوما عن المجموعة وآمرها . ولكن ما شأن الآمر هنا ؟ من كان في وسعه أن يتصور أن كل شيء سيتغير بهذا الشكل خلال عشرة أيام ، وأن الألمان سينقلون القاعدة ؟

وايفانوفسكي شخصياً لم يكن يعتبر نفسه مذنباً في شيء ، وقد فعل ، على ما يبدو ، كل ما كان في امكانياته . ومع ذلك فان دودة التقصير الذميمة ظلت طوال الوقت تدب في نفسه . فقد كان يبدو ، على كل حال ، وكأن الملازم لم يفطن الى شيء ما ، وفي النتيجة لم يبرر الثقة به . وعدم تبرير الثقة هذا بالذات كان يقلقه اكثر من أي شيء آخر . والآن كان الملازم ينكمش تماماً من التفكير في أن محاولته هذه لن تجني شيئاً .

كان ايفانوفسكي يعرف جيداً ما معنى العيش الرخي ، وافساد الرأى الحسن عن الانسان . وقد صادف في حياته أن أسماء

استعمال الثقة ، فلم يستطع قط أن يعيد حسن الظن الذي كان له عند انسان كان عزيزاً عليه .

كان ايغور ايفانوفسكي قدا تم الرابعة عشرة قبل وقت قصير ، وكان يعيش للسنة الخامسة ، في كوبليتشي – وهي منطقة هادئة صغيرة عند الحدود البولونية ، حيث كان أبوه يعمل طبيباً بيطرياً في آمرية الحدود . ولم تكن التسليات في المنطقة كثيرة . وكان ايغور يذهب الى المدرسة ، ويتصادق مع الاولاد ، الا انه كان يقضي جزءاً كبيراً من وقته في اسطبل الآمرية . وكانت الخيول ولعه لسنين عديدة ، ولربما اكبر ولع له ، وهوايته التي استحوذت على كل مراهقته . فكم من مرة نظفها وغسلها وكم من فرس ركبها بسرج او بغير سرج . ولحوالي ثلاثة اعوام متتالية لم يلحظ حوله شيئاً غير خيوله ، وكان كل يوم ، بعد انتهاء الدروس ، يهرع الى الاسطبل ولا يغادره الا للنوم ليعود في الغد من جديد في وقت مجيء الخفير . وكان رجال الحدود يمزحون أحياناً بأن ايغور حارس دائمي للاسطبل ، وكان من الممكن ان يكون كذلك بارتياح ، لولا الدروس في المدرسة .

فقد كان في الاسطبل الكثير جداً من الأشياء المسلية ، ابتداء من العلف وسقي الخيول وتنظيفها بالمكشطة والفرشاة وانتهاء بشعيرة اخراجها المهيبة بنظام ، ولغط رجال الجيش

الأحمر ، وتشدد الرئيس الكبير ، الذي كان يتأكد من نظافة جنوب الخيول بمسحها بمناديل الجيب . كان شيء جذاب بلا حدود في الخروج بالخيول وركوبها وفي التدريبات على المناورات في ركوبها ، وبالطبع ، كانت تسحره كلياً قطع العساليج في الساحة وراء الاسطبل ، حين كان الخيالة ينطلقون بكل سرعتهم خلال صفوف الاعمدة حاملة العساليج ، باترين يميناً ويساراً طرفها . ثم ما أبدع الحركات الفروسية للملازم خكاسوف الشهير أجرأ فارس في الفصيلة !

ولكنه كان يراقب الخروج بالخيل ، والبتر ، والحركات الفروسية متفرجاً في ناحية ، ولم يكن يشارك فيها لصغر سنه ، ولم يكونوا يسمحون له في اصطفاف ، بل ولم يتركوه مرة واحدة يركب حصاناً وبيده سيف . والأمر مختلف بالنسبة لاستحمام الخيول . فبالقرب من شاطىء بحيرة معشوشب ، عند جرف رملي كان يوجد مربط خيول قديم مقضوم ، وكانوا في كل ظهيرة حارة تقريباً يأتون بالخيول العرقة المتعبة التي كانت تندفع نحو الماء . ويبدأ الاستحمام ، وفي هذا الوقت كان ايغور ايفانوفسكي يشبع رغبته ، وهو يطرطش بالماء حتى يخرج آخر حصان من البحيرة .

كان في العادة يمتطي «ميلكا» وهي فرس فتية صهباء لها فلو وثاب رقيق القوائم . وكانت

ميلكا هذه مسجلة على آمر القسم ميتيايف الذي انعقدت بينه وبين ايغور علاقات خصوصية تماماً ، بل ولربما غير اعتيادية بالنسبة لغلام مع رجل راشد . ورغم أن ميتيايف هذا كان يقضي مدة الخدمة الاعتيادية الا أنه ، خلافاً للمقاتلين حراس الحدود الآخرين في سنهم العشرين ، بدا لايغور عجوزاً تقريباً ذا وجه مخدد بالتجاعيد ، ومشية ثقيلة ، وبطء كهل ريفي . كان ميتيايف من مواليد سيبيريا ، وقد ترك في بيته هناك بنات راشدات ، وكان يجب أن يدعى الى الخدمة منذ زمان بعيد ، ويقضي مدتها ، لولا ارتباك في الوثائق التي كانت تؤكد أن ميتيايف لم يتعد الثانية والعشرين . وميتيايف نفسه لم يكن قادراً أن يوضح كيف وقع هذا ، ويكتفي بان يلعن شماساً سكيراً في الكنيسة اضطر بسببه ان يخدم مع الذين يصلحون أن يكونوا ازواجاً لبناته.

لم تكن الخيول جديدة على ميتيايف الذي رأى الكثير منها في حياته في اغلب الظن ، فكان يأتمن ابن البيطار الحذق على فرسه برحابة صدر . وكان ايغور يطعمها ، وينظفها ويغسلها، ويتريض معها ، بينما كان ميتيايف يعلمه ويمتدحه ، او مجرد يستريح في المكان المخصص للتدخين ممتصاً الانفاس من سيكاره . وكان يدافع عن مساعده هذا ، أمام أبيه ، حين كان الأب يقرعه على تغيبه الطويل الذي قد أثر بالطبع في

الدروس، وعلى العموم كانت علاقاته مع ميتيايف على أحسن ما تكون فكان أبوه يقول غير مرة أن هذا السيبيري ربما سيحل محل ابيه . ولم يكن ايغور يعترض ، فقد كان يعتبر ميتيايف في واقع الحال أحسن من ابيه الذي لم يكن يعيش مع أمه ، والذي كان يحب الشرب ، ولا يولي أي اهتمام لابنه البعيد عن رقابة الوالدين .

وذات مرة أخلت حادثة صغيرة بالانشغال الاعتيادي بالخيول عند البحيرة . فقد جلبوا قارباً الى مكان الاستحمام . وجلبه رئيس الرقباء بيلوش على عربة يجرها حصانان . وجربه على الماء ، وقال ان هذا الزورق يعود الى آمر آمرية الحدود زاروبين نفسه ، ولن يجروء أحد أن يمسه باصبع . ولكي يضمن الحفاظ عليه جاء بسلسلة ، وشد القارب الى مربط الخيول ، ولسبب غير معروف ظل القارب طوال الصيف تقريباً مركوناً على الشاطىء لم يستخدمه زاروبين ، بينما كان أولاد المنطقة وهذا شيء مفهوم ، يتحرقون رغبة في استخدام القارب على البحيرة .

وذات مساء ، عندما تم استحمام الخيول ، وربطت عند المرابط ، وذهب الحراس الى الآمرية لجلب الغذاء . تناول ايغور الصنانير التي جلبها من البيت ، وذهب الى المجرى لبصطاد السمك . ولكن حظه لم يكن جيداً ،

وهم أن ينتقل الى مكان آخر حين خرج من دغل جار الماء زميلاه في المدرسة كولكا بوروفسكي ، وياشا فينكل . وبعد حديث قصير لمحا الى امكانية «نشل» قارب الآمر ، والعبور به الى الجانب الآخر ، حيث كانت تلوح غابة صنوبر كبيرة ، لم يصل اليها اي واحد منهم . وبدا هذا المشروع لايغور ممتعاً للغاية ، فكم من أولاد المنطقة جذبهم ذلك الشاطىء ، ولكن الوصول اليه كان صعباً ، فقد كان يوجد في الطريق اليه مستنقع لزج فيه مناطق عميقة عند رأس المصب ، كان الناس يقولون أن جنية الماء تعيش فيه . وكان من المغري الحصول على القارب ، ولكن ميتيايف بقي خفيراً عند المربط ، وكان مسؤولا على هذا القارب أمام زاروبين نفسه . وعندما ذكر ايغور ذلك للصبيين ، قابلاه بضحكة استهانة . وتبين انهما تأكدا من أن ميتيايف نائم على برذعة تحت أجمة، أما بخصوص القفل ، فقد وضع كولكا أمام ايغور المفتاح الكبير لسقيفة أبيه الخشبية المغلقة بقفل مثل قفل قارب زاروبين تماماً . ولم يبق امام ايغور غير أن يأخذ هذا المفتاح ، ويفتح قفل القارب بخفة وبساطة .

لم تكن لهم مجاذيف ، ولم يجدوا غير مردي طويل من أشجار الشوح ، وجروا القارب الى الجرف بهدوء ، وقفزوا اليه . في البداية دفعوا

القارب بالمردي ثم أخذوا يجذفون بأيديهم ، وخرج القارب على نحوما الى وسط البحيرة ، وهنا اكتشفوا أن القارب قد تشقق من الجفاف على الشاطىء اكثر من اللازم ، وأن الماء يتدفق من جانبيه سيولا . ولم يكن لديهم ما يغرفون به الماء منه ، فحاولوا أن يتخلصوا منه براحات اكفهم ، ولكن القارب ظل يغوص تحت الماء من مؤخرته ، وسرعان ما اضطر الاولاد الى تركه بعجالة . ومع ذلك فقد وصلوا الى الشاطىء ، وهم يشرقون بالماء الدافىء . وغرق القارب ببطء .

كان ميتيايف عند المربط يغط بنوم عميق حتى أنه لم يسمع شيئاً . أما الاولاد فجففوا ثيابهم في تلك المنطقة الواسعة ، وتفرقوا الى بيوتهم عند المساء . وبالطبع بدا في الغد بحث عن القارب المفقود وتبين أن شخصاً رأى بالقرب من مكان الاستحمام أحد أبناء المنطقة يدعى تيومكين معروف بشقاوته ، فحرر محضر في حقه . كما حاولوا استجواب ايغور ايضاً ، الذي كان عند المربط في الصباح ، ولكن ميتيايف لم يكن قادراً حتى أن يتخيل الصبي الاثير عنده في دور المختطف ، وبرأ ساحته . وعندما اعترف ايغور لميتيايف بذنبه بعد يوم ضاغطا على نفسه ، لم يصدقه هذا في بادىء الأمر . واضطر الى ان يشير الى المكان ، الذي غرق فيه القارب

في القاع الغريني غير العميق ، وسرعان ما
رفعوه من هناك ، وسحبوه الى الشاطىء . وحين
رآه ميتيايف اكتفى بأن بصق على الرمل ،
وابتعد جانباً حتى دون أن ينظر الى مساعده
المحبوب . فانتهت بذلك صداقتهما التي استمرت
عامين . وبعد هذا والى أن سرح من الجيش لم
يقل ميتيايف اية كلمة للصبي وكانما لم يكن
يلحظه اطلاقا ، ولم يرد على سلامه حين يمر به،
بل ولم يوله نظرة . ولم يتكدر ايغور ، فقد كان
يعرف أنه يستحق هذا الازدراء تماماً .

سرعان ما بدت في طريقهما غروسات
صنوبرية فتية فمرا سريعاً بين صفوفها ،
وفجأة جمد كلاهما على الفور . عند الحافة تماماً
ظهر أن هناك طريقاً كانت السيارات تتحرك عليه
في الظلام ببطء، مترنحة على وعورة الطريق، وهي
الآن في ناحية . وتصور ايفانوفسكي انه قد اضل
الطريق ، وخرج الى الطريق العامة ، ولكنه
أدرك بسرعة أن هذه ليست الطريق العامة على
الاطلاق ، بل ربما فرع منها يمتد في ناحية .
ولكن لم هذه السيارات على الطريق الفرعي ؟

وقف قليلا على الحافة مفكراً . كانت
السيارات تسير على مقربة تماماً ، والامامية
منها تضيىء مصابيحها ، وحوضها العالي المغطى
يترنح مهتزاً على وتعرجات الطريق ، والسيارات

الثلاث التي كانت تسير وراءها هي الاخرى ذات
احواض عالية مغطاة . ولم يكن في الامكان معرفة
ما تنقله . ولكن سيرها في ناحية مبتعدة عن
الطريق الرئيسي مد الملازم ببعض الأفكار
المشجعة . فتحول متعقباً اياها بمحاذاة حافة
الاشجار ، دون أن يقترب من الطريق .

الآن صار يسير ببطء شديد ، ويتوقف
غالباً ، ويتسمع . ظلت الزمزمة الصماء البعيدة
لمحركات الديزل تسمع لبعض الوقت ، ثم
طغى عليها خفق الريح ، فكأنها خمدت رأساً .
كان ايفانوفسكي يعدل من حين لآخر الحزام
الذي كان ينزلق تحت ثقل القنبلة اليدوية ،
وينظر الى بيفوفاروف . كان هذا على مقربة منه،
وقد هدأ متحسساً الخطر ، لايكاد يسيطر على
أنفاسه .

- طيب ، لنر ماذا هناك . توقف قليلا .

هز بيفوفاروف رأسه ، وعدل البندقية وراء
ظهره وقد حز حزامها صدره الضيق في بدلة
التمويه البيضاء . ان المساعد هذا رخو الجسم،
ولكن حتى المتين البنيان سينهد في هذا
الظرف ، على الاغلب . سار ايفانوفسكي على
الحافة واسكيه يرسل هسيساً على الثلج .

بعد قليل انتهى الحرش ، وظهر أمامه سيل
او جدول . والاجمات على جانبيه . عبره
ايفانوفسكي بجهد ملحوظ بيديه انسان متعب ،

وسار مسافة في حقل . واذا به يرى طريقاً بشكل مفاجيء حتى لنفسه – خطين حفرتهما عجلات السيارات عميقاً في الثلج . عاد راجعاً الى الوراء ، وسار في الحقل مسافة لكيلا يعبره ، ويضيع من بصره .

وبعد قليل ظهرت قرية فجاة – طلع سطح سقيفة قريب في الظلمة الرمادية دون أي صوت ، ولا التماعة ضوء ، ووراءه سقف آخر ، ولعن الملازم نفسه في سره ايضاً ، على غفلته هذه ، فقد كان يجب الابتعاد عن القرى اكثر ما يمكن . وهم أن يتحول ناحية ، واذا بصره يقع وراء زاوية السقيفة على ملامح تميز آلية مجنزرة . وكان هناك شيء آخر ، غير معلوم ، يبدو هائلا في الظلمة ، يطلع منه الى السماء عمود مرن نحيل ، وحين أمعن الملازم النظر ادرك أنه موصل لاسلكي . وبالطبع لم يكن من الممكن أن تكون اية قاعدة في قرية ، ولكن من الممكن تماماً أن تبيت فيها وحدة المانية من وحدات المؤخرة او السير .

سأل ايفانوفسكي رفيقه بهدوء :

– هل رأيت ؟

– نعم .

– ما هو ، في رأيك ؟

هز بيفوفاروف كتفيه لا غير ، اذ لم يكن يعرفه مثلما كان لا يعرفه الملازم الذي وجه اليه

هذا السؤال . ولو كان لدى ايفانوفسكي ولو خمسة او عشرة مقاتلين ، لما أباح لنفسه مثل هذا التبسط ، ولكن بيفوفاروف هذا كان له الآن اكثر من مجرد مقاتل . كان مساعده الأول ونائبه ومستشاره الرئيسي ، اذ لا يوجد شخص آخر غيره هنا .

القى ايفانوفسكي اسكيه جانباً ، وتحول الى الحقل . وتحول بيفوفاروف ايضاً ، واخذا يقومان بالتفافة حادة . ولكن الآمر ما ان سار دقيقة في الحقل المغطى بالثلج حتى اوقفته فكرة طارئة : ماذا لو كان هذا مقر أركان المانياً كبيراً ؟ عندها سيكون مقر الاركان صالحاً لهم اكثر من تلك القاعدة المنحوسة التي لا يعرف اين يبحث عنها في الليل .

وقف دقيقة في الريح متأملا ، مفكراً فيما سيتخذه من قرار . وكان بيفوفاروف ينتظر الى جانبه ، وقد أدرك هذا المقاتل ، كما يبدو ، أن آمره كان يتخذ قراراً مهماً بالنسبة لكليهما ، فانتظر هذا القرار برباطة جأش هادئة معهودة من جندي . بينما كان ايفانوفسكي يفكر : سيكون من باب الاحتراس اكثر لو تجاوزا وكر الزنابير هذا ، ولكن ربما من النافع اولا ان ينسل اليه اكثر ويستطلع ، لعله يظفر بتفصيل .

وبينما كانا واقفين في تردد ، شعت في مكان من القرية رقعة ضوء باهتة ، وتنور شيء

على الثلج وخمد على الفور . وهذه الالتماعة من الضوء لم توضح أي شيء قط ، ولكنها اظهرت في الظلام اتجاهاً ، مكاناً محدداً . وكان ذلك شارعاً في الظاهر ، ومع ذلك فقد قرر الملازم ، على كل حال ، أن يقترب منه ، اكثر ما يمكن ، لكي يعرف ماذا يحدث هناك .

— بيفوفاروف ، تأخر قليلا ، ثم أتبعني بهدوء .

هز بيفوفاروف رأسه موافقاً . سار ايفانوفسكي باتجاه القرية دافعاً عصويه بتصميم. في بادىء الأمر ظهر في طريقه سياج قديم محطم ، انسل من خلال فتحة فيه الى حديقة خضروات ، ورأى في ظلمة الليل شجيرات هزيلة بأجمة ، شبيهة بتلك التي توجد في الفواصل بين حقلين . تحول الى تلك الشجيرات: وتحت غطائها سار بهدوء على ثلج غير عميق صوب اشباح ابنية باهتة السواد . وحوله سكون كالسابق ، ولسعة برد ، والريح تهب دفقات ، وفي الهواء تمرق ندف ثلج غير كثيفة وعلى انحراف . ولم يصل اليه في مكانه هذا اية أصوات محددة ، ولكن ايفانوفسكي كان يحدس، بأمارة غير قابلة للتوضيح ، وجود غرباء في القرية لا يمكن الآن الا أن يكونوا المانا . واقترب من الابنية بحذر شاعراً بأن شيئاً سيتكشف له بين لحظة وأخرى .

والآن لاح على مقربة دانية سطح سقيفة مرتفع مغطى بالثلج ، وبالقرب منه كومة دريس مسنودة باعواد ومائلة الى جنب . وقد أنتهت الشجيرات في الفاصل بين الحقلين فجاة ، وفي آخر الصف شجرة كمثرى كثيفة الاغصان ، ذات جذع سميك تلحظه العين وسط شجرة كرز نحيلة العود . لحظها ايفانوفسكي من بعيد ، ففكر في انه سيتعين عليه ، كما يبدو ، ان يجلس وراء شجرة الكمثرى هذه ، ويترصد . ولكن قبل ان يصل الى الشجرة ، ظهر من مكان غير معلوم تماماً قبل كومة الدريس شخص في لباس طويل مفتوح ، فجفل ايفانوفسكي ، وحدس في ذهنه: انه الماني ! تجمد الالماني من المفاجأة متفرساً فيه ، ولكنه هدأ قليلا ، على ما يبدو وراطن من بعيد :

— Es schien ein Russ*...

لم يفهم ايفانوفسكي شيئاً ، ولعله جذب مقبض رشيشته المتدلية على صدره بقوة بالغة ، فصلصل الترباس في السكون صلصلة عالية . وادرك الالماني كل تورطه ، فصرخ مسحوقاً في هلع تقريباً ، وانطلق بعدو مبتعداً عن كومة الدريس مخترقاً حديقة الخضروات الى البيت المجاور . جلس ايفانوفسكي ذاهلا

* اظنه روسيا ... (بالالمانية) .

لثانية واحدة ، وفي اللحظة المناسبة ، كما يبدو ، فان طلقة وحيدة انطلقت من المباني ، وفرقعت الرصاصة في اغصان الأجمة بصوت مرن . ولكن ايفانوفسكي كان قد تهيأ ، وارسل صلية قصيرة واطئة الى الزاوية الرمادية وراء السياج ، ثم صلية أخرى أوطأ على الهارب الذي أوشك على الاختفاء في ظل مبنى . الا أن طلقات الاخيرة كانت زائدة ، فان الألماني غاص برأسه في الثلج حالا ، وجمد في مكانه . دفع ايفانوفسكي خشبة اسكيه اليسرى بالانعطاف الشديد على الفور ، واختطف عصا واحدة ، أما الثانية فقد اوقعها في الثلج لعجالته ، وما كاد ينحني ليلتقطها حتى شع في ظلام الفناء وهج احمر مرة أخرى ، وارسل ايفانوفسكي أنة خفيفة من ضربة عميقة حادة في ظهره . وادرك على الفور أنه قد جرح ، فاندفع بجنون على اسكيه تاركاً حديقة الخضروات هذه ، الى حيث كان بيفوفاروف في انتظاره .

والظاهر أن الألمان تأخروا ، فاهدوا له ربع دقيقة من الوقت الغالي عليه . وقد قطع نصف المسافة بين الأغراس ، في حين أنهم بدأوا فقط بالخروج من الافنية الى الحديقة . وقد صرخ أحدهم بلهجة آمرة حادة ، فانطلق حوالى خمسة أشخاص يطاردون . وقد رآهم ايفانوفسكي بوضوح ، التفت وتأخر ثانية ، مفكراً هل يقف

ليقضي عليهم بنار رشيشته بسرعة ، أم ينزلق في الظلام باسرع وقت . ولكن الوقت لم يسرع به ، وبعد قليل وهن من الألم ، وهو لا يكاد يحرك اسكيه .

من الخلف اطلقت النار عدة مرات ، وفي الغالب باصوات غير عالية ، وشبيهة بتلك التي تصدر من مسدسات الا أنه افلت منهم ، والآن صارت اصابته صعبة . ومع ذلك فقد ارتطمت رصاصة عند قدميه تماماً . احنى قامته أكثر ، دون أن يلتفت ، وحاول بكل قواه المتضائلة أن يخرج من حديقة الخضروات أسرع . ولكن رصاصة أخرى حركت وترها الصارخ فوق رأسه تماماً ، فهيأ رشيشته ليطلق صلية ، واذا بصوت اطلاقة مرن قوي يصدر من الأمام ، يتبعه صوت اطلاقة أخرى . وأدرك بفرح ، وبما يشبه النجاة ان هذا بيفوفاروف ، فقد كان يعرف صوت بندقيته في اي مكان . ومن الظلام تتابعت مقابله تقريباً ثلاثة اطلاقات أخرى ، واحدة تلو الأخرى ، ومرت الرصاصات على مقربة شديدة . ولكنه كان واثقاً أن رصاصته لن تصيبه :

— اسرع ، أيها الرفيق الملازم !

سقط ايفانوفسكي قبل أن يصل الى السياج بمسافة قصيرة ، ولكن ليس من رصاصة في الصدر ، سرعان ما أخذت تتحكم في النصف الايمن من جسمه كله ، بل من ضيق التنفس .

واطلق زفرة . كان يعرف أن بيفوفاروف في مكان على مقربة منه ، ولن يتركه .

بصق ثلجاً ، وحاول على الفور أن ينهض ، ولكن رجليه ثقلتا بشكل غريب ، كما كانت تعيقه خشبتا الاسكي اللتان تصالبتا عند سقوطه . طفرت احداهما من قدمه كلياً ، حين جذب الاخرى واطلقها ايضاً من المشد . ومن الخلف صدرت عدة طلقات أخرى ، غير أنهم لم يكونوا يتعقبونه كما يبدو . كبحهم بيفوفاروف الذي جاء راكضاً اليه من الظلام .

– ايها الرفيق الملازم !..

– سكوت ! هات يدك .

– صرعت واحداً منهم ! وليجرأوا الآن على الظهور ...

يبدو أن المقاتل لم يندهش كثيراً من جرحه ، ساعده على النهوض ، بسرعة . الظاهر أنه كان مشغولا بشيء آخر ، بل لم يحاول أن يخفي ذلك . يبدو أنه لم يحدس حتى أن في الامكان الآن ببساطة أن يقضوا عليهما كليهما في هذه البقعة .

أراد الملازم أن يجمع الاسكيات ، ولكن رأسه دار مرة أخرى ، فانغرز بكتفه في الثلج الصقيعي الناعم . والآن فقط يبدو أن بيفوفاروف فهم حالة آمره ، فقذف الاسكي من قدميه ، وهرع الى مساعدته من جديد .

– هل أنت بخير ، ها ؟ ايها الرفيق الملازم ؟

– لا بأس ، لابأس – نفث ايفانوفسكي من صدره – اسندني ...

كان يجب أن يغادرا المكان باسرع ما يمكن، فان الالمان يمكن أن يدركوهما من لحظة الى اخرى . صمت بيفوفاروف فجأة ، وقاد الملازم ساندأ جسمه المتثاقل ، مبتعداً به في الظلام الى الحقل ، بعيداً عن القرية . جرجر ايفانوفسكي نفسه في الثلج طائعاً ، غير مسيطر على رجليه، ورأسه يدور كالسكران ، وبدأ يشعر برغبة في القيء . بصق مرتين على الثلج شيئاً داكناً غزيراً ، ولم يدرك رأساً أنه دم . وفكر مع نفسه بشماتة وكأنما يفكر بشخص آخر غيره : «يالحظك الجميل ، يالحظك الجميل !»

لم يكونا يتلفتان ولكنهما كانا يسمعان دون الالتفات ، أن الهرجلة لا تنقطع وراءهما ، والصيحات تتوالى . صحيح أن الطلقات توقفت ، ولكن الاصوات الهالعة التي كانت تتردد باستمرار لاتفتأ تلاحقهما . اكثر من الطلقات . والظاهر أن الألمان كانوا يتوافدون على طرف القرية ، او ربما يتعقبونهما . وقد صار ايفانوفسكي مبللا بالعرق والدم ، وقد ظهرت بقعة داكنة سوداء على جنبه من خلال قماشة بدلة التمويه ، فكان يتنفس بصعوبة وتلاحق انفاس ، باصقاً تخثرات

الدم من حين لآخر . ولعدة مرات سقط كلاهما ، ولكن بيفوفاروف سرعان ماكان يلتقط انفاسه، وينهض وثباً ، ويمسك الملازم من تحت ابطه ، فيعاودان السير بترنح وتخلخل في الظلام الصقيعي الرمادي ، في خط متعرج عبر حقل شتائي عصفت به مختلف الرياح .

وحين نفدت قواهما كليهما الى آخرها ، بصق الملازم فقاعة دموية ، ونخر «قف !» وسقط على الثلج بجنبه . وسقط بيفوفاروف الى جانبه . والآن لم يعد أي شيء يسمع أو يرى في اي مكان ، بل ولم يكن مفهوماً لهما في اية جهة تقع القرية الآن ، وبدا وكأنهما ابتعدا الى آخر الدنيا ، حيث لا وجود لجماعتهم ولا للألمان، وحين استرد بيفوفاروف انفاسه ، جلس على الثلج .

قال ، وهو ينبش في جيوبه بحثاً عن ضمادة :

– سنضمد الآن . أين جرحت ؟

– في الصدر . تحت الذراع هنا ...

– لا بأس ، لا بأس ! حالا ، سأضمدك . ما ان سددت عليه حتى اصبته . أما الآخر فاراه قد هرب . اطلقت مشطا كاملا .

استلقى ايفانوفسكي على ظهره ، وفك حزامه ، وصداره . وراح بيفوفاروف يحرك يديه الباردتين على جسمه . والدم الذي تشبعت به

الثياب بغزارة اخذ يبرد وراح يلذع في الصقيع كالجليد . وعلى كل حال فان الثلج الذي تسرب الى كل موضع يمكن أن يلذع ، فكان الملازم يرتجف من البرد من حين لآخر ، ولكنه تحمل صامتاً . شد بيفوفاروف صدره بشدة بلفتين أو ثلاث من الضمادات ، وربط اطرافها بقوة .

– يوجعك كثيراً ؟

– نعم ، يوجعني – اجاب ايفانوفسكي بانزعاج – كفى ، شد الحزام .

ساعد بيفوفاروف آمره بأن يعدل قيافته ، وشد الحزام على الصدار ، والبسه سترة بدلة التمويه ، فاخذ الملازم يشعر بالدفء يتسلل اليه بالتدريج ، رغم أن جسمه ظل نهبة لقشعريرة خفيفة عصبية كانت تقطع انفاسه .

قال بيفوفاروف ، وهو يمسح بسرواله يديه الملطختين بالدم :

– ما كان يجب أن نذهب الى هناك .

– صحيح ؟ ولماذا لم تقل ذلك من قبل ؟

هز بيفوفاروف كتفه ، وقال :

– لم اكن اعرف .

– وهل كنت أنا اعرف ؟

قال الملازم في ضيق . وكان يدرك انه يتحول الى حانق وظالم ، وان بيفوفاروف لا علاقة له فيما حصل ، وانه هو المذنب في كل شيء .

ولكن هذا الوعي ذاته بهذا الذنب كان يحنقه اكثر من اي شيء آخر . أجل ، انه الآن قد وقع في ورطة ، كمن اوقع نفسه في تهلكة ، وجر بيفوفاروف اليها ايضاً ، وافسد كل مهمته عن القاعدة ، ولم يحصل على شيء في القرية . ولكن لم يكن في وسعه أن يتصرف بغير ذلك : ان يتحاشى القاعدة ، ومقر الاركان ، وهذه القرية، وبذلك ينجو بجلده . فان ذلك سيكون في الحرب بمثابة انتهاك للحرمات .

— هات اقراص الرصاص ، وكذلك الرشيشة . سأحملها — قال بيفوفاروف بخفوت ، ووافق ايفانوفسكي صامتاً ، فهو الآن ، بالطبع، غير قادر على حمل الكثير . جمع في نفسه بقايا قواه البائسة ، واستدار فقط ليقعد على الثلج .

— يجب أن نرحل .

— نعم . من هنا . لنذهب ، — قال بيفوفاروف بحيوية — نعم والله . في مكان ما قرية .

— قرية ؟

— نعم . يجب أن ندخل قرية . بدون ألمان ، بحيث .

وفكر ايفانوفسكي : اظن بيفوفاروف على حق . الآن لم يبق امامهما غير الاختفاء في قرية ، بين الاهالي . ومامن مكان آخر يلجآن اليه .

ولم يدرك راساً كيف أن جرحه هذا غير كل خططه . الآن يظهر ان عليه أن يهتم فقط في أن لايقع على الالمان . لم يعد البحث عن القاعدة في ميسوره ...

الفصل العاشر

ظلا يسيران غائصين في الثلج الى الركاب، يجرجران انفسهما بلا حول ، يتشبث احدهما بالآخر ، يكادان يسقطان على الثلج من التعب . كان بيفوفاروف يستنفد قواه ، ولكنه لم يكن يتأخر عن الملازم ، سانداً اياه بيده اليمنى ، ساحباً باليسرى الرشيشة والبندقية من حزاميهما ، كما كان كيس المتاع ينزلق من كتفه طوال الوقت . ولم يعد ايفانوفسكي يقوى كلياً على تحمل هذه العذابات ، ولكنه كز على اسنانه ، واجبر نفسه على السير بجهوده الاخيرة ، لمجرد أن يبتعد اكثر ما يمكن عن هذه القرية التعيسة .

وفي غضون ذلك تساقط الثلج في الليل ، وابيض ما حولهما فجاة ، وتلفع بالضباب ، وانطبقت السماء الكدرة على الارض الكدرة المغلقة بسيل متواصل مطرد من ندف الثلج . وكان من المتعذر ان يرفعا وجهيهما . ولكن الريح كانت أضعف من ريح البارحة ، كما انها كانت تهب على الظهر ، فكانا يتخبطان في الحقل

على غير هدى . وكان ايفانوفسكي يلحظ تسرب قواه بأسى ، ولكنه كان يسير بعناد ، آملا بملجأ يأوي اليه ، فلا يموت هنا ، في هذا الحقل . ولم يكن يريد أن يموت ، مادامت الحياة في جسده ، وكان مستعداً لأن يصارع ولو الليلة كلها ، والنهار الذي يعقبها ، والى الأبد ، فقط أن يسلم ، أن يظل حياً ، ويعود الى معسكره .

ولعل بيفوفاروف شعر بذلك ، ولكنه لم يقل شيئاً للملازم ، سوى أنه ظل يسنده قدر ما يستطيع ، حاشداً بقايا طاقاته ، التي لم تكن طاقات عملاق على الاطلاق . ولعل الملازم ، في ظروف أخرى ، كان سيندهش من أين جاء بها هذا الشاب النحيف الواهن في مظهره ، ولكنه هو نفسه ، الآن اكثر وهنا منه ، ومعتمد كلياً على طاقاته ، وان كانت قليلة . وكان يعرف أنهما اذا سقطا ، ولم يستطيعا النهوض ، فسيزحفان بقية الطريق ، لأن نجاتهما ، مهما يكن من شيء ، هي الى الامام ، والموت كان في انتظارهما من الخلف .

توقفا بتردد مرة أو مرتين في منخفض عميق الثلج الى حدما . حاول بيفوفاروف ، وهو يسند الملازم ، أن يتبين شيئاً ما الى الامام ، وهو ما لم يلحظه الملازم رأساً . وبعد ذلك ، حين تفحص من خلال الدوامة المتكاثفة في الليل ،

أخذ يميز بقعة داكنة كان من المستحيل تحديد حجمها والمسافة التي تبعدها عنهما . كان من الممكن ان تكون أجمة قريبة ، أو مبنى بعيداً ، وقد تكون شجرة ايضاً ، شجرة شوح على حافة . ومع ذلك فان هذه البقعة أثارت الحذر في كليهما. فكر بيفوفاروف قليلا ، وأنزل ايفانوفسكي على جنبه :

— سأذهب ، وارى ...

لم يجب الملازم ، فقد كان الكلام يصعب عليه بشكل مؤلم ، وكان يتنفس بحشرجة ، وكثيراً ما يبصق على الثلج . مسح شفتيه المبللتين بكم سترته ، فتبقت بقعة داكنة من الدم على القماشة البيضاء الرطبة .

— يبدو انها النهاية ...

وفكر مع نفسه بشجى ، وهو منطرح على الثلج : «الظاهر أن الحياة لن تمتد بى ، ما دام الدم يخرج من الفم» . وارتخى رأسه نحو الأرض ، وتراقص أمام عينيه شرر ناري برتقالي . ولكن وعيه بقي صافياً ، فاجبره هذا على ان يكافح من أجل نفسه ، ومن أجل هذا المقاتل ، منقذه الآن . والمنقذ نفسه لايكاد يقف على قدميه ، ولكن الملازم لم يكن في امكانه حتى الآن ان يلومه على شيء . فقد كان بيفوفاروف سواء في القرية هناك أو في الحقل هنا يتصرف بطريقة محمودة للغاية . والآن ، وقد شعر بتفوقه على

آمره ، بدا وكأنه استمد حيوية ، وصار اكثر ثقة بنفسه ، واكثر حذاقة ، حتى أن الملازم راح يفكر بوثوق في أنه لم يخطىء ، حين اختاره معيناً .

انتظر الملازم بصبر بضع دقائق ، متسمعاً بوحشة الى الدمدمة الغريبة في صدره الجريح . والى جانبه كيس متاع بيفوفاروف ، وفكر في أنه سيتعين عليهما ، كما يبدو أن يخففا من ثقلهما وأن يتحررا من بعض حمولتهما . الآن لاحاجة بهما الى احتياط كثير ، ولا يلزمهما غير سلاحهما ، وخراطيش ، والقنبلتين اليدويتين . أما القوارير الحارقة فتبدو أن الحاجة انتفت اليها الآن . ولكنه قد خارت قواه وما كان في وسعه حتى أن يفك كيس المتاع ، فاحنى رأسه الى الارض قليلا . ولم يلحظ رأساً كيف ظهر من الغبش الثلجي ، وبدون ضجيج ، شبح بيفوفاروف الأبيض ، الذي أخذ يتكلم فرحاً اثناء سيره :

— حمام ، أيها الرفيق الملازم ! هناك حمام ، ولا يوجد أحد .

وفكر ايفانوفسكي : لطيف أنه حمام ، وصار صامتاً يجاهد لينهض على قدميه . تناول بيفوفاروف كيس المتاع ، والرشيشة ، وساعد الملازم على النهوض ، وسار ثانية نحو مبنى الحمام الشبحي المضبب البعيد .

وبالفعل وجدا حماماً قروياً صغيراً مبنياً من

فروع اشجار الشوح يفوح برائحة دخان . ازاح بيفوفاروف بقدمه العصا التي تسده ، فانفتح الباب الواطىء من تلقاء نفسه . احنى ايفانوفسكي رأسه ، وامسك الجدران بيديه ، ودخل في الظلمة الضيقة المدخنة ، وتلمس الجوانب بيديه فلمس عوداً ناعماً ، ومقشمات مخشخشة على الجدار . وخلال ذلك فتح بيفوفاروف باباً آخر ، ففاحت في مدخل الحمام رائحة قوية هي مزيج من رائحة الدخان والرماد وعفن خشب البتولا . ودخل الى هناك ، وتلمس في الظلام ، ثم دعا الملازم :

— تعال الى هنا . توجد هنا مسطبة ... الآن ساضيء ...

عبر ايفانوفسكي العتبة ، وهو يتشبث بالعضادة ، وتلمس المسطبة ، وتمدد عليها زافراً بحشرجة ، وحذاؤه يمس الجدار .

— اغلق الباب .

— حالا ، حالا . وهذا بعض القش ، ضعه تحت رأسك :

رفع رأسه صامتاً ليتيح وضع حزمة القش تحت رأسه ، واطبق جفنيه بوهن . وبعد دقيقة لم يستطع أن يعرف هل غفا أم سقط في غيبوبة، فان التوامض البرتقالي في عينيه صار كثيفاً مستديماً ، ودوار الرأس يضنيه ونفسه تجيش. حاول أن ينقلب على جنبه ، ولكنه لم يعد يتغلب

على جسده المثقل ، وغاب ، وبدا وكأنه فقد الوعي حقاً .

ولم يفق على نفسه الا بعد وقت طويل ، وبشكل مؤلم ، وأحس بقشعريرة ، وبعطش شديد ، ولكنه ظل وقتاً طويلا غير قادر على فك شفتيه المتيبستين ، ليطلب ماء . استطاع فقط ان يفتح عينيه بجهد ، حين شعر بحركة قربه ، وظهر من مدخل الحمام شبح بيفوفاروف الأبيض بقلنسوته الملقاة على قفاه ، والرشيشة في يديه. كان الحمام من الداخل رمادياً موحشاً ، ولكن فتحة التهوية الصغيرة في الجدار كانت تسرب ضوء النهار ، وجميع الشقوق في المدخل تشف به ، وادرك الملازم أن الصبح قد طلع . الا ان شيئاً كان يشغل بيفوفاروف في الخارج . تكور هذا المقاتل ، والتصق بفتحة التهوية ، يتفحص شيئاً هناك بامعان .

حاول ايفانوفسكي ان ينقلب على جنبه ، وتحشرج شيء في صدره ، فاخذ يسعل سعالا طويلا صافراً . قفز بيفوفاروف مبتعداً عن فتحة التهوية ، والتفت الى الجريح .

– كيف انت ، أيها الرفيق الملازم ؟ ..

– لا بأس ، لا بأس ...

توقع أن يسأل بيفوفاروف عن شيء آخر ، الا ان هذا المقاتل لم يسأل اي سؤال آخر ،

وهدأ على الفور ، وقال بهمس مكبوت منحنياً على فتحة التهوية ذاتها :

– الالمان في القرية .

– أية قرية ؟

– في هذه . اقصى بيت فيها وراء شجرة صفصاف . الالمان يسيرون فيها .

– بعيدة ؟

– ربما حوالى مائتي خطوة .

اجل ، اذا كان الألمان لم يكتشفوهما ، وهم على بعد مائتي خطوة ، فمن الممكن ان يعتبرا الحظ قد حالفهما في هذا الحمام .

صحيح ان الليل لم ينته بعد ، ولكن النهار موشك على الطلوع ، ومن يدري كم من الوقت سيقضيانه هنا دون أن يكتشفا .

– لا بأس ، فقط أن لا تطلع راسك .

– اغلقت الباب – قال بيفوفاروف مشيراً براسه صوب الباب – اغلقته برفش .

– جيد . الا يوجد ماء ؟

– يوجد – لبى بيفوفاروف بطواعية – يوجد في هذا القازان ماء . وقد شربت منه . الا انه مخلوط بالثلج .

– هاته بسرعة .

جعل بيفوفاروف يسقيه من صفيحة قصديرية ، وكانت في الماء رائحة مقشمة التصقت بشفتيه اوراق بتولا مبللة . وكان الماء ، على

العموم ، مقرفاً ، وكأنما من بركة راكدة ، مثلما كان داخل الملازم مقرفاً ، فقد كان صدره يتشبع بسائل ، وصار التنفس يصعب عليه . ولم يستطع نفثه بالسعال اطلاقاً .

الا أنه بعد شرب الماء شعر بشيء من الارتياح ، وصفا وعيه ، كما يبدو ، فتلفت فيما حوله . كان الحمام ضيقاً تماماً ذا سقف مسخم الى حد السواد ، والجدران سوداء أيضاً من السخام . وفي ركن قرب الباب لاحت كومة سوداء من الحجارة على موقد ، وبالقرب منها برميل ماء . وعلى عود واطىء فوقه علقت خرق منسية . وكان من المحتمل بالطبع أن يدخل اناس الى الحمام في أية لحظة ، ولأي غرض ، فيكتشفونهما . فكيف لم يخطر في باله من قبل أن مكان هذا الحمام لا يمكن أن يكون بعيداً عن القرية ، كما يحتمل أن يكون في هذه القرية ألمان ؟

— ماذا ترى هناك ؟ — سأل الملازم بيفوفاروف بصوت كامد ، وكان هذا في تلك اللحظة في مدخل الحمام قرب خصاصة في الباب.

— هاهم قد خرجوا من بيت ... اثنان ، يدخنان ... اتجها الى مكان ما .

— ألمانيان ؟

— نعم .

— لايهم . ليكن في بالك فقط . لن يقبضوا علينا بسهولة .

وبالطبع كان يدرك ثمن تطمينه الواهي هذا ، ولكن أما يزال قادراً على ذلك ؟ لقد كان يعرف فقط أنه في حالة مباغتة الألمان لهما سيضطر الى التصدي لهم مادامت لديه ذخيرة ، وبعد ... ولكن ربما لا يباغتونهما ؟ وربما سيغادرون القرية كلياً ؟ ومهما يكن ذلك غريباً ، فقد ظهرت في احاسيسه هجسات جديدة غير مالوفة له تقريباً ، طمأنينة غير طبيعية بهذا القرب من الألمان ، وكأنما فقد عجالته ، نفاد صبره ، الذي لم يبارحه طوال الايام الأخيرة . الآن اختفى كل هذا ، تبدد ، ربما مع قواه التي بفقده لها فقد أيضاً دفقه النفسي ، حماسه . الآن صار يحاول أن يوازن كل شيء بشكل أدق ، أن يتأكد من أن تصرفه موثوق ، لأن أي خطأ يمكن أن يكون الأخير . وكان استعداده للانتظار حتميته الأولى المفهومة بوضوح . فلم يكن هناك خيار في النهار ، في هذا الحقل الثلجي ، على حافة القرية غير الاحتماء بالصبر حتى الليل ، لاتخاذ تدبير مع حلول الظلام لنجاتهما .

ولكن الانتظار كان يحتاج الى طاقات أيضاً ، وكان يجب أن يبقى في داخله ذلك الوعي الرجراج ، والحفاظ على قوة الاحتمال بقوة الارادة . وهذا ايضاً لم يكن سهلا ، حتى بالنسبة

لرجل سليم مثل بيفوفاروف . اذ لم يكن من السهل في هذه المصيدة على مقربة من الالمان السيطرة على الاعصاب . وهذا ما كان يفكر فيه الملازم وهو يراقب بيفوفاروف مندفعاً في الحمام الى فتحة التهوية ، في الحائط تارة ، والى مدخل الحمام ذي الشقوق العديدة تارة أخرى . وكان يبدو مذعوراً ، وكان ايفانوفسكي كلما ينظر اليه يفكر في أن الألمان قادمون ! وكان بيفوفاروف يقول بصوت عال من حين لآخر ، ولربما لتهدئة الآمر ونفسه أيضاً :

— طلع شخص على الدرب ... الى البئر ، كما يبدو . اي نعم . امرأة تحمل جردلا ...

وبعد دقيقة :

— أوه . يخرجون . لا ، وقفوا . يقفون ... ساروا ...

— الى اين ؟

— الشيطان يعرف ! اختبأوا وراء سقيفة .

— لايهم . لا تقلق . لن يأتوا الى هنا .

لم يأخذ من بيفوفاروف رشيشته ، بعد فكر في أنه سيكون ، عند الضرورة ، اكثر براعة في استخدامها . وبقيت القنبلة اليدوية معه . الآن لاغنى له عن القنبلة اليدوية . فكها من حزامه ، ووضعها قرب المسطبة . وكانت البندقية عند رأسه مركونة على الحائط . كان كل شيء في

مكانه ، ولم يبق سوى الانتظار بصبر ، والأمل بالتوفيق .

قال بيفوفاروف ، وهو يتقدم من فتحة التهوية :

— ينحشرون ، ويبقون هنا . والحقيقة نحن ايضاً ...

وفهم ايفانوفسكي جملة بيفوفاروف الناقصة ، فسأل بغتة :

— تريد أن تعيش ؟

— تعيش ؟ — قال بيفوفاروف بدهشة تقريباً ، وتنهد — لاباس في ذلك . ولكن ...

نعم ، ولكن بالضبط ! ان «لكن» هذه وقفت كلعنة شيطانية في طريق حياتهما الفتية ، ولا مجال للخروج منها . انها في صباح ذلك الأحد المحفور في الذاكرة قسمت العالم الى قسمين بشكل لا رأفة فيه : في أحدهما كانت الحياة بكل مسراتها الطبيعية والضرورية جداً للانسان في الوقت ذاته ، وفي الثاني الموت المبكر الرهيب في ابتذاله . ومن هنا بدأ كل شيء ، وكل ما حصل فيما بعد ، في المشقات التي تلت ذلك ، كان يصطدم حتماً بـ«لكن» المنحوسة هذه . وكان تجاوزها ، والتحايل عليها ، وازاحتها عن الطريق ، واطالة الحياة تحتاج الى جهود لاتصور الى عمل ، وعذابات ... وطبيعي أن الاحتفاظ بالحياة كان يقتضي النصر ، ولكن النصر لايأتي

الا بالاحتفاظ بالحياة ، فالحرب دفعت الناس الى هذا الدولاب الجهنمي . والدفاع عن الحياة ، عن البلاد كان يقتضي أن تقتل ، لا فرداً واحداً ، بل الكثيرين ، وكلما كثر العدد ازدادت الثقة ببقاء الفرد ، ببقاء الجميع . فان الحياة تكتب لك عن طريق قتل العدو . اذ لم يكن في الحرب مخرج آخر ، كما يظهر .

وماذا لو انه الآن لايستطيع أن يفلت ؟ لم يكن أمامه الا أن يقتل نفسه ، فقد صار رديئاً كمقاتل . ومهما طمأن نفسه وبيفوفاروف ومهما اجبر نفسه على بذل الجهد لم يكن في مقدوره أن يدرك أنه بصدره الجريح لم يعد محارباً .

يعني أن يموت في هذا الحمام بهدوء ؟

— لا ، كل شيء الا هذا ! فان ذلك سيكون استهتاراً بنفسه ، وبهذا المقاتل الذي عرضه للموت ايضاً ، وبالنسبة للجميع . وما دام حياً لن يسمح بهذا لنفسه .

بل وخاف من تفكيره هذا ، وأفاق من السرحان القصير ، كان يجب اتخاذ شيء ، واتخاذه بسرعة ، دون تضييع اية دقيقة من الحياة ، لأن الوقت قد يفوت بعد ذلك .

ابحر في أفكاره اللاهبة ، وراح يقلب في ذهنه وبشكل موجع كل السبل المحتملة للخلاص ، ولم يجد شيئاً . وعند ذلك هبط عليه من جديد

خمول ، انطواء يخدر العقل ، قبول بانتظار الليل باذعان .

«قرية لعينة!» كرر مع نفسه غير مرة ، فقد قطعت عليه السبل . شاء القدر أن يصطدم بطريقة سخيفة بذلك الالماني الذي أثار صراخاً ويدخل في مناوشة معه ، ويتلقى رصاصة في صدره . ولكن لا بد من أن يكون هناك شيء . فان ذلك السكون ، الانغلاق ، كان بدون شك مصطنعاً يسنده انضباط قوي يستحيل ان يكون بدون سلطة رئاسة كبيرة . ثم الهوائيات ... في كل الاحتمالات يوجد هنا مقر أركان كبير ، بل ولربما مقر أركان جيش ، فان مقر اركان صغير لن يكون عادة في عمق المؤخرة . وسيكون من المناسب جداً توجيه ضربة له . ولكن كيف ؟ الطائرات الآن لاتطير ، ولكن حين يستقر الجو سيصعب البحث عنه كما حصل مع قاعدة الذخيرة اللعينة تلك .

واذا كان لم يوفق في البداية ، فان التوفيق في النهاية أصعب . ولولا هذا الجرح الذي فتك به في الصميم ، لاهتدى فكره الى شيء ، في اغلب الظن . ربما كان سينصب كميناً ، يأسر «لساناً»* . ولكن كيف سيأسره الآن ؟ الآن من الممكن ان يؤسر هو ، بدلا من «اللسان» ، سوى

*يقصد اسيراً حياً يدلي له بمعلومات – **المترجم**.

أنه لن يفيدهم كثيراً . وعلى كل حال ، فما دامت الحياة تدب فيه ، ولديه قنبلة يدوية تكفي تماماً لكليهما ، ولهذا الحمام ، فلن يقبضوا عليه . يبدو أن الأمل كله الآن في القنبلة اليدوية .

ولكن الوقت كان يمر ، لم يزعجهم أحد في هذا الملجأ الضيق القاتم المشبع برائحة الدخان والواقع في حافة القرية . صار بيفوفاروف الآن يقضي معظم وقته واقفاً بين النافذة الصغيرة والباب ويعلق من حين لآخر على مايثير دهشته فيما يراه من خلال الشقوق .

وها هو قد سكت ، والظاهر أنه لم ير شيئاً يلفت نظره ، واذا بالملازم يسأل بخفوت :

– هل لك أم ؟

ولعل ذلك كان سؤالا غريباً في وضعهما هذا ، فلم يفهم بيفوفاروف :

– ها ؟ ماذا قلت ؟

– هل لك أم ؟

– نعم ، بالطبع .

– وأب ؟

– لا ، ليس لي أب .

– مات ؟

– يعني – تملص بيفوفاروف بهذه الكلمة غير المحددة – أنا اعيش مع أمي . ولو عرفت كيف نحن هنا ! لفزعت !

– أم لطيفة ؟

– أها – أكد بيفوفاروف بتلك الاثارة – فانا وحيد لها . كانت تفعل كل شيء من أجلي ؟

– من أي منطقة أنت ؟

– أنا ، من نواحي بسكوف . توجد بلدة تسمى بوروخوف ، ربما سمعت بها ؟ كنا نعيش هناك . كانت أمي معلمة في مدرسة .

– تقول كانت تعبدك ؟

– نعم ، وبشكل ! كان مضحكاً تماماً . كارثة ، حين اتعابث مع الاولاد وكارثة ، حين لا آكل طعام الفطور كله . أما اذا مرضت ، فاعوذ بالله ! تثير الاطباء كلهم ، وتظل تعطيني الأدوية الاسبوع كله . كان مضحكاً ... أما الآن فغير مضحك .

وزفر الملازم .

– الآن غير مضحك .

– أمي من ذهب . انا الوحيد لها ، ولكن هي ايضاً وحيدة لي . ليس عندنا اقارب هناك . أمي نفسها من لينينغراد ، قبل الثورة كانت تعيش في بطرسبورغ . وكم حدثتني عن بطرسبورغ ! .. ولكنني لم اذهب الى هناك ، ولا مرة واحدة . انوي دائماً ، ولا افعل . والآن بعد الحرب فقط .

– بعد الحرب ، بالطبع .

– أنا لايهمني . لست متمسكاً جداً . اذا قتلت ، فليكن ! ولكن آسف على أمي فقط .

الأسف على الأم ، بالطبع ، وافقه ايفانوفسكي دون ان يتكلم ، وعلى الأب ايضاً . حتى ولو كان مثل أبيه ، البيطار ايفانوفسكي . انه ليس طبيباً كثيراً ، ولا كثير الذكاء ، يحب اللغو مع الرجال ، والشرب في أيام العطل دون تجاوز الحد ، وكان احياناً يبدو تعيساً بعمق ، رجلا لقي الاخفاقات في حياته . وفي الواقع كانت للجميع زوجات يهتممن بالتغذية والمعيشة ، وراحة العائلة ، بدرجات متفاوتة ، ولكنهن لا محالة يحببن ازواجهن – الأمراء الى حد العبادة ، وكان ايغور ، بقدر ما يتذكر ، يعيش دائماً مع ابيه في غرف صغيرة ، في اركان ، في شقق مؤجرة ، مكتفين في الغداء بقطعة شحم مقدد ، وقصعة كرنب ، وبالمعلبات البائتة ، ويشتركان بملعقة المنيوم واحدة . وايغور لايكاد يذكر أمه ، ولم يكن يسأل أباه عنها تقريباً ، فقد كان يعرف أنه اذا بدأ الحديث عنها لن يستطيع ابوه أن يكبح دموعه . وكانت صورة امه مرتبطة بمأساة آل ايفانوفسكي العائلية ، ولم يكن الابن يعرف حتى كونها مازالت حية أم ماتت منذ زمان . وعلى العموم ، وكما اتضح فيما بعد ، لم يكن الأب ايضاً يعرف اكثر مما يعرف الابن .

كان معارف ايفانوفسكي الأب يقولون عنه أشياء مختلفة ، كما ان الابن كان ينظر الى ابيه نظرة مختلفة ، ولكنه كان أباً على اية حال يحب

ابنه الوحيد على طريقته الخاصة ، ولا يرجو له غير الخير ، ويفرح بمستقبله العسكري . وحلت الفرحة . وآخر رسالة تلقاها ايفانوفسكي منه كانت قبيل تخرجه في المدرسة العسكرية ، في بداية حزيران ، وكان الأب قرب بيلوستوك ، في نفس فصيلة من قوات الحدود . اما ايغور فقد حصل على تعيين في غردنو ، في موقع قسم الملاكات للجيش ، وكان يظن أنهما سيلتقيان عن قريب . حتى أنه لم يرد على رسالته ، وبعد هذا لم يعرف أين يرسل رده . أين هو ، وهل هو حي أم ميت ؟ لم يستطع أحد ان يجيبه ، كما لم يكن له من يسأله عنه ، والظاهر أن اتصال أيفانوفسكي مع أبيه قد انقطع ، ولم يبق اي أمل في اللقاء ...

وهذا ما حصل له مع حبيبته يانينكا ايضاً ..

ومهما يكن ذلك غريباً ، فان معاناته من فراقه الفظيع عن الفتاة كانت اطول بكثير واصعب من فراقه عن أبيه ، ذلك الفراق الأبدي في كل الاحتمالات . صحيح أنه فيما بعد ، في المعارك ، وفي المعمعة الدامية لواقع الحرب اليومي غالباً ما كان ينساها ، ليعود فيتذكرها الى حد وجع القلب بشكل مفاجيء تماماً ، عند المبيت في مكان ما ، في لحظة الهدوء قبيل المجهول الموار لمعركة مقبلة . ولم يكن يتحدث لأحد عن حبه الأول هذا والأخير ربما ، الحب القصير الأجل ،

فقد كان يعرف ويشعر بأن الآخرين ليسوا احسن حظا منه . فمن لم يعان في الحرب ، ويجف ، ويتعذب من فراق الحبيب ، أو الأم ، او الزوجة ، أو الاطفال ... لقد كانت الفراقات تضني ، وتلذع ، وتحز القلب بالألم ، ولم يكن في وسع أحد أن يخفف هذا الألم .

يبدو أنه دخل في غيبوبة مرة أخرى ، غفا او هدأ فقط على الحد المعذب بين الحياة والموت ، وحين أفاق على نفسه كان الحمام غارقاً في الظلام او يكاد . لم ينظر الى ساعته . فان الوقت الآن فقد معناه الأصلي بالنسبة له ، وحالته تبدو قد تردت اكثر . كان يتنفس انفاساً قصيرة متلاحقة ، وحلت محل قشعريرة الصباح حرارة بعرق . وحين وعى على نفسه طاف ببصره في الحمام ، فرأى بيفوفاروف الذي كان جالساً على جردل خشبي مقلوب عند الشباك يقضم البقسماط . وقد تضبب الشباك بأنفاسه فكان بيفوفاروف يمسح الزجاج بكمه من حين لآخر .

فتح الملازم عينيه ثم اغمضهما ، وسأل :

— ماذا هناك ؟

— كما كان . هؤلاء الخنازير لا يغادرون .

لا يغادرون ، يعني لا يتسللان الى القرية . ولكن الى اين يمكن ان يتسللا الآن . اذا لا يتسللان الى القرية ، في الحقل ستكون الحال اسوأ مما في الحمام ، فان الصقيع سيقضي

عليهما . ولكن من المستبعد حتى هنا أن يواجها
خيراً .

اللعنة ، لو كانت هناك اسكيات ،
انهما رمياها في القرية بلا طائل . خسارة
لهما وقت للتفكير في الاسكيات هناك ، وان لم يكن
تحت رحمة النار . فقد كان من المهم أن ينقلا
ارجلهما . ولكنهما الآن لم يكن في مقدورهما أن
يغادرا الحمام الى اي مكان بدون اسكيات .

بالطبع هذا لا ينطبق عليه ، فانه
ليس بحاجة الى اسكي . ولكن بيفوفاروف بحاجة شخصياً
ضرورية له . فبدونه لا يستطيع الوصول الى
خط الجبهة ، سيقضي الألمان عليه في الكيلومتر
الأول من الطريق .

— يا عزيزي بيفوفاروف ، ما رأيك هل
تلك القرية بعيدة ؟

— اية قرية ؟

— تلك ... القرية التي رأيناها البارحة .

— مسافة كيلومترين ، ربما .

بهذا القرب هي ، بينما بدا له في الليل
انهما ابتعدا عنها حوالى خمسة كيلومترات ، لا
اقل . والظاهر ، على العموم ، أن مقاييس
المسافات والزمن فقدت لديه معناها الحقيقي ،
فان آلامه مططت بشكل لايصدق كل متر من
الطريق ، وكل دقيقة من الحياة ، مشوهة الادراك
الانساني الطبيعي لها . الظاهر ان عليه الآن أن

يعتمد على بيفوفاروف اكثر . سأل المقاتل .

– ماذا تحتاج ، ايها الرفيق الملازم ؟

– يجب الخروج لاعادة الاسكيات . في الليل . ربما لم يلحق الالمان ان يأخذوها .

صمت بيفوفاروف لحظة موازناً شيئاً في ذهنه ، ثم أجاب بزفرة :

– وليكن ، ساذهب . فقط ان يخيم الظلام .

– نعم ، يجب . تعرف ...

– ولكن أنت ... كيف ستدبر حالك هنا ؟

– بشكل ما . سانتظر .

وقبل ان يخيم الظلام تماماً نهض بيفوفاروف ، واخذ يتهيأ للخروج دون تلكؤ . واول ما فعله هو أنه خلع حذاءه الطويل من المشمع ، واعاد لف لفافة القدمين ، ثم أخرج بقسماطتين من كيس متاعه ، وحشرهما في جيبه ، ونقل كيس المتاع ليكون اقرب الى ايفانوفسكي .

– وسآخذ هذه الرشيشة ايضاً ، ممكن ؟

– خذها .

– انت تعرف ، مع الرشيشة اكثر وثوقاً .

وكان الملازم يرى أن بيفوفاروف لم يكن يستطيع كبح سروره ، وقد حصل على هذا السلاح الذي كان يحلم به كل مقاتل في الجبهة . وكانت الرشيشات سلاحا مايزال جديداً ، والمشاة كلهم تقريباً مزودون بالبنادق . وايفانوفسكي

نفسه حصل عليه في عشية طلعته . فقد رق الجنرال كثيراً ، وأمر مرافقه بأن يسلم رشيشة للملازم . وبالطبع ، كان هذا السلاح ، في وضعهم ، يحسم أشياء كثيرة ، ان لم يكن كلها ، فعلى قوة السلاح العريقة صمدت امكانياتهم الضئيلة .

– ولتبق البندقية هنا . ستنفعك عند الضرورة .

لم يعترض الملازم . فك بيفوفاروف من حزامه كلتا محفظتي الخراطيش المشمعية ، ووضعهما على الارض قرب المسطبة ، فصلصلت الا مشاط عند ذلك .

– البندقية جيدة تصيب صميم الهدف . كان رئيس الرقباء يرمي بها .

كان ايفانوفسكي يفكر ، وهو يستمع الى بيفوفاروف بسهوم ، أن البندقية ، وبعض امشاط الخراطيش ، وقنبلة يدوية مضادة للدبابات ، والقارورتين الحارقتين ، ستكون كافية على الاكثر . واذا حالفه الحظ فسيظل حتى مجيء بيفوفاروف بالاسكيات ، وقد يتخذان شيئاً آخر ايضاً . واذا لا فسيضطر الى الدفاع عن نفسه حتى النهاية .

لف بيفوفاروف قدميه بلفة أخرى ، وشد الحزام ، وألقى الرشيشة على كتفه بارتياح ظاهر . وبدا مستعداً لأن يخرج في طلعة قصيرة

ومن يدري فليس من المستبعد أن تكون خطيرة.
— كم الوقت في ساعتك ؟ بلغ الخامسة ؟ طيب ، سأعود خلال ساعة . ليست المسافة بعيدة .

سيعود بعد ساعة ، وسيكونان سوية من جديد . وشعر ايفانوفسكي في لحظة الفراق الجديد أن الحظ قد وفقه ، بشكل عام ، في اصطحاب مثل هذا الشاب الممتثل ، وأنه ، على الأقل ، سيشعر بالوحشة في قضاء هذه الساعة وحيداً. كان الافتراق يضعف قواهما بشكل كبير. وبدا مفعول المنطق الرهيب القائم على الحساب ، حين يقسم الاثنان الى اثنين يصيران أقل من واحد ، تماماً مثل النقيض من ذلك حين يوضع واحد الى جانب واحد يتحول الى اكثر من اثنين . ولربما من الصعب أن يتفق هذا مع المنطق الاعتيادي ، ولا يمكن أن يكون الا في الحرب . ولكن الملازم يعرف هذه المعادلة جيداً جداً من تجربته الخاصة .

تهيأ المقاتل للخروج ، ولكنه تباطأ لسبب ما ، ولعل شيئاً ضئيلا جداً كان ينقص وداعهما . وكان ايفانوفسكي يعرف هذا الشيء الضئيل ، فكان يتردد . ظهرت امكانية اخيرة في القاء نظرة على القرية المنحوسة ، والمحاولة مرة أخرى في معرفة شيء عن مقر الاركان ، على الأقل في الخطوط العامة ، حتى لا يمثل فارغ اليدين امام

الجنرال الذي أرسله ، على الأقل ليعوض بمقدار معين عن اخفاقهم المؤسف مع القاعدة . ولكن لم يكن في مقدوره أن يعرف أيضاً أن اقل غفلة يبديها بيفافاروف يمكن أن تتحول رأساً الى نكبة ثلاثية ، تقضي كلياً على امكانيتهما الضئيلة اصلا في تنفيذ واجبه ، والعودة الى جماعته .

— اذن ، أنا ذاهب ، أيها الرفيق الملازم . — قال بيفوفاروف بعزم ، واستدار نحو العتبة .

فقال الملازم :

— انتظر . اسمع ... أنا لا الح عليك ، الأمر متروك لك . ولكن ... ربما تستطيع انت أن تعرف ... ماذا هناك في القرية ؟ يبدو فيها مقر اركان .

وسكت . وانتظر بيفوفاروف متنبهاً ، ولكنه لم ينتظر اكثر ، وقال ببساطة :

— طيب . سأحاول .

ضج شيء محتجاً في داخل ايفانوفسكي ، في صدره المصاب . ماذا تعني : سأحاول . المحاولة لا تنطوي على جدوى كبيرة . بينما الأمر يحتاج الى مكر الافعى ، الى عناد ، الى صلابة ، وتبقى فوق كل ذلك المجازفة بالرأس . ولكن ايفانوفسكي لم يكن يستطيع ان يشرح ذلك لبيفوفاروف ، فقد كان شيء يعيقه عن التحدث عن اشياء رهيبة ، وان كانت مألوفة جداً في

الحرب ، ثم انه لم يكن يقدر أن يكبح الألم والضعف في داخله . فاكتفى بان تنهد :

– فقط أن تكون حذراً .

– طيب سأكون . فلا تقلق . سأنسل بهدوء ...

– نعم ، ولا تطل ...

– طيب . هذا ماء لك – قال المقاتل ، وقد غرف الماء من البرميل بعلبة القصدير ، ووضعها عند رأس الملازم – اذا احتجت أن تشرب .

اغمض ايفانوفسكي عينيه ، وقد اتعبه هذا الحديث الصعب ، وسمع حركة بيفوفاروف ، وهو يخرج الى مدخل الحمام ، ويفتح الباب بحذر ، وبعد تمهل ، ويغلقه باحكام من الخارج . وظل ايفانوفسكي خلال دقيقة يسمع خطواته المبتعدة وراء الحمام . كانت سريعة ومكتومة ، وبدا وكأن املا يبتعد معها ، شيء ما كان ينتهي بالنسبة لهما بلا عودة ، دون أن يخاف شيئاً جديداً . وراح ايفانوفسكي ينتظر برهق وعناد منصتاً الى كل خشخشة ريح على السطح ، الى كل صوت بعيد في القرية . وصار يعيش على عالم الاصوات المقلق الضيق ، الاصوات التي كان يغطي عليها احياناً سعاله وكرير صدره المثلوم .

الا أن التعب أخذ يضعف سمعه بالتدريج

وفجاة هدأ كل شيء ، صارت تستولي على وعيه افكار كانت تتشعب في الزمان والمكان بشكل عجيب . وبدا وكأنه أخذ ينعس ، وعند ذاك صار يطوف وسط رؤاه المشوشة ماله شبه بما عاشه ، او بماضيه كان يفزعه ، ويتعبه بلذاذة في الوقت ذاته .

الفصل الحادي عشر

لم يبق على مغادرة القطار غير الدقائق القليلة الاخيرة . بينما بقيت هي واقفة على الرصيف تبكي . والظاهر أن احداً لم يكن يودعها هنا ، ولم يستقبلها أحد . وعلى العموم كان الناس على الرصيف قليلين في هذه الساعة من الصباح . وقد نزل ايفانوفسكي درجة الى الاسفل على السلم ، ونادى الفتاة مازحاً :

– هاي ، يا آنسة ، لماذا تبكين ؟ سنجد لك شخصاً آخر .

وقد قال هذا من عبث الشباب ، ومن خفة السفر غير المتقيدة بشيء في العلاقات بين الغرباء الذين التقوا مصادفة ، وسرعان ما سيفترقون افتراقاً لا لقاء بعده . ولكن الفتاة مسحت دمعتها بطرف المنديل الثلاثي المورد الذي كانت تشد به رقبتها ، ورمقته بنظرة معانية . والى الخلف منه كان كوليا غومولكو

يدلي جسمه ممسكاً بالدرابزين . وكلاهما كان في مزاج رائق عال ، حتى لكان اية نكبة في العالم يمكن أن تحول الى نكتة .

– تعالي معنا ! الى بيلوستوك !

عدلت الفتاة المنديل على عنقها النحيل بحركة آلية ، وارسلت نظرة عابرة على وجهي العسكريين الشابين بملبوسهما الجديد كله ، ورفت على شفتيها ابتسامة خفيفة .

– أنا مسافرة الى غرودنو .

– بالمصادفة – قال ايفانوفسكي باندهاش مازح – نحن ايضاً مسافران الى غرودنو . سنسافر سوية .

لم ترد لنفسها ان تستمال كثيراً ، فتناولت الحقيبة التي كانت قرب قدميها ، وامسكت بخفة درابزين العربة وقد أخذ القطار يتحرك . اسندها ايفانوفسكي ، فصعدت المسافرة الجديدة الى سطيحة العربة مرتبكة وفرحة بهذا التحول للأمر .

– التذكرة ، التذكرة ، يامواطنة ! – طالبها مرافق العربة الكهل العجول الذي اسرع نحو مدخل العربة والاعلام الصغيرة في يديه .

– توجد تذكرة ! كل شيء على مايرام ! – قال ايفانوفسكي بلهجة لا تترك ظلا للشك ، وهو يشق طريقه داخل العربة .

قاد الفتاة الى المقصورة الثالثة او الرابعة ، حيث كان يحتلها مع غوموفكو ، حاملا في يديه

الحقيبة الصغيرة التي بدت له خفيفة الى حد الغرابة ، أو فارغة بالاحرى .

– تفضلي . يمكن أن تحتلي مكاني . وسأصعد أنا الى فوق . – قال ايفانوفسكي بخفة فرحة عارضاً على الفتاة التخت الأسفل ، ووضع حقيبتها عليه . جلست الفتاة قرب النافذة طائعة ، وبعد قليل قالت بخفوت مغالبة الارتباك على ما يبدو :

– لا توجد عندي تذكرة .

– لم يكن عندك ما يكفي ؟

– سرقوها مني .

– كيف ؟

– في الليل . في القطار من مينسك .

وكان ذلك تحولا الى الاسوأ . يبدو أنهما أخذا مسؤولية اكثر من طاقتهما ، وبذلك خرقا نظام السكك الحديد الصارم . ولكن التراجع ايضاً لم يكن لائقاً . نظر ايغور الى صاحبه نيكولاي ، وقرأ على وجهه الغليظ قليلا ، المتجهم دائماً ، اصراره على موقفه ، فاصر ايفانوفسكي ايضاً :

– لابأس ! سنتفاوض مع مرافق العربة .

ولكنهما اضطرا الى التفاوض ليس مع مرافق العربة وحده ، بل ومع المفتش ، ومع مسؤول القطار ، وانتهت هذه المفاوضات بأن اضطر ايفانوفسكي الى أن ينزل أول محطة توقف فيها

القطار ، ويهرع الى شباك التذاكر في المحطة ، ولحق بالكاد يشتري آخر تذكرة للمكان الذي كان قد احتله . كانت التذكرة الى غرودنو ، وسرعان ما هدأت الفتاة ، بل وراحت تبتسم ، وقد تغلبت كلياً على مأزقها . وبدت ، بعد ان تغلبت على قلقها ، فتاة محبة للعشرة ، ولطيفة عموماً ، وسرعان ما حدثتهما ، وليس بدون دعابة ، عما وقع لها في السفر . تبين أنها تعيش في غرودنو ، وقد سافرت الى مينسك لزيارة اقاربها الذين لم ترهم قط ، فاذا بغمة تقع لها في العربة . سرقوا من حقيبتها الصغيرة كل شيء بالاضافة الى معطفها الواقي من المطر ، وسترتها ، ونقودها بالطبع . ولكنها الآن قد أنقذت وهي مدينة جداً لكليهما على تعاطفهما النبيل ، ومساعدتهما .

– أوه ، هذا لا يستحق الذكر – اعترضها ايفانوفسكي وساق الحديث الى موضوع آخر – وهل تعيشين في غرودنو منذ زمان ؟

– وولدت فيها .

– اهوه ، يعني أنت من أهل المنطقة .

– بالطبع .

–وتتكلمين بالروسية جيداً ؟

– نحن في البيت نتكلم دائماً بالروسية . ابونا روسي ، وعمتي ، اخته ، روسية ايضاً . ولكن أمي وحدها بولونية .

– واين درست ؟

– في مدرسة بولونية . ولم يكن هناك روس .

فاستفسر ايغور اكثر :

– ما اسمك ؟

– يانينكا . وأنتما ، اذا لم يكن ذلك سراً ؟ – وارسلت نحوه ابتسامة براقة لعوباً .

– أنا ادعى ايغور ، وهو نيكولاي .

– عمي الذي يعيش في مينسك يدعى ايغور ايضاً . ايغور بتروفيتش . وهل أنتما مسافران لاداء الخدمة العسكرية عندنا ؟

وهنا تبادلا النظرات . وبالفعل كان ذلك الى حد ما في نطاق الاسرار العسكرية ، الا أن المسافرة معهما حدسته ببساطة . ولكن لا شيء يتكتمان عليه ! لقد حصل ، بالفعل ، بعد اسبوع من تخرجهما في المدرسة العسكرية ، تعيين في جيش كان مقر اركانه في بلدتها غرودنو هذه .

أجاب ايفانوفسكي بشكل غير محدد :

– يبدو كذلك . وكيف غرودنو هذه ، بلدة لابأس بها ؟

– مدينة جميلة جدا . لن تتأسفا .

قال غومولكو الشكاك بكل شيء بلهجته المرتابة الملازمة له :

– وتتصور أنهم سيبقوننا في غرودنو ؟ سيرسلوننا الى حامية في غابة .

— اوه ، ما أجمل الغابة ! عندنا غابات ! ..

لزم ايفانوفسكي الصمت . فان رأيه في الغابة ، وحتى أروع الغابات ، لم يكن يتناسب كثيراً مع غبطة هذه الفتاة . فهو منذ أن كان في المدرسة العسكرية ، وفي المخيمات الصيفية بالاعداد الكثيرة من المقيمين فيها ، يحس بالضجر الشديد بحلول الخريف ، من الغابات والحقول ، ومن كل الاصقاع البعيدة عن مناطق السكن الدائمية بمعيشتها المستقرة ، مهما تكن هذه المعيشة ، حتى كانت اروع غابة تصبح غير محتملة ، فيود لو يكون في المدينة . محق من قال : ان العسكريين لا يلحظون الطبيعة ، والطقس اهم بالنسبة لهم .

ومع ذلك فقد شفت غبطة يانينكا الساذجة عن صفاء شديد حتى أن ايفانوفسكي ابتسم ، مستعداً لقبول اية غابة من غابات غرودنو . وعلى العموم كان اعجابه يزداد بها ، بهذه الفتاة الحلوة المحيا ، بخصلاتها الوضاحة المتدلية على جبينها بغنج ، وبفستانها القطني المورد . حتى احس بالحراجة من مزاحه المستخف في محطة القطار في بارانوفيتشي ، ومن الحاحهما الذي لم يكفر عنه غير تعاطفهما معهما فيما بعد .

ظل القطار يتوغل غرباً متوقفاً في المحطات الصغيرة وقفات قصيرة . ومرت من وراء النافذة

حقول حزيران الخضراء ، وحواضر سكنية ، وغابات صنوبر ضخمة ، وقرى وعزب ، والعزب في كل مكان . ولم يكن ايفانوفسكي قد رأى من قبل هذا الجزء من بيلوروسيا ، والآن الهبه اهتمام حقيقي بكل ما يتعلق بهذه الحياة الجديدة عليه .

وفي احدى المحطات توقفت عربتهم مقابل سوق صغير ملحق بالمحطة ، فقفز ايفانوفسكي على الرصيف ، واسرع واشترى في جريدة طعاماً فلاحياً بسيطا : خياراً ، وفجلا ، وسجقاً فلاحياً ، وطاسة من البطاطس الطازجة الحارة الهشة اللذيذة الرائحة . وبعد ذلك أكلوها سوية ، فقد ضيف الشابان الفتاة برعاية ، اذ اندمجت بصحبتهما تماماً ، وراحت تضحك طليقة ، وتمزح ، مالئة فمها بالخيار والبطاطس . وبعد الغداء يبدو أن نيكولاي لحظ شيئاً في تصرف ايغور ، فانسحب بتعقل ، وصعد الى التخت العلوي لينام .

وبقي الاثنان أحدهما مقابل الآخر ، لايفصلهما غير طاولة العربة الصغيرة .

كان يشعر بالارتياح معها ، رغم أنه مايزال غير قادر على أن يتغلب كلياً على شعور بالذنب ظهر متأخراً ، مثل استحياء من نواياه ، رغم انه لم تكن له اية نوايا منذ البداية . وكانت يانينكا تشعر بطلاقة وعفوية ، كما كانت تشير كل

الدلائل . خلعت نعليها الصغيرين الأبيضين بكعبيهما من الفلين ، دون أن ترتبك تقريباً ، وجذبت على ركبتيها فستانها القصير ، واتخذت جلسة أروح على المقعد الصلب ، وظلت طوال الوقت تنظر في عينيه بابتسامة ماكرة لطيفة .

— عندنا نيومان — قالت الفتاة بالطريقة البيلوروسية لتلفظ هذه الكلمة ، فابتسم ايفانوفسكي في سره ، بعد أن تذكر طفولته غير البعيدة ، ومدرسته ، وقصيدة ياكوب كولاس المشهورة ، وهذه التسمية البيلوروسية لنهر لم يره قط — وراء الشباك تماماً شاطىء منحدر جداً ، وصفصافتان ، وطوافات عند الشاطىء . وأنا أسبح نازلة من الطوافات . أخرج مبكرة في الصباح ، والضباب الخفيف مايزال يفترش النهر ، والماء دافىء كالحليب من ضرع البقرة ولا يوجد أحد . وأسبح بحيث امتلأ فرحاً طوال النهار .

قال ايفانوفسكي :

— البحيرات تعجبني اكثر . ولاسيما بحيرات الغابات انها روعة في طقس هادىء .

— الأنهار أحسن ، ما هذا الكلام ! الماء في البحيرات فيه رائحة مستنقعات ، بينما هو في النهر سيال كالدموع . الصيف على النهر روعة . بكل تأكيد ! سنصل وأريك . أنا واثقة من أنك ستعجب .

لابد ان يعجب ، بالطبع . وصار متأكداً من ان ذلك شيء فريد : بيت صغير ، وصفصافتان على شاطىء مرتفع ، طوافات على الضفة يمكن القفز منها الى نيومان العميق السريع الجريان . وقد رسم ذلك في خياله ، رغم أنه كان يعرف بالتجربة أن اغنى تصور لايطابق الواقع ابداً . في الواقع كل شيء مختلف أسوأ أو أحسن ، ولكنه مختلف بالضبط .

كانت يانينكا تنطلق معه بيسر ، وكان احدهما كان يعرف الآخر منذ زمن بعيد ، بينما بقي هو يشعر بنفس التقيد غير المفسر الذي ليس فقط لم يزايله ، بل أخذ يستولي عليه اكثر . فقد كان يفزعه أنه بمناداته لها في بارانوفيتشي بدون كلفة جعل من نفسه رجلا مستخفاً مبالاً الى مغامرات السفر العابرة ، وأنها لابد وأن فطنت الى ذلك . وان لم يكن هناك أي استخفاف . بل ربما كان هناك تعابث صبوي بسيط لا يناسب أبداً متخرجاً في مدرسة عسكرية في الثانية والعشرين من عمره ، حصل لتوه على منصب آمر حضيرة . عندما كانت على الرصيف لم يتمعن فيها ، بل رآها فقط ، أما الآن فكان يتفحصها بعينيه المتسعتين المذهولتين اللتين لم يستطع مهما حاول ، أن يصرفهما عن وجهها الحي المشع فرحاً .

في آخر النهار وهم يقتربون من غرودنو ،

كان قد عرف أنه لن يفترق عنها ، فقد ظلت تسحره أكثر فأكثر برشاقتها الفتية ، وتجذبه بشيء خفي ملغز لم يكن يجد له أية تسمية ، ولكنه كان يشعر به في كل لحظة . ولم يعودا يتحدثان عما لقيته من منغصات في السفر ، فقد نسيتها سوى أنها عقدت حاجبيها بحزن ذات مرة ، حين كانت تنقل حقيبتها الصغيرة الخفيفة على التخت .

– أخذوا حتى صباغ ابيض ، جلبته لابي . الآن لا يستطيع الحصول على صباغ ابيض عندنا .

فسأل ايغور غير فاهم :

– وهل ابوك ملاط ؟

قالت يانينكا ببساطة :

– رسام . والاصباغ الآن شحيحة . من قبل كنا نطلب الاصباغ من وارشو ...

وصل القطار الى محطة غرودنو في المساء ، وخرجوا الى الرصيف قلقين قليلا . اوصلتهما يانينكا حتى مقر اركان الجيش ، وهي تهز حقيبتها الصغيرة الفارغة بذراعها . ومن حسن الحظ أن المقر كان في طريقها . ولكن لم يكن احد في المقر ما عدا الخفير وكان يجب الانتظار حتى الصباح . وكان من الممكن المبيت في المقر ، أو فندق الحامية . الا ان الملازمين لم يبحثا عن الفندق ، واخذا حقيبتيهما الى حجرة

صغيرة شبيهة بمستودع فيها ثلاثة تخوت للجنود قرب الجدران . أتخذ غومولكو مكانه رأساً على تخت عند كوة أما ايغور فما كاد يمسح الغبار عن حذائه ، حتى أسرع في الخروج الى الشارع ، حيث كانت يانينكا في انتظاره تحت شجرة كستناء في اقرب عطفة . سرها قدومه ، والاكثر من ذلك أنه غير مشغول حتى الغد ، فسارا في شارع المدينة المسائي .

وخلال الساعتين اللتين قضاهما في مقر الاركان استطاعت يانينكا ان تغير ملابسها ، فكانت الآن تلبس تنورة داكنة ، وبلوزة حريرية فاتحة اللون لها ياقة صغيرة من الدنتلا ، وكانت تدق الرصيف بقوة بحذائها العصري ذي الكعبين العاليين . وكانت تبدو بحلتها الأنيقة اكبر من سنها الفتية ، واطول قامة ، تكاد تصل الى كتف ايغور . سارا في الشارع المسائي ، وقد سر ايغور أن الكثيرين هنا يعرفونها ، وقد بادروها بالتحية، الرجال يرفعون أيديهم الى حوافي قبعاتهم ذات الطراز بوجاهة مرصنة ، والنساء بايماءة مهذبة من رؤوسهن مع ابتسامات سمحة على وجوههن المرحبة . فكانت يانينكا ترد بأدب مؤكد ، ولكن بكرامة مضمرة ، وتاخذ بالحديث بصوت خافت مكتوم عما يقع في بصرهما من الاماكن المثيرة للاهتمام في هذا الشارع الأنيق الغارق في الخضرة .

— هذا روسكوش ، حسب ما كان يسمى في عهد الحكم البولوني . ليس فيه مايثير ، ولكن هذه كنيسة شيدت تخليداً لصرعى الحرب الروسية اليابانية عام ١٩٠٥ . كنيسة واطئة ، ولكنها منظمة جداً من الداخل . وفيها تعمدت . وبعدها ، انظر الى تلك البيوت الصغيرة الطريفة ، صف كامل منها ، بأعاليها الثلاثية الشبيهة بالعرف . وهذه دار عمال النسيج من ليون . في القرن السابع عشر في ذلك الزمن البعيد ، طلب الثري تيزينغاوز نساجين من ليون ، وبنى لهم بيوتاً كما في فرنسا تماماً . وهذا بيت الكاتبة البولونية اليزا اوجيشكوفا ، وقد عاشت فيه وماتت . كتبت كتباً ممتعة .

بالفعل اعجبته البلدة ، متواضعة ولكنها مريحة السكن بشوارعها الصغيرة المرصوفة بالحجارة ، وارصفتها الضيقة المبلطة بالبلاط بمنحدراتها الحجرية وعلى جدران بيوت كثيرة دوالي عنب خضراء كثيفة ، يصل بعضها الى الطابق الثالث ، حيث تلتف عليه بعناقيدها . ولكنه كان ينتظر أن يرى نيومان اكثر من أي شيء آخر ، نيومان الذي امتدحته يانينكا ، والذي كان يجري هنا ، كما وصفته ، شاطراً المدينة الى شطرين غير متساويين .

بعد كنيسة بولونية هائلة قوطية الطراز انحرف الشارع ناحية ، فمرا بصفوف الدكاكين ،

وبلدية المدينة ، وطلعا الى عطفة وضعت فيها بائعة دوندرمة عربتها تحت اشجار الكستناء . جذبت يانينكا ايغور من مرفقه جذبة خفيفة ، وكانت طوال الوقت تسير الى جانبه .

— ايغور ، هل يمكن أن أرجو منك ؟

— نعم ، تفضلي .

قال وهو مستعد تماماً أن ينفذ أي رجاء لها ، مهما يكن غير معقول .

— منذ زمن كنت أحلم .. على العموم ، كنت احلم ... أن يضيفني شاب على دوندرمة .

— آخ ، على دوندرمة ...

وكاد ايغور يرتعب ، وقد فكر أي جلف هو ، حين لم يفطن بنفسه أن يضيفها ! مجرد أنه لم يتصور ما كان من الممكن أن تشتهيه معبودته هنا.

— تفضلي ، يا سيدتي ! شكراً جزيلا أيها السيد — شكرته بائعة الدوندرمة ، حين رفض أن يأخذ منها قراطة النقد .

— شكراً ، ياسيدة فاندا — شكرتها يانينكا بدورها بتلك العبارة الرسمية ، وهي تتناول من يد السيدة الكهلة كوباً من البسكويت الخفيف مملوءاً بالدوندرمة .

في نهاية الشارع القصير ، تحت أشجار الزيزفون ، تألق منبسط عريض لايمكن أن ينكشف للناظر الا من تل شديد الارتفاع ، ورأيا قنطرية حجرية فوق خندق . كان ذلك مدخل

قلعة قديمة ذات أسوار شبه متهدمة ، كان يشمخ في الناحية الأخرى منها ، وفي عمق منتزه قديم قصر فاخر وراء سياج مزين باشكال . اعلنت يانينكا بلهجة خطابية :

– قلعة ملك بولونيا باتوري . ولكن هذه قلعة جديدة . والآن انظر الى هناك . هل ترى ؟

نظر عبر حاجز حجري بطول قامة الانسان تقريباً ، وأرسلت آهة تعجب في سره من الارتفاع الشاهق الذي كانا عليه – فهناك بعيداً في الأسفل كانت شخوص الناس تتحرك على درجات السلم الحجرية وتتمشى على جانبي كورنيش الذي كان يحيط بشاطىء نيومان بانسياب ، ويغيب تحت السقف الكثيف الذي تكونه أشجار جبارة .

واضافت يانينكا ، وهي تلتصق بمرفقه :

– انظر كيف ؟ ألا يعجبك هذا ؟

وبالطبع ما كان من الممكن الا تعجبه أسوار القلعة القديمة بما فيها من سر القدم ، وتلك القنطرة المتينة ، فوق سلم حجري ، وبمساحة الخضرة الهائلة على التلال والمنحدرات ، وبالعمود الحجري الشاهق لبرج البلدية المطل على كل شيء ، حتى أن ايغور كان مستعداً أن يطيل النظر حتى المساء . ولكن نيومان هذا لم يبهر خياله من هذا الارتفاع ، فقد كان نهراً اعتيادياً متوسط الحجم تضيق عليه شواطىء

مرتفعة . ومع ذلك كانت يانينكا شديدة الابتهاج بنيومان هذا ، فكانت تهمس بلا انقطاع :

– انظر ، انظر ، أي تيار ! انظر الى سرعته . هناك تحت أشجار الصفصاف اية دوامات هائلة ! اهوه ! ما ان تقترب منها حتى تدورك وتحملك ولا تتخلص منها .

رجعا قليلا ، ونزلا على ذلك السلم الى الكورنيش ، حقاً ، لقد كان النهر رائعاً بالفعل ، والظاهر أن المرء لايستطيع أن يقدره على حقيقته من مكان عال . على ضفته اليمنى كورنيش حسن التنظيم مشجر ، والى اليمين منحدرات هائلة تخططها الدروب ، والى الأعلى اطلال اسوار قلعة . ووراء منعطف غير بعيد مغطى تماماً بمظلات هائلة من أشجار الصفصاف ، في المكان الذي كانت المدينة تنتهي ، وتبدأ غابة صنوبر ، حيث كانت الشمس تتوارى ، كان النهر يختفي ملتوياً لية انسيابية . سارا بمحاذاة نيومان على مهل ، وكانت يانينكا لا تكف عن قول ما ليس ضرورياً جداً في روعة المساء هذه ، بينما كان هو يفكر في غرابة ما تخبئه الحياة . فالى صباح اليوم فقط لم يخطر في باله أن هذه الفتاة موجودة على الأرض ، بينما هو الآن ، وهو يقضي اليوم معها ، كان لا يعرف ماذا سيفعل ربما بعد ، فان الحياة بعد الآن ستفقد بدونها أية مسرة .

سارا طويلا بمحاذاة نيومان ، وحين توارت الشمس كلياً وراء الجدار المسنن الذي تكونه الغابة ، استدارا ليعودا الى المدينة . كان يحس بشكل غامض وهو يسمع نقرات كعبيها المتتابعة بالقرب منه أن شيئاً يتغير في حياته على نحو غريب ، لتكتسب معنى غير منظور حتى الآن ، ولكنه مهم جداً . وكان مسروراً بذلك ، وسعيداً تقريباً . وعلى مقربة كان سطح نيومان اللامع يجري خفياً ، وشطآن عامرة بالناس نهاراً تخلو مع هبوط الليل دون ان تلحظ ، وصيادو السمك الذين تعبوا خلال النهار يلفون بكرات عيدان الصيد ، ويغادرون الى المدينة . كانت الأمواج تسرح بهدوء بين أحجار الشاطىء الداكنة ، وقوارب الصيد السوداء المتصاعدة منها رائحة القطران تهتز مترنحة . وكانت أشجار الصفصاف الضخمة المتدلية على الكورنيش تفرقه في حلكة قاتمة غطت على المارة تماماً . ومن جهة البيوت سرت رائحة دخان عذبة ، وهفت الانفاس الوديعة لمدينة تستعد لليل ، تعبق طبيعتها السخية بالدعة الهانئة لمرافقها العريقة العصية على كل سلطان في الدنيا .

دنت يانينكا منه بشكل ملحوظ ، ولعلها تغلبت كلياً على ما كان يفصل بينهما في النهار ، فراحت تسير الآن على مقربة شديدة منه ، ماسة مرفقه باصابعها مساً خفيفاً . وبطريقة لم يلحظها

تحولت الى مخاطبته بضمير المفرد ، وهو أيضاً استخدم هذا الضمير عدة مرات ، مما جعلهما يشعران بطلاقة عجيبة ، واختفى نهائياً الحرج الذي كان يستشعرانه نهاراً ، والانكماش غير المفهوم الذي ظل يعذبه وقتاً طويلا .

ما ان دخلا ظلام الليل الرطيب المتكاثف تحت أشجار الصنوبر ، حتى نطت يانينكا ناحية ، وانطلقت الى فوق على المنحدر المعشوشب بركض غير مفهوم له . توقف حائراً ، وقد فكر في جزمته الكروم التي يحتذيها مع بزة الخروج ، ولكن الفتاة كانت تناديه من الظلام مشجعة اياه : تعال ، تعال ! بينما انسلت هي بسرعة بين الاجمات الشائكة مصعدة في المرتفع أعلى فاعلى . لم يكن يري ماذا في الأعلى ، فقد كان نصف السماء هناك مغطى بمظلة شجرة وارفة ، ولكنه كان يشعر في صوتها بجاذبية السر ، فتسلل الى الأجمة ايضاً . خلعت يانينكا حذائيها ، وصعدت أعلى فأعلى ، حاثة أياه في الظلام بصوت خافت :

– سترى الآن شيئاً ... الآن ، الآن ...

أجتاز أشد المواضع انحداراً ، وقد دمي بديه ، ووصل بعد دقيقة الى حافة مدرج ليس بالعريض ، محاط بسياج مشبك ما تزال أحجاره المنحوتة تبعث الدفء الذي اختزنته خلال النهار . وعلى مقربة تدلت شجرة جبارة مغطية نصف

السماء ، وارتفع جدار شاهق لأحد الابنية . وكان الهدوء والظلام يشيعان فيما حولهما ، ومن الأسفل لايكاد يرى من وراء أشجار الصفصاف التماع نيمومان الباهت ، ورائحة الكلس تفوح من الاسوار ، ورائحة الشمار من حدائق خضروات غير بعيدة ، على ما يبدو .

— ها ، فهمت ؟ فهمت ما هذه ؟

— لم افهم شيئاً ...

— كنيستنا ، كولوجا ... من القرن الثاني عشر ، فهمت ؟

— مفهوم ، حبذا لو اراها ...

— ستراها — أكدت له يانينكا ببساطة — ستلحق . أما الآن ... هيا ، تعال الى هنا ...

واندفعت ثانية الى الظلمة ، وانسلت بخفة من خلال مشبك السياج بفتحاته الواسعة ، وتخطت جداراً ، واختفت بلوزتها الفاتحة عن مجال بصره تماماً . لم يرد أن يتأخر عنها ، فانسل في الظلام في اثرها ، حتى وجد نفسه في فناء معشوشب صغير . كانت الاشجار فيه تغطي السماء كلياً ، وتجعل المكان مظلماً ، والجدار الرمادي على مقربة لايكاد يلوح في الظلام . انسلت يانينكا حافية القدمين الى باب واطىء في كوة ، وهي ترهف سمعها ، والقت حذاءها ، وجذبت نحوها ترباس الباب ، وهمست بطريقة تآمرية : «انسل !» اندس في الشق الضيق

بصعوبة وامسك درفتي الشق من الداخل ، فانسلت يانينكا من بينهما . وحين انطبقت الدرفتان من جديد ، غمرته ظلمة دامسة حتى لم يعد يرى يانينكا كلياً ، ولكيلا يضيعها امسكها من كتفيها قليلا . وفي الصمت المتوجس أخذ شيء يدق ويخفق في الأعلى . جفلت يانينكا ، ولكنها أسرعت تطمئنه :

— لا تخف . هذا حمام .

— أنا غير خائف .

اجاب ايغور همساً ، رغم انه كان يشعر بالاستمتاع المشوب بالرهبة في الوقت ذاته .

— هذا الحاجز الأيقوني . وهذا المقرأ ، وهنا ...

وقادته الى حائط ، واقدامها لايسمع لها وقع على الارضية الحجرية الصلدة ، وجعلته يجلس بايماءة ، واختبات ، وصاحت بصوت ليس بالعالي :

— اوو !

— اوو ! اوو ! اوو !

ترددت عدة اصوات غير عالية في اماكن مختلفة ، جعلته يذهل .

— اوو ! — كررت بصوت أعلى .

فانداح الصدى : «أووو ! أووو ! ...» في المدى تحت عقود المدخل الى الكنيسة غير المرئية

في الظلام ، وصعد الى فوق متلاشياً في برج الناقوس ، على ما يبدو .

– مصوتات ، فهمت ؟

– ما هي المصوتات ؟

– لا تعرف ؟ كيف هذا ! .. تعال الى هنا ... هنا ، هنا ...

ومن جديد قادته من يده في الظلام مثلما يقود سليم البصر ضريراً وتوقفت في مكان ، ودفعته من جنبه بيسر .

– تلمس . أنت طويل ، وستصل يداك اليها في الغالب .

أخذ يتلمس جداراً خشناً ، وبعد قليل اصطدمت يداه بتقعرات ملساء مصقولة في الجدار ، ولكن لم يستطع أن يفهم شيئاً ، رغم انه لم يسأل عن شيء ، ولم يستغرب . فقد ألف خلال اليوم هذا القدر الوافر من الالغاز والانطباعات ، التي كان فهمها يحتاج الى وقت ، على مايبدو .

بينما لم يكن في الوقت فضلة . وكانت اقصر ليلة في العام تركض للقاء الصباح ، وحين خرجا من الكنيسة كان وميض النجوم يخفت فوق المدينة ، وانعكاس الضوء الشمسي البعيد يلون الحافة الشرقية للسماء . وكانت يانينكا تتحدث وتتحدث طوال الوقت عجلى ، لاتدع ايغور يستوعب ، مفعمة بسخاء روحي ، وبالطريف

والمهم مما رأته وعرفته وما كانت تريد أن تشاطر ايغور به من كل بد . اختطفت حذاءها ، وتسللت خلال نبات العليق الشائك على مرتفع الشاطىء ، وايغور لايكاد يلحق بها ولم يعد يحفل بجزمته الأنيقة التي تضررت ، في اغلب الظن .

– تعال ، تعال الى هنا! لماذا انت ثقيل الحركة ؟ لا تخف ، لن تقع ، سأسندك ...

اجتازا منخفضاً ، ثم صعدا من جديد في كورنيش النهر الغافي تماماً ، يتصاعد منه بخار خفيف ، ونزلت يانينكا الى الاسفل أكثر ، على الصخور الجرداء نحو الماء .

– تعال الى هنا . مادام ابي نائماً ، سأريك حوض زهوري . زهور الماتيكا تفتحت . أتعرف الماتيكا ؟ في الفجر تتضوع بقوة !

نزل على المنحدر الحجري منزلقاً على نعليه الجلديين ، الى القارب في الاسفل ، حيث تزودت يانينكا بمجذاف ، وجذبته اقرب الى الشاطىء . قفز ايغور الى القارب ، وما كاد يمسك بجانبه حتى ادارته يانينكا الى التيار .

– سيكون ذلك اقرب . بينما على الجسر يقتضيك وقتاً اكثر ...

فهتف ايغور معجباً :

– أي فتاة أنت !

– اي فتاة ؟ غير لطيفة ، ها ؟ صحيح غير لطيفة ؟

– فتنة !

– واين الفتنة ! سيستيقظ أبي ، ويعاقب هذه الفتنة .

جرف التيار الشديد في وسط النهر قاربهما الى الأسفل ، الا أن الفتاة استطاعت بالمجذاف الوحيد أن تطلع به باتجاه الشاطىء ، وسرعان ما أخذا يتجهان نحو سياج تحت جذوع الصفصاف السميكة .

– امسك الآن ! والا سيجرفنا .

استطاع أن يمسك بعمود زلق مثلث غاطس في الماء ، وقفزت هي الى الشاطىء ، وسحب الاثنان القارب الى العشب .

– سيجدونه في الصباح . أما الآن ... سنسير في هذا الزقاق ، ثم بمحاذاة الحديقة ، ونجتاز حقل البطاطس ، وهناك تحت الكنيسة يقع بيتنا ، على الشاطىء . هل تعبت كثيراً ؟– سألته فجاة بعطف ، وهي تنظر في عينيه .

– لا ، لا باس .

سارا في زقاق طرف البلدة معشوشب . وكانت يانينكا تحمل حذاءها في يديها ماسة كتفه في مشيتها مساً خفيفاً . فكان يشعر بدفء جسدها ينفذ من خلال قماش البلوزة الخفيف ، وبانفاسها القريبة ، ورائحة شعرها المثيرة غير المفهومة ، ويفكر : ما اسعد حظه اليوم بهذه الصورة التي لا تصدق ! الآن صار ممتناً لقلة أدبه التي اباحت له ذلك المزاح السخيف في

بارانوفيتشي ، ممتناً لهذه المدينة بآثارها العريقة ، ولهذه الليلة التي لا تشبه كل الليالي التي شهدها في حياته .

– يانينكا – ناداها بخفوت مقترباً منها تماماً من الخلف ، ولكنها لم تجب ، بل زادت من خطوها بعجالة .

– يانينكا ...

– سنطوف حول هذا البيت ، ثم نتحول الى درب ، ونجتاز حديقة و ...

– يانينكا !

– هيا ، هيا ! لاتتاخر . والا فان أبي سيستيقظ قريباً ، وحالما يفطن ...

صعدا الى الأعلى بمحاذاة سياج في درب نما فيه الارقطيون المندى بقطرات الندى ، واسرعا في سيرهما . وبدأت الدنيا تتنور . وفي ظلام الحدائق الكثيف على مقربة كان ماوراء نيومان مايزال يغط في النوم . طلع بهما الدرب الذي دكته الاقدام جيداً الى حافة حقل بطاطس تفتحت فيها ازهار نجمية بيضاء ، حيث كانت تفوح بقوة رائحة أوراق النبات الفتية ، والأرض الطرية . كانت يانينكا تسير بسرعة في المقدمة ، بينما هو لايكاد يلحق بها ، وجزمته تتشربك في اوراق النبت . على مقربة دانية لاحت على خلفية السماء المنورة قباب الكنيسة البولونية المدببة ، وهناك وراء الكنيسة كانت طوافاتها

تتمايل مطرطشمة بهدوء في ماء النهر الدافيء . لم يبق الا اجتياز مائة خطوة أخرى ، ربما ، كانت تفصلهما عن حديقة الكنيسة ، واذا بصوت غريب ، خافت في البداية ، مشتد بسرعة يخترق السكون الليلي للمدينة التي لم تستيقظ بعد . توقفت يانينكا في المقدمة .

– ما هذا ؟ ما هذا الذي يطن ؟ طائرات ؟

نعم ، كان ذلك صوت طائرات تقترب ، ولكنه لم يكن يصدق بعد أن ذلك الشيء الرهيب للغاية الذي كان يراود الناس كهاجس مزعج ، ويضنيهم ، يبدأ بهذا الشكل السخيف ، وفي ذلك الوقت غير المناسب . كبت في نفسه الفزع متشبثاً بأمل واهن ، متمنياً بلهفة أن لا يتحقق ذلك الشيء الرهيب ، وأن ينقشع .

اندفعت يانينكا المذعورة نحوه ، وكأنما تبحث عن حماية ، وما ان طوقها بذراعيه المتبردتين حتى قذفتهما انفجارات جبارة قريبة على اعواد البطاطس الصلبة . واصابت ظهرهما موجات حارة مشدودة ناثرة عليهما تراباً كثيفاً...

انتظر الدوى الأول المصم للآذان ، ثم نهض. ووثبت يانينكا على جنبه وشعرها منثور على كتفيها ، وبلوزتها مبقعة ، محاولة ، لسبب ما ، أن تلبس حذاءها في قدمها المتسخة . اصمته اصوات الانفجارات فلم يسمع رأساً صوتها الضعيف الى حد الغرابة :

– اركض الى القنطرة ! اسرع الى القنطرة!!! وراء الكنيسة قنطرة ...

وبالطبع كان يجب أن يقطع القنطرة الى مقر الاركان ، فقد صار يعرف ماذا حصل ، ولم يكن في امكانه أن يتصرف خلاف ذلك .

اندفع الى القنطرة ، ولم يعد يلتفت الى شيء ، توقعه ضربات الانفجارات ، فيسقط ، ثم ينهض ، حاملا في واعيته الملتهبة صورة فتاة مذعورة لمحها بصره خطفاً تحمل حذاءها في يديها ، وقد بقيت هناك وسط اوراق البطاطس الندية المتفتحة الزهور .

الفصل الثاني عشر

انتزعته من غيبوبته طلقات ترددت فجاة من مكان ما . في البداية تهيا له أنها طلقات عارضة في القرية القريبة ، ولكنه بعد أن تسمع قلقاً أدرك أنها انطلقت من الجانب الآخر المقابل للقرية . وهو بالذات الجانب الذي جرجرا انفسهما منه في الليل ، واتجه اليه بيفوفاروف . كتم ايفانوفسكي انفاسه مقهوراً بهاجس كريه ، وراح يتسمع ، ولكن لم يبق له اي شك في أن الطلقات كانت تنبعث من هناك .

ولربما فوت الطلقات الاولى ولم يسمعها ، لم ينتبه الا حين صدر صوت طلقة بندقية مرن ،

وأخذت رشيشة تلعلع طويلا في السكون . وكانت رشيشته ، بالطبع . فان الالمان كانوا يطلقون النار بشكل مختلف ، وقد أحس بذلك احساساً دقيقاً . استند ايفانوفسكي على كوعه ، ولكن شيئاً كان يضغط في صدره ، فتتقطع أنفاسه من الألم . سعل ، وبصق نفثات دم متخثرة ، وارتخى على المسطبة من جديد ، بلا حول . وبينما كان يسعل خيم الهدوء هناك ، على ما يبدو ، ومهما ارهف سمعه بعد ذلك لم يلتقط سمعه اي شيء .

تلمس الملازم الساعة قرب المسطبة ، وهو لايكاد يغالب القلق الذي استولى عليه . كانت الساعة تشير الى السابعة واربعين دقيقة . لقد مضى على غياب بيفوفاروف اكثر من ساعتين ونصف . فاذا كانت القرية لا تبعد اكثر من كيلومتر ، وليكن كيلومترين ، فلا بد أن يكون قد عاد الآن . واذا لم يكن قد عاد ، فمعنى ذلك... معنى ذلك أنه تسلل الى القرية ، ولكن لم يستطع الخروج منها دون أن يكتشف ، وهو الآن قد تعرض الى نفس المصير الذي تعرض له ايفانوفسكي يوم أمس .

رفع الملازم جسمه من جديد ، وتسمع ، وحاول أن ينظر في الكوة التي لاتكاد تلوح في الحائط الأسود ، ولكنه لم يستطع الوصول اليها ، فجلس على المسطبة . كان يحس بضيق،

وكانت دوائر نارية حمراء تطوف امام عينيه . تلمس بيده البندقية التي صارت ثقيلة الى حد مذهل . ولكن أية حاجة للبندقية الآن ، فحتى الآن لم يزعجه أحد في مخبئه في الحمام ، ولم يكن أحد على مقربة . ومن المستبعد أن يقدر على القيام بشيء يخفف من مصير بيفوفاروف الذي يبدو واضحاً أنه وقع في مكروه في القرية، ولكن لم يكن يقدر ايضاً الا يقوم بشيء ما . امسك الحائط بيده بجهد هائل وخرج الى مدخل الحمام ، ودفع الباب بقدمه .

كانت ليلة شتائية – مثل أية ليلة من ليالي تشرين الثاني لهذا العام – ريح وسماء واطئة خالية من النجوم، وانبساط كامد غارق في ظلام مهلهل . وكان الثلج يفرش الأرض نقياً حديث النزول ، وكانت ترى عليه بوضوح عدة آثار عميقة خلفتها قدما بيفوفاروف تمتد بمحاذاة حائط الحمام ، وتستدير خلف الزاوية .

انتظر ايفانوفسكي دقيقة لاهث الأنفاس من خفقات الريح الدافقة ، مرهفاً سمعه الى سكون الليل التام ، اذ لم تعد تسمع طلقات ولا خطوات ولاصيحات . وعند ذاك حط ايفانوفسكي عند العتبة دون أن يفتح الباب ، واتكأ على رافدة ، وجلس زهاء ساعة أو لربما اكثر . كان بكليته تحت سلطان انتظار مرهق ممرض مجهد ، مدركاً بوضوح أن بيفوفاروف ، اذا لم يظهر في

الدقائق القريبة، فلن يظهر قط . ولكنه لم يظهر لا في الدقائق القريبة ، ولا في الساعات القريبة التي تلتها . وحين لم يعد قادراً على الانتظار دب ايفانوفسكي على الأربع ، دون أن ينهض ، وتناول مكعب ساعته وراء العتبة فرأى الساعة تشير الى العاشرة الا عشر دقائق .

وفكر الملازم بندامة : «لم ارسلته؟ لم ارسلت؟ وما هذه الاسكيات اللعينة ؟ وأي مقر اركان ؟ مجرد أنني ارسلته الى التهلكة ، وأهلكت نفسي معه ...»

وبالطبع ماكان في وسعه أن يفعل شيئاً بدون بيفوفاروف ، ولكن اذا كان هو نفسه محكوماً بالموت ، فقد كان عليه ان يفكر كيف ينقذ بيفوفاروف على الأقل . بينما هو ارسله في مهمة نسبة النجاح فيها لا تتعدى الواحد من الف . فان في امكان الألمان أن ينصبوا كميناً ، ويضعوا الافخاخ في الحقل ، ويعززوا الحراسة في القرية حتماً والانسلال بينهم لم يكن سهلا على الاطلاق . واذا كان هو لم يوفق في ذلك في الليلة الماضية ، حين لم يكن رجال مقر الأركان قد فزعوا بعد ، فان التوفيق أبعد منالا في هذه المرة .

«طيب ، وما العمل الآن ؟ ماذا ؟» كان ايفانوفسكي يسأل نفسه للمرة الألف ، وهو جالس متكوراً قرب باب الحمام .

وعلى العموم كان يعرف الآن انه يمطي الوقت ليس الا ، آملا الى آخر احتمال بأن بيفوفاروف ربما سيعود . ولكن حين صار واضحاً تماماً خواء كل أمله ، نهض على قدميه متكئاً على الحائط . كان يجرب نفسه ليعرف على اي شيء هو قادر ، أو ربما لم يعد قادراً على اي شيء . انه مازال قادراً ولو بصعوبة على الوقوف على قدميه، لا سيما اذا كان تحت يديه سند اضافي . الآن كانت الجدران بمثابة سند له ، وفي الحقل يمكن ان يستند على كرنافة البندقية . ورجلاه ما تزالان تطيعانه على نحوما ، والاسوأ من ذلك هو بحالة انفاسه ، وبرأسه ايضاً . ولكنه فكر في ان راسه ربما سيعود الى وضعه الطبيعي عندما تهب عليه الريح في الحقل ، أما انفاسه فسيدبر امره معها ، اذا كان ذلك شيئاً فشيئاً ، وبوقفات متتالية ، مقتصداً في انفاق قواه ...

وتملكته هذه النية كلياً ، فعاد الى الحمام ، وعبأ جيوبه بالامشاط من محفظة الخراطيش . لم يستطع ان يرفع كيس المتاع ويضعه عليه ، فتركه على المسطبة ، ولكنه أخذ معه القنبلة اليدوية . وبعد هذا لم يكن في مقدوره أن يظل هنا دقيقة واحدة أخرى ، فطلع الى الخارج ممسكاً بالباب .

قطع حوالى عشرين خطوة على آثار بيفوفاروف الواضحة بحزم صلب يصعب توضيحه،

وان كان يترنح ويكاد يسقط ، وبعد ذلك فقط توقف. فقد بدت البندقية أثقل بكثير مما كانت في البداية ، ولكنه كان يستند عليها ، حين كان يوشك على السقوط ، ولاسيما في دقائق توقفه. وماكان بقادر لوحده على الوقوف على قدميه المرتجفتين من التعب . التقط أنفاسه ، والقى الى الخلف نظرة غريبة معذبة فراى حمامهما يلوح اسود ميتماً ، الحمام الذي كمنا فيه بأمان نهاراً وليلة ، والذي لن يعود اليه ثانية ، حسب كل الدلائل .

وفي المحاولة الثانية لم يقطع حتى خمس عشرة خطوة ، ربما ، وتوقف مترنحا بسبب السعال . كان السعال أسوأ شيء في طريقه هذا ، كان ينخر به كالم داخلي عميق الى حد قتامة العمى في العينين . ولكن بيفوفاروف كان قد ضمده بشكل جيد ، على ما يبدو ، فان القشرة المتيبسة على الجرح ، رغم ما تسببه من الم ، لم تدع الضمادة تسرح عن الجرح ، فلم يخرج الدم منه بعد ذلك . فقط لو يكف هذا الألم الجهنمي في الداخل .

كان يود لو يسير باسرع ما يمكن ، والآن صار الحمام اشارة على سرعته . خطى اربع او خمس خطوات آخر ، وهو لايكاد يثبت على قدميه ، متلفتاً في كل مرة ، ولكن الحمام ، وكأنما من نكد الحظ ، بقي يلوح رمادياً في

الظلام المهلهل ، لا يرغب كثيراً ان يغيب في الليل . ولعل ما لايقل عن ساعة ، قد انقضى قبل أن تبتلعه الظلمة الرمادية تماماً .

وحول الملازم ثلج ، ووريح ، وحقل ، وقد أدرك أن من المستبعد أن يكون قد قطع نصف الطريق . والعودة الآن لم تكن في مقدوره أيضاً ، ليس له القوة على ذلك اطلاقاً . ولم يعد يتلفت ، اذ ما من شيء يمكن ان يكون في الخلف . فكل ما هو حسن أو سيىء ينتظره الآن في الأمام .

وبعد ذلك سقط مرتين متتاليتين ، ولم يثبت على قدميه ، ولم ينهض راساً ، واستلقى على الثلج منتظراً زوال الم الجرح المشار . وفي المرة التالية خانه التوفيق كلياً ، فسقط على ظهره بطريقة لا سيطرة له عليها ، وكانت صدمة الألم من العمق بحيث ظل فاقد الوعي لبعض الوقت . ثم افاق ولكنه بقي راقداً على الثلج وقتاً طويلا ، شاعراً تحته طوال الوقت بكتلة القنبلة اليدوية المدورة . ومع ذلك فقد وجد القوة على النهوض والجلوس ، ثم نهض على رجليه مترنحاً ، وخطى بضع خطوات غاية في الصعوبة .

حاول الا يفكر في شيء ، بل ولم يمعن النظر فيما حوله كثيراً ، ولكنه لم يصرف بصره عن الثلج الذي كانت تمتد عليه آثار خطوات بيفوفاروف العميقة . كانت تسير باتجاه واحد ،

والظاهر ان هذا المقاتل كان يتذكر بثقة كافية طريقهما من قرية يوم أمس، فسار عليه بسرعة. والآن كان اخشى ما يخشاه ايفانوفسكي ان تضيع عنه هذه الآثار .

وكان تضييعها سهلا ، على الأخص حين كانت تجتاحه موجة أخرى من الضعف ، ويعشو بصره . ولكنه كان يتوقف حينذاك غارزاً البندقية في الأرض ، وينتظر زوال نوبة الضعف هذه . والى جانب ذلك كانت الريح تضايقه بشدة ، اذ لا تدعه ينظر في البعيد . وتستدر الدموع من عينيه . واحياناً كانت عصفاتها القوية تدفعه بشدة حتى أنه كان يترنح ، ويكاد يسقط على الثلج . ولكنه كان يقاوم الريح بعناد ، ومعها يقاوم ضعف جسده والمه . وكان يدرك ، بالطبع ، أن من غير المحتمل ان يلتقي بيفوفاروف ، بل وفي اغلب الاحتمالات لن يراه بعد الآن ، ومع ذلك فقد كان عليه ان يقطع هذا الطريق المهلك الذي ارسله فيه . وبالطبع لقد جازف بالكثير جداً في هذه الحرب ، ولقي الكثيرون فيها حتفهم بذنب منه . ولكن مجازفته هذه كانت تختلف عن جميع المجازفات الأخرى ، فقد كانت الأخيرة ، ولهذا كان عليه أن يصل بها الى نهايتها . واذا كان في هذه اللعبة الشيطانية مع الموت لم يصن الكثيرين ، فانه لم يكن يصون نفسه ايضاً ، وكان هذا وحده

يبرر حقه كآمر في التصرف بالآخرين . ولم يكن يريد أن يعترف في الحرب في حق آخر . وفي أسوأ الأحوال يجب أن يتأكد قبل أن يودي بنفسه ، أن رفيقه بيفوفاروف لا يرقد في مكان ما من هذا الحقل ينزف دماً .

سار وسار مترنحاً مرتخيا متوقفاً من حين لآخر مستنداً على بندقية بيفوفاروف الثقيلة الطويلة . وذات مرة ، حين انعكفت رجلاه تماماً من التعب ، جلس على الثلج ، واستراح وقتاً طويلا . ولكن نهوضه على قدميه من جديد كلفه جهداً مضنياً جداً ، حتى أنه لم يجازف مرة أخرى في الجلوس والاستراحة ، وراح يتكىء على كرنافة البندقية . كان الآن يتوقف كل اربع او خمس خطوات . شاعراً بضيق بالتنفس .

ومرة أخرى تصور أنه قطع حوالي ثلاثة كيلومترات ، ان لم يكن اقل ، وراوده الشك في صحة قول بيفوفاروف عن المسافة الى تلك القرية وكان من الصعب أن يصدق ان المسافة بين القرية وحمامهما زهاء كيلومترين . ومن المؤسف في هذه المرة أنه لم يأخذ ساعته معه ، ولم يكن في مقدوره أن يتابع الوقت . ولكنه كان يتصور ، من بعض الدلائل ، أن القرية لم تعد بعيدة ، حتى لكأنه في ضواحيها الآن . الا ان آثار بيفوفاروف ظلت تمتد وتمتد حتى بدا وكأنما ليس لها نهاية في هذا الحقل . وكان من

الصعب التخمين أين يمكن أن يكون بيفوفاروف الآن ، رغم أن ايفانوفسكي كان متهيئاً لأسوأ الاحتمالات . ولكن من الممكن أيضاً أن يكون قد أفلت من المطاردة ، كما حصل لهما يوم أمس ، وهو الآن يختفي جريحاً في موضع ما من هذا الحقل .

وكاد ايفانوفسكى يتخطاه ، لأن آثار الخطوات على الثلج ظلت تمتد الى حيث لايدري ، والى الأمام لم تكن العين ترى شيئاً . ولكن حركة غير واضحة ، كالتماعة شيء لفتت انتباهه فجأة في ناحية ، في ظلام الليل الكدر ، وسط الحشائش المطمورة بالثلج . في بادىء الأمر لم يرد حتى أن يمعن النظر في ذلك الاتجاه ، بل اختطف نظرة على الثلج ، الا أنه توقف بعد ذلك ، وامعن النظر ، واختلج شيء في داخله مذعوراً . كان شيء اشبه بقصاصة ورق تخفق في الريح بلا صوت تقريباً ، رغم أنه لم يكن مفهوماً من أين جاءت هذه الورقة الى هنا . انحرف عن آثار بيفوفاروف ، وجرجر نفسه الى هناك منقلا قدميه على الثلج العميق بصعوبة غير قادر على انتزاع بصره عن نصل عشب غير بعيد .

وفجأة ميز من بعيد حدبة بيضاء غير واضحة في ذلك العشب ، خطوطا مميزة لجسد انسان راقد ، ساقي جزمة سوداوين على الثلج . توقف. وسرت في واعيته حيرة غريبة : من يمكن ان

يرقد هنا ، في الحقل الليلي ، في مثل هذا الزمهرير ؟ ولسبب ما لم يرد الملازم أن يقر بأن الذي رآه هو بيفوفاروف ، ولربما كان من غير المعقول تماماً أن يرى مقاتله في هذا الوضع ، فقد بدا ان ذلك شخص آخر عارض ، غريب هنا .

ومع ذلك فقد كان هو ، المقاتل الأخير لديه، صاحبه بيفوفاروف . كان يرقد بلا حراك في بدلة التمـويه المـمزقة ، ورأسه الحاسر الحليق يتخلله الثلج ، ورجلاه مبسوطتان . ولم يلحظ الملازم رأساً أن الثلج حوله قد دكته اقدام عديدة ، وتناثرت في اماكن منه مظاريف طلقات الرشيشة المدورة سوداء على الثلج ...

جرجر ايفانوفسكي نفسه الى العشب ، والقى البندقية من يده ، وسقط الى جانب المقاتل . امسك رأسه باصابع متثلجة ، ورفعه ، ولكن الرأس المرصع بالثلج كان قد فقد أية علائم على الحياة منذ وقت طويل على ما يبدو ، فكان مجرد رأس ميت لانسان فقد اي شبه بصاحبه بيفوفاروف . أخذ ايفانوفسكي يتحسس جسده . كانت بدلة التمويه قد تيبست في الدم، كما التصقت السترة المبطنة بجسد المقاتل المدمى الذي قتلته صلية من مسافة بعيد ، على ما يبدو . كما أن الثلج تحت جسده ، وبالقرب منه ، قد تحول الى حدبات دامية صلبة .

– ماذا فعلوا بك ؟ ماذا فعلوا بك ؟

جمد هذا السؤال الحائر على شفتيه . ولكن ما فعلوه به كان واضحاً . والظاهر أن بيفوفاروف اصطدم بهم فاصابوه اصابة مباشرة . ومن المحتمل ايضاً أن يكونوا قد اجهزوا عليه وهو جريح راقد على الثلج في هذا العشب والآن كانت خصل القطن الفاتحة تبرز من الثقوب العديدة في سترته المبطنة . وكانت جيوب بنطاله مقلوبة ، والقميص الداخلي مفتوحاً ، والثلج مذروراً على صدره النحيل المدمى . والرشيشة غير موجودة في اي مكان ، والظاهر أن الألمان أخذوها .

ولما أدرك ايفانوفسكي أن كل شيء قد انتهى ، ولا حاجة الى أن يذهب الى اي مكان الآن ، تهاوى وخار ، وجلس صامتاً ، ملقياً ذراعيه على الثلج . وبالقرب منه جثة مقاتله الهامدة . واستولى على الملازم خواء غير اعتيادي ، وخلا رأسه من أية رغبة ، من اية فكرة واضحة ، الا من جمرة غضب منسية ، أو مايشبه الحقد كانت تومض في مكان ما من قعر مشاعره . الا ان هذه الجمرة كانت تشتعل اكثر فاكثر بمرور الوقت . ولكنه لم يعد لديه توجه محدد ضد شخص ما ، وبالأحرى خمد استياؤه الانساني على نهايته الفاشلة . الآن صار ايفانوفسكي يعرف بالضبط أنه لن يعيش ، لن ينجو ، ولن يشق طريقه الى معسكره ، وان

موته سيكون هنا ، في هذا الحقل ، بين قريتين مجهولتين ، ولن يخبر أحد الرئاسة لا عن موته ، ولا عن مقر الاركان الالماني هذا . وبالطبع لن يستطيع احد ان يفعل شيئاً لمقر الاركان هذا ، لأن رجالنا بعيدون ، بينما الأموات محرومون من اية امكانية للقيام بشيء . ولم يبق امامه الا ان يجلس على مقربة ، وينتظر الى ان ينتزع الزمهرير والجرح آخر بقايا الحياة فيه . بل أن في ذلك ما يغري ، لأنه قد حرره من الصراع المضني مع الألمان ، مع الالم ، ومع نفسه . ولربما من المجدي للاسراع في انهاء كل شيء ايصال طرفي المسمار القنبلة اليدوية المضادة للدبابات والكبس على الزناد ... وسيمزق انفجارها الجبار جسديهما اربا ، ويثير الثلج فيما حوله ، ويحفر في الأرض حفرة صغيرة تكون لهما قبراً . والظاهر أنه سيلجأ الى ذلك اذا كانت نهايته ستطول او يعجز عن الاصطبار . ان لم يكن هناك مخرج آخر . وليسامحه الوطن ، والناس ، فليس من ذنبه أن لا يكون اوفر حظاً ، وأن لا يقع من نصيبه الشيء الاكثر فظاعة في الحرب ، والذي لا يوجد اي شيء بعده .

ولربما ما كان سيظل طويلا في الريح الزمهريرية ، ورقد الى الأبد قرب زميله ، لو لم تبلغ سمعه بعد قليل من الوقت ، اصوات غريبة من خلال سكون الريح . والظاهر ان سمعه

كان أرهف حاسة من حواسه ، يوقظه الى آخر حد للحياة ، والآن كان السمع بالذات هو الذي يربطه بالعالم المحيط به . في البداية تصور ايفانوفسكي ان ذلك مجرد توهم ، ولكنه بعد أن تسمع بدد كل الشكوك في نفسه ، فقد كانت سيارة تهدر في مكان ما ، بالفعل . وتذكر كيف التقى في الليلة الماضية ، في الحقل ، طريق الى القرية ، ولكن لم تكن لديه الآن فكرة عن هذا المكان . ومع ذلك فلا بد أن تكون في مكان ، وعلى مسافة غير بعيدة اطلاقاً كانت تسير سيارة في ظلام الليل الرمادي . دفع الملازم رأسه ، وتسمع بتوتر ولوقت طويل الى طنين المحرك المشدود الى أن اختفى الصوت في البعيد نهائياً .

ان هذه الحادثة المفاجئة أثارت وعيه الذي كان قد هدأ تقريباً ، وتولدت في نفسه رغبة جديدة مناقضة لمشاعره . كف عن التفكير في مصيبته ، وأرهف حواسه ، وتشكل اليأس الحانق في هدف – آخر هدف في حياته . فليت ذلك قد حدث من قبل ، حين كان لديه قدر ضئيل من القوة اكثر ! ..

أخذ يتحرك على الثلج خائفاً من التأخر ، وطوى تحته رجله الجريحة ، معتمداً على يديه بشكل ما . وفي البداية نهض على ركبتيه ، ثم حاول أن يقف على قدميه . ولكنه لم يستطع

التحكم في توازنه ، وسقط بكتفه على الثلج . فأنّ انيناً مكتوماً ممطوطا من الألم في صدره . ورقد زهاء عشر دقائق ، صاكاً على أسنانه ، وخائفاً أن يستنشق نفساً عميقاً ، ثم أخذ ينهض من جديد . وقد نجح في ذلك بالمحاولة الثالثة ، وأخيراً وقف على رجليه المرتعشتين ، وترنح ، ولكن لم يسقط . نسي أن يأخذ البندقية التي كانت مرمية على بعد قليل عند قدمي بيفوفاروف، ولكنه الآن لم تعد له الثقة في ألا يسقط ، وهو ينحني ليلتقطها . فكر قليلا ، ولم يجازف في الانحناء خشية أن يسقط ، بل سار على الثلج بسرعة . وكأنما يتهيأ للانطلاق .

حاول بكل قواه أن يحافظ على توازنه ، ويتماسك على رجليه ، ولكن الريح الشديدة كانت تعيقه طوال الوقت . وكانت تبدو أنها تشتد بالتدريج ، واحياناً تدفعه من صدره بقوة حتى ليتعذر وقوفه على قدميه . وهكذا سقط مرة أخرى بعد أن ابتعد عن بيفوفاروف زهاء ثلاثين خطوة ربما ، وحاول أن ينهض رأساً ، ولكنه لم يستطع . رقد مغالبا ألماً شديداً في جنبه الأيمن مقنعاً نفسه بان لايتسرع وان يتريث وينفق قواه الضعيفة باقتصاد أشد . ولكن الرغبة في الوصول الى الطريق باسرع وقت كانت تتملكه بشدة ، حتى أنه لم يجنح الى استشارة

العقل ، فقد كان الآن تحت سيطرة شعور صار أقوى من هدايات العقل .

ونهض من جديد ، على الاربع في البداية ، ثم على ركبتيه ، بعده على قدميه كلتيهما باندفاعة واهنة ، ومجاهدة هائلة . وكان اصعب شيء ثبوته عليهما قبيل الخطوة الأولى بالذات . وبعد ذلك كانت حركة الجسد الاستمرارية تكتسب قوة ، حتى أنه كان يقطع الخطوات القليلة الأولى بيسر نسبي . ولكن الخطوات التالية تباطأت من جديد ، فانحرف الى ناحية ، ثم الى أخرى ، وسقط أخيراً ، وقد مد أمامه ذراعيه المتقسيتين بفعل الصقيع .

صارت وقفاته الاضطرارية بعد السقوط اطول فأطول ، واحياناً كان يخيل اليه أنه لن ينهض بعد الآن ، ومن حين لآخر كانت سلسلة الزمن الرابطة تنقطع في واعيته السارحة ، فيتساءل فجأة في حيرة : اين هو ؟ ولكنه كان يعرف مؤكداً الى اين يجب أن يذهب ، فلم يختلط عليه الاتجاه قط ، متذكراً بوضوح في سرحان الذهن هدف حياته الأخير .

ولكنه سقط ذات مرة ، فادرك أنه لن يقدر على النهوض من جديد . فقد بذل على نهضاته هذه قدراً هائلا من القوى التي صارت تتضاءل اكثر فأكثر . رقد على الثلج اللاذع ببرودته ، وبقي راقداً لوقت طويل . ولربما اطول بكثير جداً

من أن يستمد الهمة لينهض في وقت ما . ولكنه في آخر لحظة أدرك فجأة أنه اخذ بالتجمد ، وقد افزعه هذا . اذ ما كان في مقدوره أن يسمح لنفسه بأن يتجمد . وعندئذ أخذ يزحف مجذفاً في الثلج الناعم الهش بمرفقيه وركبتيه .

ولكن سرعان ما تبين أن الزحف ليس اسهل اطلاقاً بل ولربما أصعب من السير مترنحاً على رجليه . زفر ما في صدره حتى النهاية ، وسقط على وجهه . لقد كان ما يفعله صراعاً أعمى لانهائياً مع الثلج ولكن لذلك افضلية على السير ، اذ لم يكن يحتاج الى النهوض على قدميه حرصاً على بقية قواه المنهوكة تماماً . كان يزحف ، ويسكن على الثلج ثم يزحف من جديد قدر ما في رئتيه من هواء . وكان طريقه كله هو من هذا التجذيف الجنوني في الثلج ، ومن الفترات الطويلة من غياب الوعي . ولكن وعيه لم يكن يغيب طويلا ، فقد كان غاية قوية لدقائقه الاخيرة ، يملي ارادته بسلطان على جسده المنهك .

كان السعال يفل صدره ، ولكنه لم يستطع ان يستنشق ، ولا أن ينفث ما في صدره ، فقد كان يخشى نوبة الألم التي ، ربما ، لم يعد في وسعه تحملها . ومع ذلك فان السعال قد هزه ذات مرة هزة قطعت انفاسه ، فسقط برأسه على الثلج . وعندما انتهت نوبة السعال اخيراً

احس بطعم مالح دافىء على شفتيه . بصق ، ورأى الدم على الثلج بوضوح ، فمسح شفتيه بكم بدلة التمويه المتجمد ، وبصق ثانية ، ولكن الدم ظل يطلع . وسال من حنكه على الثلج خط داكن بطيء . فرقد على جنبه خائر القوى تماماً، شاعراً في شرود بال ، بالحياة تتخلى عن جسده ببطء . الا انه في رقدته هذه فزع ثانية من اقتراب المحتوم ، رغم انه كان يعرف انه لابد آت في وقت ما . ولكنه ما كان يشغله الآن اكثر هو السؤال : اين الطريق ؟ فقد كان عليه أن يلحق للوصول الى الطريق قبل ان يختطفه الموت. فان كفاحه في هذا الحقل كان في جوهره سباقاً مع الموت : من يسبق الآخر ؟ والظاهر أن الموت قد لحق به الآن ، وهو يسير في اعقابه متحيناً فرصة ان يقضي عليه مؤكداً .

ولكن لا ! فليذهب الدم الى الجحيم ، ليس من المحتمل ان ينزف كلياً . فقد كان يشعر بأن فيه شيء من بقية ، ان لم يكن من قوة ، فمن عزيمة ربما . استلقى نصف ساعة ماضغاً ومبتلعاً الثلج ليوقف الدم ، ويبدو انه اوقفه . انكمش فكاه من البرد ، ولكن شفتيه فقدتا الطعم المالح ، فواصل الزحف ببطء وبتوقفات ساحباً على حزامه قنبلته اليدوية الوحيدة .

وحين طلعت امامه أشباح اشجار البتولا الرمادية من الظلام الثلجي ادرك أن ذلك هو

الطريق ، وانه قد بلغه في زحفه أخيراً . وزال راساً التوتر الشديد الذي لازمه طوال الليل تقريباً، وتكدر بصره قليلا . رقد بصدره المصاب في الثلج الصقيعي على الاخدود الذي حفره ، وخمد بعد أن فقد وعيه .

الفصل الثالث عشر

ومع ذلك فقد افاق على نفسه ، بعد ان تجمد على الثلج كلياً ، وتذكر على الفور أين هو ، وماذا يجب عليه . لقد بقي هدفه الأخير فيه ، حتى حين غاب وعيه ، سوى انه لم يكن يعرف كم قضي من الوقت فاقد الوعي ، وعلى أي شيء قادر الآن . بل وفي الدقيقة الأولى فزع، وقد ظن انه قد تاخر . كان السكون يخيم على الطريق ، وما من صوت ياتي من اي مكان . كانت الريح الارضية تسف على الحقل وتخشخش فيما حوله ، والثلج يغطي الملازم حتى الكتف ، وذراعاه تيبستا حتى لم يعد يستطيع تحريك اصابعه . ولكنه كان يدرك ان عليه أن يزحف على الطريق ، فان طريقه ماكان من الممكن ان يعتبر منتهياً الا هناك .

وأمتد صراعه المنهك مع الثلج مرة أخرى . وزحف ايفانوفسكي ببطء ، ومتراً واحداً في الدقيقة ، لا اكثر . وكان قد وهن الى حد انه

لم يستطع أن يرفع جسمه على مرفقيه باي قدر كان ، فغمس جنبه في الثلج ، مستنداً على قدميه اكثر . ولسبب ما لم يعد يشعر الآن بالم في رجله الجريحة ، يبدو ان الألم قد زال عنها . ولكن حنايا صدره كلها كانت تحترق وتلتهب ، وقد تحول كل شيء فيها الى بؤرة الم متضخم لا يهدأ . وكان يخشى كثيراً ان يطلع الدم من حلقه مرة أخرى ، فقد كان يشعر بأن كل شيء عند ذاك سينتهي بالنسبة له ، فتوجس من التنفس بعمق اكثر ، ولا يسمح لنفسه بان ينفث ما في صدره . فقد كان يحرص على رئتيه المصابتين باعتبارهما الشيء الأهم الذي كانت تتوقف عليه كلياً ساعات حياته الأخيرة .

كان في حالة سيئة جسدياً ، وكان يدرك ذلك . وكان وعيه – مثل السائر على الحبال ، يتارجح طوال الوقت بين اليقظة والاغماء ، متهيئاً في اية لحظة أن يسقط في غيبوبة ، فكان الملازم لايكاد يغالب بجهد هائل من ارادته الوهن الناشب اظفاره فيه . وكان لايستطيع أن يبيح لنفسه فقدان الوعي ، والطريق على مقربة منه .

ولربما كان سيسيطر على نفسه ، ويزحف على الطريق وان يكن ببطء وصعوبة ، لولا تلك الساقية التي كانت تقف في طريقه كمصيدة حقيرة . وكاد ايفانوفسكي يختنق ، حين وقع في قاعها المفروش بالثلج ، واخذ يسعل وشعر

رأساً ببداية نزيف ، فقد طلعت من فمه نفثة صلدة مقززة ، وسال سيل دافيء من الدم من حنكه على رقبته ، وعلى الثلج . فانكفأ بوجهه على حافة الساقية ، وفكر في انه ماكان من الممكن أن يفكر في مآل اسخف من هذا المآل : أن يزحف طوال الليل الى الطريق بهذه الصعوبة ، وخارج اكل طاقة ليموت على بعد خطوتين منه . وغداً سيمر الألمان ، وبدلا من أن يواجههم بقنبلة يدوية ، سيكون أمامهم جثة متجمدة بائسة .

فيا له من مصير !

وأخذ الوعي يتخلى عنه من جديد ، ولم يعد يسعفه اي جهد . وغشى عينيه الظلام ، وتقلص العالم كله في احاسيسه الى نقطة صغيرة وضيئة تتضاءل بالتدريج ، وانطفأت هذه النقطة . ولكن شيئاً ما تغلب فيه على الموت في هذه المرة أيضاً ، واعاد جسده المعذب الى الحياة . ومن جديد ، وبدون أي جهد من جانبه أخذت هذه النقطة تضيء ، فاذا به يشعر من جديد بالثلج حوله ، وبالزمهرير ، وبنفسه في هذا الزمهرير مثقلة بالوهن والألم . واخذ يتململ راساً ، يتحرك محاولا بكل جهده أن ينتزع نفسه من مصيدة الثلج – الساقية ، ويزحف الى الطريق . فما دام حياً يجب أن يحتل موقعه الأخير ، وينهي حياته هناك .

وخرج من الساقية على كل حال ، وانهد بجنبه على حافة الطريق ، وزحف اربع خطوات أخرى، وهمد خائر القوى. فقد كان تحته أخدود، وقد احس به بوضوح بكل جسده ، ولم يكن يستطيع تجاوزه . زفر زفرة قصيرة بارتياح ، واخذ يهيىء القنبلة اليدوية .

الا أنه اضطر أن يعاني مع القنبلة اليدوية وقتاً طويلا ، ولربما اصعب مما عاناه مع الساقية . فان اصابعه المتجمدة غير الطيعة فقدت ، كما يبدو ، كل حاسية ، وقد حاول عبثا ولعدة دقائق أن يفك بها الابزيم الذي كان يشد القنبلة اليدوية بحزامه ، ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك . ظلت الأصابع تتخبط بعمه على وركه ، ولم يستطع حتى أن يتحسس بها طرفي الابزيم ، وكان ذلك شيئاً مريعاً . وكاد ينخرط باكياً من هذه الخيانة التي طعنته فجأة ، ولكن يديه في الحقيقة هما اللتان أخذتا تخونانه اولا . عندئذ تلمس كتلة القنبلة المكورة الثقيلة بمرفقه، واستجمع قواه المتبقية لديه وضغط بها القنبلة اليدوية على خاصرته من الأعلى الى الاسفل . فطقطق شيء ، وشعر على الفور أنه قد تحرر من ثقل لقد كانت القنبلة اليدوية راقدة على الثلج .

ولكنه فقد الكثير من قواه ، على ما يبدو ، فلم يقدر على شيء آخر. بقي راقداً في الاخدود الذي كانت الريح الارضية تسرح به وتدور ،

وفكر بان من المحتمل أن يغمره الثلج في هذه الحال . ولكن لايهمه في أن يغمره ، فهو لا يسرع الى أي مكان ، فقد بلغ غايته . الآن لم يبق الا أن يدبر أمره مع القنبلة اليدوية . ومهما يكن فقد تلمس مقبضها الحديدي بيديه الفاقدتي الاحساس ، ولكنه لم يستطع أن يعدل طرفي المسمار . عند ذاك دفع القنبلة في الاخدود على نحو ما ، وقربها من حنكه ، وانشب اسنانه في طرفي مسمار الأمان المعكوفين .

في وقت آخر كانت تكفيه حركة قصيرة من اصبعين ليعتدل هذان الطرفان المعكوفان ، ويكون في الامكان نزعهما من المقبض . أما الآن فمهما حاول لم يستطع معالجتهما . فكأنما جمدا هناك ، كأنما لحما تماماً ، وظل نصف ساعة يقضم ، ويدير ويعدل السلك الحرون مهشماً اسنانه وممزقاً لثته . ولربما بعد المحاولة المائة فقط استطاع أن يمسك كلا الطرفين باسنانه ، ويعدلهما . وكان طوال الوقت يخشى ان يفوته الوقت ، وتظهر السيارات في الطريق ، ولا يستطيع أن يفعل بها شيئاً . ولكن السيارات لم تظهر ، وعندما صارت القنبلة اليدوية مهيأة للقذف ، صار ينتظر بصبر وجلد .

ولكن الانتظار كاد يكون أصعب كل ما لقيه في تلك الليلة . كان يلتقط بسمعه الحاد المرهف

كل صوت في الحقل ، ولكن لم يسمع حوله اي صوت ما عدا ضجيج الريح المستمر . وكان الطريق الذي اقتضاه بذل كل جهد خارق ، والذي كان يتلهف كثيراً للوصول اليه بقي خالياً . جمد كل شيء حوله ، وغفا ، ولم تبق الا ذرات الثلج تخشخش برتابة في قماش بدلة التمويه المتجمد ، غامرة اياها في الأخدود ببطء .

ظل ايفانوفسكي يتسمع ولا يسمع شيئاً قط ، فأخذ يفكر بوحشة في أن أحداً لن يظهر فيه حتى الصباح ، حسب كل الظواهر . فهو ليس بالطريق الذي يطرق ليلا اذ لا بد أن يخرج أحد صباحاً من مقر الأركان ذاك ، أو يمر في الطريق اليه ، فمن غير الممكن أن يستغني مقر الأركان عن الطريق . ولكن ايفانوفسكي لم يكن يعرف كم تبقى على طلوع ذلك الصباح – ساعة أو خمس ساعات . انه الآن يأسف كثيراً على ترك ساعته في الحمام ، فقد كان ذلك هفوة كبيرة في أغلب الظن . لأنه لم يكن في مقدوره بدون معرفة الوقت ، أن يقدر قواه ليبقى حياً حتى الصباح .

رقد بصدره على الثلج ، وانتظر ضاغطا على مقبض القنبلة اليدوية بأصابعه الفاقدة الاحساس . ولم يكن يفتح عينيه تقريباً ، فقد كان بدون ذلك يعرف أن ظلاماً ثلجياً كابياً

يحيط به ، ولا شيء آخر . وفي سكون الليل الرهيف كان كل صوت في الكون يسمع جيداً ، ولكن تلك الأصوات التي كان ينتظرها بلهفة لم تتردد في أي مكان .

ولما بقي في جموده أخذ يفقد الدفء بسرعة ، ويتجمد شاعراً تماماً بأن الصقيع والريح سيجهزان عليه ، قبل أن يفعل الألمان . وكان احساسه بذلك يشتد بكل خلية من خلايا جسده المتجمد الى الأعماق ، والذي لم يكن قادراً حتى على الارتجاف . كان بالفعل يتجمد ببطء وبشكل متواصل وبلا هوادة . ولا أحد كان في مقدوره هنا ان يعيشه او يشجعه ، ولا أحد يعرف حتى كيف أنهى طريقه . ومع هذا التفكير شعر ايفانوفسكي فجأة بالخوف ، بالهلع تقريباً . لم يكن من قبل قط في مثل هذه الوحدة ، فقد كان دائماً الى جانبه أحد في اللحظة الصعبة ، وكان له دائماً من يستند اليه ، ويشاركه في الضراء . بينما كان هنا وحيداً كالذئب المطارد الجريح في حقل صقيعي لا حدود له .

ان نهايته محتومة بالطبع ، ولكنه كان يدرك ذلك بوضوح كاف في وضعه هذا ، ولم يكن يأسف كثيراً على ذلك . لم يكن في وسع شيء أن ينقذه ، ولم يكن يأمل في معجزة ، وكان يعرف لا معجزات في الحرب لأولئك المصابين في صدورهم . كان لا يأمل في أي شيء ، سوى أنه

كان يريد الا يموت بلا طائل . فقط الا يتجمد في هذا الطريق ، وأن ينتظر طلوع الفجر وأول سيارة محملة بالألمان . ورائع لو كان فيها جنرال ، فيقذفه ايفانوفسكي في الهواء مع سيارته الفاخرة. وفي أقل الاحتمال لا باس أن يكون عقيد أو رجل مهم من الوحدات الهتلرية المختارة . فان مقر أركان كبيراً في قرية لابد أن يضم ، في كل الاحتمالات ، ما يكفي من المراتب المهمة .

ولكن ذلك يقتضي انتظار الفجر ، والصمود امام الزمهرير الشيطاني لهذه الليلة الحاسمة . والظاهر أن قضاء الليلة كان من الصعوبة بحيث أخذ يخاف . كان يخاف أن يلتصق متجمداً على الطريق ، يخاف أن يغفو ، أو يفقد وعيه لوقت طويل ، يخاف أن يسعل اكثر قوة خشية أن يتفجر الدم . لقد كانت في انتظاره في هذا الطريق اللعين مخاطر جمة كان يجب أن يتغلب عليها أو يتحاشاها ، ويتحايل ليظل حياً حتى الصباح .

كان لا يشعر بيديه تقريباً ، ولكن رجليه بدأتا تخدران الآن . حاول أن يحرك اصابعه في جزمته ، ولكن لم يوفق الى شيء في ذلك . وعندئذ ، ولكي يحافظ بشكل ما على الدفء المتسرب من جسده ، بدأ يضرب الطريق بجزمتيه المتجمدتين . وتردد من الخلف طرق أصم مفزع ، فتوقف . ولم يشع في قدميه أي

دفء، ولكن حاله قد ساءت ، واذ راح يشعر بأنه أخذ في فقدان وعيه دس القنبلة اليدوية تحته بآخر جهد . فقد كان الآن مضطراً الى الحرص على القنبلة اليدوية أكثر من حياته . فان كل وجوده بدونها في هذا الطريق قد تجرد من المغزى في الحال .

وبعد غياب عميق عن الوعي تبعته فترة طويلة من الوهن المتلزج المضني شعر بعدها من جديد ببرودة نافذة فارتعب . بدا وكأن هذا الليل بلا نهاية ، وما من تحايلات تساعده على البقاء حتى الصباح . ولكن كيف يمكن هذا ؟ كاد يصرخ فيه صوت محتج مملوء بالاستماتة . هل من المعقول أن الحالة ميئوس منها ؟ أين اذن ذهبت كل جهوده ؟ ايعقل أنها بلا جدوى كلها ؟ ولكنها نتاج «أنا» المادية ، وهي نفسها مادية ، في الاغلب ، فهي الثمرة التي انهكت قواه ، والدم الذي أراقه ، فلماذا يجب أن تختفي بلا أثر في هذا العالم المادي ؟ تتحول الى عدم ؟

ومع ذلك فقد كان يعرف على وجه التأكيد تقريباً أن كل شيء قد أنتهى بالفشل ، ولكنه كان يرفض أن يفهم ذلك . كان يريد أن يؤمن بأن كل ما فعله في هذه العذابات ، لابد أن يكتشف في مكان ما ، ويظهر بشكل ما . ولايهم أن يكون اليوم ، ولا ان يكون هنا في هذا الطريق ، بل ربما في مكان آخر ، بعد وقت .

ولكن يجب أن تؤدي ميتته المعذبة هذه ، مثل آلاف الميتات الأخرى الأقل تعذيباً ، الى نتيجة ما في هذه الحرب . والا فكيف يموت في يأس تام من ضرورته على هذه الأرض وفي هذه الحرب ؟ لم ، اذن ، ولد ، وعاش ، وكافح بهذا القدر ، وتعذب ، وأراق الدم الحار ، ومايزال يضحي بحياته في عذابات ؟ اذ لابد أن يكون في هذا معنى انساني ، وان يكن ضئيلا جداً .

وفجأة آمن بأن ذلك سيحصل وسيحصل بالتأكيد ، لأن ما من عذابات انسانية تخلو من معنى في هذا العالم ، ولا سيما اذا كانت عذابات جندي ، ودم جندي مراقاً على هذه الأرض الجافية المتجمدة ، ولكنها أرضه . فان في ذلك معنى ! وستكون ثمة نتيجة ، ولا مناص من ذلك ، لأن ذلك ما ينبغي أن يكون .

فقط أن يطول به العمر الى الصباح ...

وخلال ذلك نفذ الصقيع والزمهرير الى جوفه فشعر بذلك . وبحافة وعيه راقب كيف البرد يستحوذ على جسده المنزوف دماً ببطء ولكن بلا توقف ، وراح يعد الدقائق القصيرة التي تبقت له . وذات مرة فتح عينيه قليلا ، فاندهش فجأة ، وجاهد ففتحهما اكثر . لقد تنورت الدنيا فوق الحقل . والظلام الذي كان يغطي الأرض طوال دهر بدثار سميك ارتفع عن صدرها قليلا ، فصار الحقل أرحب ، وصفت

السماء ، وتحددت عليها بوضوح ذرى اشجار البتولا المنظومة بالجمد . واندحاح الطريق في المدى البعيد تكنسه الريح الارضية .

ولما شمل الملازم كل ذلك بنظرة مقتضبة أتعبته رغم ذلك، اراد ان يلقي راسه على الثلج ، واذا به يرى شيئاً . في البداية خيل اليه انه سيارة ، ولكنه أمعن النظر فأدرك انها عربة على الاكثر . أتعبه التمعن الطويل ، فالقى رأسه على الثلج شاعراً في نفسه بالارتباك والفزع والأمل في ذات الوقت . وبرز أمامه سؤال هائل كالتوبيخ : من يمكن ان يكونوا في العربة ؟ اذا كانوا فلاحين ، كولخوزيين ، فان ذلك من باب المعجزة التي كان يرفض الايمان بها قبل وقت ليس بالبعيد . يعني أن انقاذاً يقترب منه . واذا كانوا ألماناً ... ولم يستطع مطلقاً أن يفهم ما الذي يحمل الألمان على أن يخرجوا في الصباح الباكر في عربة من قرية تضم مقر اركان كبيراً. وانصب كل ما فيه ضد هذه الفرضية السخيفة ، طوال الليل كان ينتظر اي شيء ما عدا أن يكون ذلك الشيء عربة بحمولة لا شأن له بها .

ومع ذلك فقد كانت عربة ، صارت تقترب ببطء . حتى أخذ يرى الحصانين المربوطين فيها ، حصاني جر ضخمين اصهبين يهزان ذيليهما القصيرين ويجران وراءها بسهولة وبلا اي جهد ظاهر عربة محملة بالقش الى الأعلى ،

وعلى قمة تل القش قعد المانيان يجذبان الأعنة، ويتحدثان بهدوء .

جمد ايفانوفسكي في الاخدود مسحوقاً كلياً بما راى ، فان مثل سوء الحظ هذا ماكان من الممكن حتى أن يدور في ذهنه . فبعد تلك الجهود الكثيرة ، والموت ، والعذابات ، صار عليه أن يفجر سائقي عربة مع حمولة قش بدلا من قاعدة الذخيرة ، بدلا من جنرال في سيارة «اوبل — ادميرال» انيقة ، وحتى ضابط اركان برتبة عقيد .

ولكن لن يكون شيء ، آخر، على مايبدو . وعلى اقل تقدير لن يكون شيء ، بالنسبة له . لقد قدم آخر قسط له الى الوطن في مضمار واجبه كجندي . والاقساط الأخرى ، الاكثر وزناً ، ستقع من نصيب آخرين . وستكون هناك، على الارجح ، قواعد كبيرة ، وجنرالات بروسيون متغطرسون ، ورجال حاقدون من الوحدات الخاصة . بينما كان من نصيبه سواق عربة ، يتصدى لهم في معركته الأخيرة المقررة نتيجتها مسبقاً . ولكن يجب ان يتصدى لهم باسمه وباسم بيفوفاروف ، وباسم شيلودياك وكودريافيتس اللذين قتلا اثناء العبور . باسم النقيب فولوخ ورجال استطلاعه ، وباسم آخرين كثيرين ... وانتزع باسنانه حلقة الأمان القوية من المقبض.

كانت العربة تقترب ببطء . ويبدو انه قد

لوحظ . كان الألماني ذو ياقة المعطف المرفوعة والذي كان يدير له جنبه ، مايزال ماضياً في التحدث ، بينما الالماني الآخر ذو السدارة الغاطسة الى اذنه ، والذي كان يوجه الأعنة ، اشرأب برقبته متطلعاً الى الطريق . دس ايفانوفسكي ، القنبلة اليدوية تحت بطنه ، ورقد بلاحراك . كان يعرف أنه في بدلة التمويه لا يلحظ كثيراً من بعيد ، فضلا عن أن الثلج قد فرشه في الأخدود الى حد كبير . اختبأ محاولا ان لا يتحرك ، بل وكتم أنفاسه تقريباً ، واغمض عينيه . فلو كانا قد لاحظاه فليتصورا أنه ميت ، وليقتربا اكثر .

ولكنهما لم يقتربا ، أوقفا الحصانين على بعد حوالى عشرين خطوة ، وصاحا عليه بشيء. بقي لا يتحرك كما كان من قبل ، ولم يلب النداء، واكتفى بأن راقبهما خلسة من خلال جفنيه غير المطبقين تماماً ، شاعراً تحته في رقة بالقنبلة اليدوية المدورة المنقذة اكثر من شعوره بها في اي وقت مضى من هذه الليلة .

اختطف أحد الألمانيين القربينة — وهو ذو الياقة المرفوعة الجالس على العربة — دون أن ينتظر الجواب ، وزحف على الطريق من المؤخرة. بقي الآخر في مكانه ، دون أن يترك العنان من يديه ، وأن ايفانوفسكي قهراً . فقد وقع اسوا مما كان يتوقع . أخذ واحد منهما يقترب منه .

انكمش الملازم من الداخل ، وغامت عيناه ، وساح الطريق وأشجار البتولا فيه الى ناحية . ولكنه بقي على شفا وعيه ، وانتظر .

صلصل الألماني بترباسه مسرعاً ، وهتف بشيء في لهجة آمرة ، وسار في الطريق يصفق باذيال معطفه الطويلة . كان يمسك القربينة مهيأة للاطلاق ، ومتأبطا كرنافتها . ضغط ايفانوفسكى على مسمار القنبلة تحته قليلا ، وهو يردد بلا صوت ، كمن يصلي : «تعال ، تعال ...» وراح ينتظر متحولا بكليته الى تجسيد حي للانتظار العظيم ، اذ لم يعد قادراً على غير ذلك . لم يكن قادراً على قذف القنبلة لتصل اليه ، بل كان قادراً فقط على تفجيره مع نفسه.

الا أن العربجي هذا لم يكن من الشجعان ، كما يبدو ، فكان يسير بحذر ، حتى بدا وكأنه سيرجع عائداً بين لحظة وأخرى . ومع ذلك فقد ظل يقترب . وصار ايفانوفسكي يميز وجهه غير الحليق والناعس ، ونظرته المتوجسة ، وازرار معطفه التي علق بها الجمد . ولكنه قبل ان يصل الى ايفانوفسكي عاد فصرخ بشيء ما، وتوقف . وفي اللحظة التي أعقبت ذلك كاد الملازم نفسه يصرخ من القهر ، وقد رأى الألماني يرفع قربينته الى كتفه ، ويسدد . ولم يكن يحسن التسديد ، فقد ظل يحرك ماسورة القربينة من جانب الى جانب بعناء ومجاهدة ، بينما كان

زميله يتحدث بشيء من العربة ، والظاهر أنه كان يقدم له الارشادات . بقي ايفانوفسكي راقداً بلاحراك كالسابق ، فاتحاً عينيه بسعة ، محدقاً في قاتله ، حتى سالت دموع اليأس على خديه . هاهو قد عاش حتى راى الفجر ، والتقى بالمان في الطريق ! وكل شيء قد أنتهى ببلاهة وسخف، وبلا تدبير ، أنتهى نهاية ماكان يجب ان ينتهي اليها في كل الاحوال . فماذا تبقى له ؟ ان ينهض؟ يصيح ؟ يرفع يديه ؟ ام يتلقى بهدوء وخضوع هذه الرصاصة الأخيرة مواجهة ، ليختفي من على وجه الأرض الى الأبد ؟

انه صائر الى الاختفاء بالطبع ، ولم يبق له غير ثوان معدودات يعقبها الهدوء الابدي العظيم. وبل ان في ذلك اغراء ، في وضعه الراهن هذا ، لأنه سيحرره راساً من كل العذابات . ولكن الآخرين سيستمرون في حياتهم ، وينتصرون ، اذ عليهم أن يدافعوا عن هذه الأرض الخضراء السعيدة ، ويتنفسوا ملء الصدور ، ويعملوا ، ويحبوا . ولكن من يدري ، فلربما سيتوقف مآلهم العظيم على الميتة التي يموتها هنا ، على الطريق ، الملازم ايفانوفسكي آمر الحضيرة ، ابن الثانية والعشرين من العمر .

الا أن الملازم لم ينهض ، لأنه لم يكن قادراً على النهوض ، ولم يصرخ ، ولو أنه قد يكون قادراً لمايزل الصراخ . بل ارتعد فقط ، حين

ازت طلقة وحيدة في الصمت الصباحي الصقيعي، نفذت رصاصة أخرى الى جسمه المدمى . اصابت كتفه ، ولربما هشمت ترقوته ، الا انه لم يتحرك على اية حال ، بل ولم يئن . وفي الجهد الأخير صك على اسنانه فقط ، واطبق عينيه الى الأبد . واستمع بالأمل الأخير الراجف وقع خطوات على الطريق تقترب ، وفكر في ان من المحتمل ان كل شيء لم ينته بعد ، وقد يكتب له النجاح . اذ مايزال لديه أضأل فرصة . انقلب على جنبه ببطء ، وحذر شديد مغالباً الألم الجديد الذي اجتاحه ، وحرر القنبلة اليدوية من تحت جسده . وقد حررها في ذات اللحظة التي هدأت الخطوات على الطريق على مقربة . وشعر تحت جنبه بنطة المسمار المتوترة اللولبية وصدر صوت انفجار فجأة وعلى الفور . أرسل الالماني صرخة قصيرة ، لائذا بالفرار على ما يبدو . واستطاع ايفانوفسكي أن يسمع أيضاً وقع خطوتين مرتين على الأرض ، وبعد ذلك لم يعد يسمع شيئاً ...

وبعد بضع ثوان ، حين ركد الغبار المخلوط بالثلج ، لم يعد له وجود على هذا الطريق ، ولم تبق الا حفرة غير كبيرة كانت تدخن في الريح على أخدود من أخاديده وكتل متجمدة من التراب تهاوت على الثلج المستثار فيما حوله ،وجثة الألماني الذي قذفها الانفجار منكفئة على الوجه،

وراء الساقية ، وأذيال المعطف الطويلة ملقاة على الثلج الملوث . وقد وقعت العربة على جنبها ، وتناثر قشها على الثلج والحصان الضخم الأصهب يضطرب في عدته محاولا النهوض على قدميه ، بينما كان الألماني الآخر الذي سلم يركض في الطريق باتجاه القرية .



الى القراء

ان دار «رادوغا» – فرع طشقند – تكون ساكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته وشكل عرضه وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : المركز ١٤، العمارة ٣٣.
طشقند – الاتحاد السوفيتي .

تقدم دار **«رادوغا»** فرع طشقند **في العام** ١٩٨٩ لقراءها الافاضل، الكتب التالية لمشاهير الادب السوفيتي:

عنوان الكتاب	اسم المؤلف
مسرحيات مختارة	اوستروفسكي
انشودة الالب	فاسيل بيكوف
ساعيش حتى ارى الفجر	فاسيل بيكوف
فتاة القلعة	احمد خان ابو بكر
ناموس الخلود	دومبادزه
الحدود	قصص كتاب سوفييت
نجمة السعادة الاسرة	قصص كتاب سوفييت

تعلن دار «رادوغا» فرع طشقند للنشر لقراءها الافاضل، بانها اصدرت ولاول مرة باللغة العربية في اربعة مجلدات **«المؤلفات المختارة» لميخائيل شولوخوف**، الروائي البارز في القرن العشرين واحد اعلام الأدب السوفيتي، الحائز على جائزة لينين، وجائزة الدولة وجائزة نوبل، بطل العمل الاشتراكي مرتين.

وتضم كتبه مايلي:

المجلد الأول – **«قصص الدون»**.

المجلدان الثاني والثالث – **«ارضنا البكر»**.

المجلد الرابع – **«لقد قاتلوا من اجل الوطن»**، و **«مصير انسان»**.

وغدت روايتاه «قصص الدون» و «ارضنا البكر»، اللتان عكستا بجلاء التحولات الثورية التاريخية في روسيا، ضمن الرصيد الذهبي للادب العالمي. كما حظيت بشهرة عالمية اعماله المكرسة لنضال الشعب السوفيتي ضد الفاشية مثل رواية «لقد قاتلوا من اجل الوطن» وقصة «مصير انسان».

فسارعوا قرائنا الاعزاء الى حجز واقتناء نسخكم كي لا تفوتكم الفرصة، عن طريق وكلاء «ميجدونارودنايا كنيغا» في بلدانكم.

تعلن دار «رادوغا» فرع طشقند لقراءها المحترمين بانها اصدرت رواية **«دوبروفسكي»** للشاعر الروسي العظيم **الكسندر بوشكين**.

وتحتل رواية «دوبروفسكي» مكانة خاصة بين اعمال بوشكين النثرية. ويرتكز موضوعها على واقع من حياة نبيل فقير اغتصب جاره الغني اراضيه وازاحه من ضيعته. ويظهر بوشكين في هذه الرواية ككاتب فذ في النثر الفني.

كما وتحتل رواية **«الجواب المسحور» لنيقولاي ليسكوف** بين منشورات دار «رادوغا» مكانة مميزة. «نيقولاى ليسكوف – كما قال مكسيم غوركي – كفنان للكلمة، يستحق بجدارة ان يقف في صف اساطين الأدب الروسي من أمثال ليف تولستوي وغوغول وتورغينيف وغونتشاروف...»

ويضم الكتاب قصصه المشهورة مثل «ليدي مكبث قضاء مسينسك» و «الجواب المسحور» و «الاعسر» و «فنان المكياج».

نأمل الا تفوتكم الفرصة لاقتناء هذين الكتابين.